نيقولو مكيافللي

فاروق سعد



الأمير

تراث
الفكر السياسي
قبل الأمير وبعده



نيقولو مَكيافللي



الأمير

تعليق : بنيتو موسوليني
مقدّمة : كريستيان غاوس
تعريب : خيري حمّاد
تعقيب : فاروق سعد

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الحادية عشرة

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

بنيتو موسوليني

تعليق عام ١٩٢٤
على كتاب الأمير

حدث ذات يوم أن أفادني رجال فرق[٥] القمصان السوداء في إيمولا Imola أن سيفاً سيهدى إليه منقوشاً عليـه قول مكيافللي : « ليست المحافظة على الدول بالكلام » . وكان أن وضع حد لترددي وتحدد اختيـــار موضوع الرسالة الذي أقدمه اليوم لتقترعوا عليه [١] . وبإمكاني تسميته « تعليق عام ١٩٢٤ على كتاب الأمير لمكيافللي » . وذلك الكتاب الذي أودّ أن أطلق عليــه « ملازم رجل الحكم[٢] » . يقتضي ، للأمانة الفكرية ، أن أذكر أن مراجع رسالتي هـــذه قليلة ، كما سنرى فيما بعد . لقد قرأت كتاب «الأمير» وغيره من مؤلفات ذلك (الأمين المعظم) قراءة واعية، ولكن الوقت والإرادة حالا دون أن أقرأ جميع ما كتب عن مكيافللي في ايطاليا

---

١ – كان كتاب الأمير موضوع رسالته لنيل درجة الدكتوراه . نشر هذا التعليق في مجلة جراركيا Gerarchia

٢ – Vade - mecum de l'homme de gouvernement

وفي العالم . وأردت أن أضع بيني وبينه أقل عدد من الوسطاء القدامى أو المحدثين ، الايطاليين والأجانب ، كي لا أفسد عملية الاتصال المباشر بين مذهبه وحياتي التي عشتها، وبين ما لاحظ ولاحظت عن البشر والأشياء وبين ممارسته للحكم وممارستي له .

وبالتالي يكون ما أتشرف بتلاوته عليكم ليس ذلك الاستطراد المدرسي الفاتر الحافل باقتباسات عن الآخرين . إن ذلك كما أعتقده هو تمثيلية ، فيما لو استطعنا أن ننظر بعين الاعتبار الى محاولة إقامة جسر روحي فوق هوة الأجيال بروح مسرحي معين ، ولا أضيف جديداً .

القضية هي : ماذا يبقى خالداً في « الأمير » بعد أربعة قرون من الزمن ؟. هل يمكن أن تكون لنصائح مكيافللي أية فائدة لرجال الحكم المحدثين ؟ هل أن قيمة المذهب السياسي لكتاب الأمير هي وقف على العصر الذي كتب فيه ، وبالتالي فهي قيمة محدودة بالضرورة وباطلة الى حد ما ؟ أوليست شاملة وواقعية الى حدّ ما وخاصة فعالة ؟. إن رسالتي تجيب على هذه الأسئلة ، وأؤكد أن مذهب مكيافللي حيٌّ اليوم بعد أربعة قرون . والسبب أنه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيراً كبيراً فإن التغييرات في روح الأفراد والشعوب لم تتجلَّ عميقة جداً .

وإذا كانت السياسة هي فن حكم البشر ، أو بعبارة أخرى تربية أهوائهم وأنانياتهم ومصالحهم بالنظر الى غايات نظام عام يكاد أن يخرج دائماً على نطاق الحياة الفردية لأنها غايات تمتد الى المستقبل. إذا كانت تلك هي السياسة، فلا ريب في أن الانسان هو العنصر الجوهري لهذا الفن ومن هنا يجب الانطلاق .

ما البشر في المذهب السياسي لمكيافللي ؟
ما فكرته عن البشر ؟ هل يتفاءل أم يتشاءم ؟

حين نقول بشراً ، هل يجب علينا أن نفسر اللفظ بمعناه الضيق ، وبعبارة أخرى نعني بهم الايطاليين الذين عرفهم مكيافللي ، وحكم عليهم كمعاصرين له ، أو نفسره بمعنى البشر فيما وراء الزمان والمكان ، ولكي نستخدم عبارة سامية نقول : بمعنى يدخل « تحت مظهر الخلود » . Sub specie Oeternitatis

قبل الشروع في فحص أكثر تحليلاً لمذهب السياسة الميكافللية كما تظهر لنا مركزة في « كتاب الأمير » ، يبدو لي أنه يقتضي أن نحيط علماً بالفكرة التي كانت عند مكيافللي عن البشر عامة ، وعن الايطاليين خاصة ، فالواقع إن النتيجة الواضحة ، وحتى من قراءة سطحية لكتاب الأمير ، هي تشاؤم مكيافللي العنيف فيما يخص الطبيعة البشرية . إنه يحتقر البشر ، شأن هؤلاء الذين أتيحت لهم الفرصة لمعاملة أندادهم معاملة رحبة ومتصلة ، ويحب أن يقدمهم إلينا في مظاهرهم السلبية كأشدّ ما تكون السلبية ، والدنيئة كأحطّ ما تكون الدناءة .

البشر عند مكيافللي ، خبثاء ، يتمسكون بالمصالح المادية أكثر من تمسكهم بحياتهم الخاصة ، وهم على استعداد لتغيير أهوائهم وعواطفهم ، ويعبر مكيافللي عن فكرته هذه في الباب السابع عشر من « كتاب الأمير » هكذا : « وقد يقال عن الناس بصورة عامة ، أنهم ناكرون للجميل ، متقلبون ، مراؤون ، ميالون الى تجنب الأخطار ، وشديدو الطمع وهم الى جانبك ، طالما أنك تفيدهم ، فيبذلون لك دماءهم ، وحياتهم وأطفالهم ، وكل ما يملكون كما سبق لي أن قلت . طالما أن الحاجة بعيدة نائية ، ولكنها عندما

تدنو يثورون . ومصير الأمير – الذي يركن الى وعودهم ، دون اتخاذ أية استعدادات أخرى – الى الدمار والخراب . إذ أن الصداقة التي تقوم على أساس الثراء ، لا على أساس نبل الروح وعظمتها ، هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون أمنية موثوقة ، وهي عرضة لأن لا تجدها في خدمتك ، في أول مناسبة . ولا يتردد الناس في الاساءة الى ذلك الذي يحمل نفسه محبوباً، بقدر ترددهم في الاساءة الى من يخافونـه ، إذ أن الحب يرتبط بسلسلة من الالتزام ، التي قد تتحطم ، بالنظر الى أنانية الناس ، عندما يخدم تحطيمها مصالحهم ، بينما يرتكز الخوف على الخشية من العقاب ، وهي خشية قلما تمنى بالفشل » .

وفيما يخص الأنانية : أعثر بين « الأوراق المكيافللية » على ما يلي : « إن الناس يحزنون لانتزاع ملكية منهم ، حزناً يفوق حزنهم على موت أب أو أخ ، لأن الموت ينسى أحياناً أما الثروة فلا تنسى أبداً » ، وسبب ذلك بسيط : كل يدري أن تغيير دولة لا يمكن أن يعيد أباً ولكن قد يعيد اكتساب ملكية» . وأعثر في الباب الثالث من «المطارحات[1]» على ما يلي :

« أشار جميع كتاب السياسة ، عبر التاريخ الطويل إلى ان التاريخ حافل، بأمثلة تقيم الدليل على ان من الضروري لمن يعد جمهورية وتعلن فيها نظماً ، أن يفترض أن جميع البشر خبثاء ، وهم دائماً على أهبة لاستخدام خبث نفوسهم حين تواتيهم فرصة خاصة لذلك . إن البشر لا يفعلون أي خير أبداً إلا بالضرورة ، ولكن هناك حيث تتوفر الحرية ، وحينما يمكن أن تكون لدينا فوضى، يمتلىء كل شيء في الحال بالاضطراب وعدم النظام » .

ومن الممكن أن تستمر الاقتباسات ، ولكن هذا غير ضروري . ان الفقرات التي اقتبسناها تكفي لإثبات كون الحكم السلبي على البشر في زمن

---

(١) تعريب خيري حماد . منشورات المكتب التجاري . الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢ .

مكيافللي ليس عرضياً ، ولكنه حكم جوهري . وجلي أيضاً أن مكيافللي حين يحكم على البشر كما حكم عليهم ، لم يفكر فحسب في أبناء عصره من أهل فلورنسا وأهل توسكانيا والايطاليين الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، ولكن في البشر كافة دون حصر زماني ومكاني . أما الزمن فقد انطوت منه حقب ولكن لو أتيح لي أن أحكم على أمثالي وعلى أبناء عصري فقد لا أستطيع أن أضعف من حكم مكيافللي ، وقد يكون من واجبي أن أزيد من أهميته .

مكيافللي نفسه لا ينخدع ، وهو لا يخدع الحاكم . إن التعارض في فكر مكيافللي بين الحاكم والشعب ، بين الدولة والفرد تعارض محتوم ، وهذا ما أطلقنا عليه تسمية النفعية والبراغماتية . والسلبية المكيافللية تنبع بصورة منطقية من هذا الموقف المبدئي . يجب أن نفهم من كلمة « أمير الدولة » ، وفي فكر مكيافللي الأمير هو الدولة ، ان الدولة تمثل تنظيماً وتحديداً بينما الأفراد تدفعهم أنانية نفوسهم فينزعون إلى الخمود الاجتماعي . الفرد ينزع إلى الهرب باستمرار ، ويميل إلى عصيان القوانين وعدم دفع الضرائب والامتناع عن خوض الحرب . وقليل هم الأبطال أو القديسون الذين ضحوا بمصلحتهم على مذبح الدولة وغير هؤلاء جميعاً في حالة ثورة مكبوتة ضد الدولة . إن ثورات القرنين السابع عشر والثامن عشر قد حاولت أن تحل هذا الصراع الذي يكون عند قاعدة وكل تنظيم اجتماعي لدولة ، وذلك بأن أظهرت السلطة وكأنها صادرة عن إرادة الشعب الحرة ، وهذه خرافة فضلاً عن كونها وهم . فأولاً لم يكن بالإمكان تعريف الشعب أبداً ، وهذا ككيان شيء أساسي هو كيان مجرد تجريداً بحتاً . إننا لا نعرف معرفة مقفلة لا

من أين بدأ ولا أين ينتهي . إن صفة السيادة حين تطبق على الشعب تكون سخرية مؤلمة . الشعب يرسل على أكثر تقدير ممثليه ، ولكنه لا يستطيع في الحقيقة أن يمارس أية سيـــادة . إن النظم التمثيلية تخص الآلية أكثر من الأخلاق . وفي البلاد نفسها التي تستخدم فيها هـذه الآلية أعظم استخدام منذ قرون وقرون تأتي ساعات حاسمة لا يطلب فيهـا من الشعب شيء أكثر من ذلك، لأننا نشعر أن الجواب قد يكون مهلكاً، وتنزع من الشعب تيجان السيادة الورقية وهي تيجان مجدية في الأوقات العـادية ، ونأمره بأن يرضخ إما لثورة أو لسلم ، أو السير نحو حرب مجهولة ولا إجراء آخر، فليس سوى الرضوخ والطاعة أمام الشعب .

وترون أن السيادة التي تمنح للشعب باللطف تسحب منه في اللحظات التي قد يستطيع فيها أن يشعر بالحاجة إليها وتركها له وحده ، عندما تكون غير ضارة أو ممدوحة ، كذلك وبعبارة أخرى في لحظات الادارة العادية . هل تتصورون حرباً أعلنت بالرجوع إلى الشعب ؟ إن الاستفتاء يسير سيراً حسناً جداً ،عندما يكون بصدد اختيار أنسب مكان لوضع نافورة القرية، ولكن عندما توضع المصالح العليـا للشعب في الميزان تتقي جيـــداً الحكومات البيروقراطية أنفسها من أن ترجعهـــا إلى حكم الشعب نفسه . إذا هنالك على الدوام الصراع بين القوة المنظمـــة للدولة وبين شرائح الأفراد والجماعات ويوجد حتى في النظم التي صنعتها لنا الموسوعة (Encyclopedie) ، التي أخطأت عبر روسو بأن أسرفت في التفاؤل إسرافاً لا يقـــاس ، ولم توجد أبداً نظماً حازت الموافقة المطلقة ويحتمل ألا توجد أبداً . ولقد كتب مكيافللي في كتـاب « الأمير » ٢ قبل أن تنشر مقالتي Forzo e consenso بزمن

طويل : « ولذلك حدث أن انتصر جميــع الأنبيــاء غير العزل ، وهلك الأنبياء العزل . لأن طبيعة البشر متقلبة ، ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور ولكن من الصعب أن نبقي على إيمانهم هــــذا . ومن هنا وجب تنسيق الأمور بحيث يمكننا استخدام القوة لنكرههم على الإيمان بما ارتدوا عنه . لو كان موسى وكورش ورمولوس عزلاً لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يمارسون شرائعهم أمداً طويلاً » .

بنيتو موسوليني



تقديم المعرّب

طلب إليّ الناشر الكريم ، الأستاذ زهير بعلبكي ، صاحب المكتب التجاري أن أقوم بتعريب هذا الكتاب الذائع الصيت فبيّنت له ، ان هذا الكتاب قد نقل إلى العربية قبل نحو من أربعين عاماً .

ولكن الأستاذ بعلبكي ، أصر على تعريبه من جديد ، فذلك الكتاب ، القديم ، لم يعد له وجود في المكتبة العربية وحيثما ذهبت لا تجد له أثراً في أية مكتبة من المكتبات حتى تلك التي تقوم على بيع الكتب القديمة .

وترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، ووضعه في متناول الجميع ، أمران ضروريان ، إذ لا غنى عنه لكل من يدرس السياسة أو يزاولها كمهنة ، أو يتتبع أحداثها كهواية ، أو يعالجها كموضوع ، أو يرقبها كأحد النظارة على مسرح العالم السياسي .

فكتاب « الأمير » لمكيافللي — وقد كنت أوثر أن أسميه « السلطان » بدل الأمير ، لكنه عرف بهذا الاسم — كان ولا يزال المعلم الأول لرجال السياسة في العالم يستوحون قواعده ، ويستلهمون مثله ، ويطبقون نصائحه وارشاداته ، ويعملون بتوجيهاته وتعاليمه .

وقد تختلف هذه المثل ، وتلك التعاليم اختلافاً واضحاً عن مثالياتنا وعقائدنا ، في هذه الأيام ، وقد يكون في هذا الاختلاف تنكر لكل ما

نرى فيه فضيلة وعدالة وحقاً ولكن شؤون السياسة وألاعيبها ، ومؤامراتها ودسائسها ، علمتنا أن نرى ان هذه المثاليات لم تغدُ بعد القاعدة الأولى التي تتحكم في حياة العالم السياسية وتصريف مقدراته ، وتوجيه تياراته ، وان قواعد مكيافللي ، ما فتئت هي المنارة التي يهتدي بهديها معظم الحكام ، حتى في هذا العصر الذي نعيش فيه .

واني لأعتقد ان من واجب كل حاكم ، دراسة مكيافللي دراسة عميقة علمية ، لا لتطبيق قواعده التي تتناقض مع المثاليات التي يؤمن بها الحاكم والتي تحببه إلى شعبه، وإنما على الأقل ، ليعرف هذه القواعد ويتجنب آثارها إذا ما أقبل الخصم على تطبيقها والسير على أسسها .

وإذا ما درس القارىء الكريم هذا الكتاب وأمعن النظر فيما حوله من أحداث ووقائع واتجاهات وتيارات ، رأى أن الكثير منها توجهها نظريات مكيافللي وآراؤه ، وتتحكم فيها قواعده وأفكاره ، مما يشير اشارة واضحة إلى أن هذا الكتاب رغم مرور نحو من خمسمائة عام على وضعه ما زال الموجه الملهم للكثيرين من رجال السياسة ومنفذيها في مختلف أنحاء العالم .

وقد حاولت في تعريبي لهذا الكتاب أن أنقله بصدق وأمانة وأن أراعي في تعريبي نفس الروحية والأسلوب اللذين اتبعهما المؤلف في وضع كتابه فعسى أن أكون قد وفقت في أداء هذه المهمة .

خيري حماد



مقدّمة كتاب الأمير

كريستيان غاوس

عميد جامعة برنستون الأميركية "سابقاً"

١

كان القارىء الأمريكي العادي قبل نحو من نصف قرن أو الطالب في أي من جامعات أمريكا ، إذا تناول كتاب « الأمير » لمكيافللي فإنما يتناوله بدافع الفضول ليس إلا ، فقد بات هذا الكتاب بالنسبة اليه ، من الكتب التي طوتها صفحة الزمن لا سيما وإن عنوان هذا الكتاب ، يستفزه على اتخاذ هذا الموقف . إذ أن عهد الملوك والأمراء كان قد ولّى ، أو في الطريق إلى الزوال . وهو يعرف أيضاً أن موضوع هذا الكتاب ، قد دوّن في فترة أسماها أعظم مؤرخي عصر النهضة من الانكليز ، وهو سيموندز بعهد الطغاة ، وكان المعروف والشائع عن مكيافللي نفسه ، إن سمعته موضع الطعن والشبهات ، لا سيا وقد غدت المكيافللية نعتاً يجمع من المعاني ما تحمله كلمة الشيطان مفيستوفاليس في رواية « فاوست » المشهورة . وقد كتب ماكولي ، الكاتب الانكليزي المشهور ، مقالاً ، ضمنه فكرة تقول أن الشيطان قد أسمي بـ « نيك العجوز » لأن نيقولا ، هو الاسم الأول لمكيافللي .

وسأشرح فيا بعد العوامل ، التي أدت إلى أن يلحق الكسوف باسم مكيافللي ، وكتابه الأمير ، في بعض الأوساط ، لكن في وسعنا أن نقول ، إن أي كتاب لم تمر عليه فترات من حسن الطالع وأخرى من نحسه ، في أمريكا ، كما في غيرها من البلاد كهذا الكتاب . ولا ريب في أن الشروح الجديدة للتاريخ ، وظهور صور جديدة من الدول ، في القرن العشرين وما

تبع ذلك من احتكاك بينها ، كلهـا عوامل توضح ، الضرورة التي ثبتت لتحملنا جميعاً على قراءة هذا الكتاب . وليس هناك على الغالب من كتاب مختصر ، وفريد ، وضع في ذلك الزمن الغابر يحمل القارىء في القرن العشرين على أن يواجه مباشرة العديد من المشاكل الأساسية التي يمتاز بها هذا العصر كهذا الكتاب . وتتلخص هذه المشاكل ، فيما يجب أن تكون عليه علاقات المواطن مع الدولة ، وعلاقات الدول بعضهـا ببعض . وفي مصادر سلطة الدولة وحدودها ، إن وجدت ، وبالاضافة إلى ما فيه من اختصار ، فإن كتاب الأمير يشتمل على خصائص أسلوبية ، تجعل قراءته سهلة وممتعـة . ويختلف مكيافللي عن تليران ، السياسي الذي جاء بعده بقرون عدة ، في أنه لا يستخدم الكلمات في إخفاء حقيقة أفكاره . فهو واضح في معانيه كل الوضوح ، وقد يكون في النتائج التي يصل اليها أحياناً ، ما لا يستساغ ، أو يقبل ، لكنها ، على درجة كبيرة من البيان والجلاء بحيث تشبه اللكمـة التي يتلقاها الانسان على أذنه . ومن نافلة القول ، أن نذكر ، أن مكيافللي يضع أمام القارىء المعـاصر ، بعض مشاكل الرعوية والسياسة ، والنفوذ السياسي في محور جديد وكثير البروز .

وسنرى فيما بعد ، إنه في وسع مكيافللي أن يقول « إن ما واجهه ، هو شرط لازب ، لا مجرد نظرية عابرة » . فكتابه ، ليس بالمقال الجامد ، بل الكتيب المختصر الذي يحتاج اليه كل من ينشد القوة السياسية أو يعمل على زيادتها . وهكذا فقد درسه واستخدمـه ، لفيف من الملوك والوزراء الذين اختلفوا في طبائعهم وأهدافهم ، من أمثـال ريشيليو وكريستينا ملكة السويد وفريدريك ملك بروسيا ، وبسمارك ، وكليمنصو وجميع من ذكرت توفرت لديهم الخصائص اللازمة لصاحب السلطان . وقد اتسعت هذه الحلقة في القرن العشرين ، اتساعاً كبيراً فشملت ، أولئك الذين ثاروا على أنظمـة الحكم القديمة . فقد اختاره موسوليني ، في أيام تلمذته ، موضوعاً لاطروحته

التي قدمها للدكتوراه . وكان هتلر ، يضع هذا الكتاب ، على مقربة من سريره فيقرأ فيه كل ليلة ، قبل أن ينام ، ولا يدهشنا قول ماكس ليرنر في مقدمته لكتاب « أحاديث » ، أن لينين وستالين أيضاً ، قد تتلمذا على مكيافللي .

ومن الحق أن يقال أن الكتاب القيم هو كالاكتشاف العلمي السليم ، يمكن أن يوضع للاستعمال البشري ، في صورة الاكراه والالزام ، دون أن يبطل الالزام حقيقته الأساسية وحتى إذا أسفر البحث الذي لا تحيز فيه ، عن الكشف بأن القابضين على ناصية السلطان في الدول الديمقراطية ، كدولتنا مثلاً ، في هذا العصر ، من عدم الاستقرار ، كثيراً ما يستخدمون طرقاً ، كنا نصمها في الماضي بـ « المكيافللية » فإن هذا الكشف ، لا يجدي فتيلاً وكل ما يهمنا هنا ، بصورة رئيسية ، هو البحث عن حالة خطيرة من التوتر في ثقافتنا الراهنة ، وليس في وسع انسان من أبناء هذا القرن ، أن ينكر وصول زعماء سياسيين حديثين إلى السلطة من أمثال لينين وستالين وموسوليني وهتلر الذين أعلنوا أحياناً بصراحة ، دون أن يخفوا شيئاً ، إيمانهم بأن الخلاص لا يأتي إلا عن طريق تزايد قوة الدولة النامية ، وليس في وسع انسان من الناحية الأخرى أن يتجاهل رغبة عارمة ، لدى العديد من الأوساط،لخلق ما أسماه ويندل ويلكي بالعالم الواحد . وليست الأمم المتحدة إلا محاولة تنطوي على العزم والتصميم لخلق « دولة فوق الدول » ، يتطلب نجاحها ، أن يكون في حوزتها نوع من السلطان ، الذي يستخدم من أجل السلام والخير الانساني . ومـا زالت هذه المشكلة ، تخلق توتراً كبيراً في عصرنا . ومنذ خمسين عاماً بدأنا نطلق على مكيافللي اسم مؤسس علم السياسة الحديث . ويرى بعض المؤرخين البارزين من أمثال رانكي دومينيك في المانيا واللورد اكتون في انكلترا في مكيافللي ، أحد مؤسسي طريقة التحليل التاريخي الحديثة . ولذا فإن دراسة مكيافللي من جديد ، وكذلك العطف

المتزايد المستمر الذي بدأ كتاب « الأمير » يلقاه مؤخراً ، يلقيان ضوءاً على أسس مشاكلنا السياسية الرئيسية إن لم يكن على طريقة حلها .

٢

وتمتد جذور كتاب مكيافللي ، عميقاً ، في تاريخ الفترة التي عاش فيها ، إذ أنه لم يكن من الناحية الأولى كاتباً ، أو صاحب نظريات ، بل كان مشتركاً اشتراكاً فعلياً في الحياة السياسية المضطربة وغير المستقرة ، التي مرت بمدينة فلورنسة .

ولد مكيافللي في فلورنسة عام ١٤٦٩ من أسرة توسكانية عريقة . وكان أحد أسلافه قد عارض معارضة فعّالة في وصول المتمولين من أبناء أسرة مديشي إلى الحكم ، في المدينة ، فقضى نحبه من جراء معارضته في السجن . وقد أقام المديشيون حكماً استبدادياً ، من النوع اللين نسبياً ، إذ حافظوا على الأنظمة الجمهورية القديمة ، في الوقت الذي أمسكوا فيه بأيديهم زمام الحكم الحقيقي . ولم يكن المكيافلليون موالين لأسرة مديشي ، فقد كان والد نيقولا (نيكولو) ، محامياً بارزاً ، وكان كوالده من غلاة الداعين إلى الجمهورية . ولم يتوفر لنا إلا القليل عن دراسة مكيافللي الشاب ، في صباه ، ولكن في وسعنا ، أن نفترض أنه تثقف ثقافة مأثورة كغيره من أبناء عصره ، فعثر على مثله العليا في تاريخ الرومان ، وقرأ الترجمات اللاتينية ، لمختلف الكتب الاغريقية القديمة .

وشب ميكافللي في عهد الأمير المديشي ، الذي أطلق عليه الفلورنسيون اسم لورنزو العظيم ، والذي اعتبروا عهده بالعصر الذهبي للنهضة الايطالية . وكان لورنزو أديباً مأثورياً وشاعراً ، فشمل برعايته الفنانين والأدباء ، وأهل العلم . وإليه يرجع الفضل في حفظ التوازن في القوى بين الوحدات الرئيسية

الخمس للسلطات في ايطاليا ، وهي مملكة نابولي ، والدولة البابوية في رومة ، والبندقية ، وفلورنسة وميلان . ومن الواجب أن نذكر ، انه في فترة حكمه بين عامي ١٤٦٩ و ١٤٩٢ ، اغتيل أخوه وأصيب هو نفسه بجراح ، إثر مؤامرة ، قامت بها إحدى الفئات المعارضة المنافسة ، وان نضيف الى ذلك، ان هذه الوحدات الخمس نفسها لم تكن مستقرة . فهي في حالة اشتباك دائم، مع المدن الصغيرة كفلورنسة مثلاً ، التي قادتها اشتباكاتها المستمرة مع بيزا الى ما يشبه الحرب الصريحة المعلنة . وكان توازن القوى تبعاً لذلك ، على درجة من التبدل والغرابة ، حتى أن متتبّعاً ذكياً كمكيافللي لم يكن في وسعه أن يتجاهل عثور مدينته على حل لمشاكلها السياسية . ومات لورنزو عام ١٤٩٢ ، واضطر خلفه بييرو الى الخروج منفياً بعد عامين ، عندما تعرضت المدينة لغزو جديد جاءها على أيدي شارل الثامن ملك فرنسا . وظهر راهب دومينكاني اسمه سافونارولا ، قام باصلاح الجمهورية ونجح في إقامة حكومة ثيوقراطية دينية ، ما عتمت أن انهارت، فأعدم الراهب وأحرقت جثته عام ١٤٩٨ . وانتخب مكيافللي بعد بضعة اشهر، سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنسة ، التي تشرف على الشؤون الخارجية والعسكرية . وأضحى ، من واضعي السياسة ومخططيها ، حتى انه اختير، في اربع وعشرين بعثة دبلوماسية ، بينها اربع لملك فرنسا ، وعدة بعثات لرومة وواحدة الى الامبراطور مكسميليان . ووقع تطور جديد في المنظر السياسي ، بعد ان قضى مكيافللي ثلاثة عشر عاماً في الحكم ، فجاء الجيش الفرنسي من جديد الى فلورنسة ، واضطر أهلها تحت ضغط الفزع والخوف ، الى استدعاء آل مديتشي ، وخرج مكيافللي بدوره منفياً من مدينته .

كان مكيافللي خادماً أميناً مخلصا ، وكفؤاً للجمهورية ، وقضت عليه أوضاع المنفى ان يعيش بعيداً عن فلورنسة ، معتمداً في إعالته على دخل متواضع يجيئه من ممتلكات صغيرة، كانت له في ضواحي المدينة . وقدوصف

هذا الانقلاب في طالعه ، في رسالة بعث بها الى صديقه فيتوري قال فيها:

« ما زلت أعيش في الريف منـذ خروجي الى المنفى . أستيقظ مبكراً عند الفجر وأمضي الى الغابة الصغيرة ، لأرى مـا قام به الحطابون من عمل » . وبعد ان يتبادل الاقاويل والشتائمات مع الحطابين ، يمضي وحيـداً الى احد التلال ، حيث يقرأ دانتي أو شيراك أو تيبولوس أو أوفيد . وبعد أن يتناول غداءه البسيط ، يمضي الى الحانـــة حيث يتحدث الى الطحان وصاحب الحانة ، والقصاب ، وبعض عمال البناء ، ويقضي معهم طيلة بعد الظهر في لعب الورق ، والنرد « نتقاتل على الدريهمات . وعندما يحل المساء اعود الى البيت ، وأدخل الى المكتبة ، بعد ان أنزع عني ملابسي الريفية التي غطتها الوحول ، ثم ارتدي ملابس البلاط والتشريعات وأبدو في صورة أنيقة ، وأدخل الى المكتبة ، لاكون في صحبة هؤلاء الرجال الذين يملأون كتبها ، فيقابلونني بالترحاب وأتغذى ، على ذلك الغذاء ، الذي هو ، في الحقيقة ، ما أعيش عليه ، والذي جعـل مني الانسان ، الذي هو انا . وفي وسعي ان أتحدث اليهم وأن أوجـــه اليهم الأسئلة عن أسباب اعمالهم ، فيتلطفون علي بالإجابة . انني لم اعد أخشى الموت أو العوز ... وقد تمكنت بالملاحظات التي دونتها من ان أضع كتاباً صغيراً أسميته (الأمير) » .

واعتزم مكيافللي ، اهداء كتابه هذا ، الى أحد أفراد أسرة مديشي آملاً بذلك ، ان يدعوه المديشيون للعودة الى الخدمة العامة ، والجاه والمنصب . وكتب بالفعل كتاباً ضمنه الإهداء ، الى لورنزو الجديد ، ولكن من المشكوك فيه قطعاً ان يكون هذا الكتاب ، قد قدّم بالفعل الى لورنزو قبل وفـاته عام ١٥١٩ . والشيء الأكيد الثابت ، ان كتاب الامير قد وُزع على شكل مخطوط ونسخ مرات عدة ، ولكنه لم يطبع إلا بعد خمس سنوات من وفاة مكيافللي عام ١٥٣٢ .

وأوفد مكيافللي في أخريات أيامه ، بفضل أصدقائه ، وبعض المنظمات في فلورنسة ، في بعثات دبلوماسية ، لا شأن لها كبير ، كما تكرم الكردينال دي مديشي الذي أصبح فيما بعد البابا كليمنت السابع ، فعهد اليه بكتابة « تاريخ فلورنسة » ، مخصصاً له مرتباً سنوياً صغيراً .

وكانت قد ظهرت في هذه الآونة عوامل جديدة عقدت مشاكل ايطاليا، وأضافت الى ما تعانيه من مشاحنات وخصومات ، كما ضاعفت من تعاسة مكيافللي وشقائه ، فقد بدأ لوثر إصلاحه الديني ، وأدت المنافسات بين الامبراطور شارل الخامس الالماني ، والملك فرنسوا الأول الفرنسي، للسيطرة على ايطاليا ، الى ما لحق بروما من خراب ، والى طرد عائلة مديشي من جديد من فلورنسة .

٣

ولا يضم كتاب الأمير ، جميع آراء مكيافللي السياسية ، إذ اقتصر على بحث اكثر مشاكل ايطاليا حدّة، وإلى الحديث عن تخلفها في التنظيم السياسي. والقوة العسكرية ، عن الدول المجاورة لها ، كأسبانيا وفرنسا ، وكان هذا الحديث موجهاً الى الأمراء ، من أمثال أسرة مديشي الذين ظهر اسمهم في الإهداء . ولعل عدم إقدامه على طبعه في حياته على الرغم من نسخه وبروز اسمه عليه ، خير برهان ، على ما سبق لنا قوله . وعلينا أن لا تعرونا الدهشة من تذكر الحقيقة الواقعة ، وهي أن الكتاب غدا مرجعاً لكل طامح في السيطرة السياسية ، كما غدا كتاباً مقروءاً ، يدرسه المثاليون والمغامرون السياسيون على حد سواء ، في القرن العشرين عندما اصبحت الدول القومية عرضة لفترة من عدم الاستقرار . ولعل من سوء حظ سمعة

مكيافللي ، ان هذا الكتاب بالذات قد طغى على جميع مؤلفاته ، وأضحى المؤلف الوحيد الذي تستند اليه سمعته .

ولم يمض عشرون عاماً على طبعه ، حتى كان هذا الكتاب ، قد طبع للمرة العشرين . وإذا كان هناك من بطل للأمير ، فهو قيصر بورجيا ، الذي تحتل أعماله ومآثره ، الفصل السابع من الكتاب ، بعد إضفاء عبارات الإطراء والثناء عليها . وكان مكيافللي ، شأنه في ذلك شأن « غاريبالدي » الذي جاء بعد عدة قرون ، يرى في وجود دولة دينية في قلب ايطاليا ، عقبة كأداء في طريق وحدتها السياسية . وكان قيصر ، بإغضاء من والده البابا الكسندر السادس ، إن لم نقل بتأييده الفعال ، يعمل على إقامة دولة سياسية قوية في هذه المنطقة ، وكان مكيافللي يرى في هذه الدولة ، إذا ما حالفها القليل من حسن الطالع ، نواة يمكن لإيطاليا الجديدة الالتفاف حولها . وتطلع مكيافللي بعد ان رأى أسرة مديشي تزوّد الكنيسة بعدد من البابوات والكرادلة ، إلى استمرار هذه العملية بنجاح أكبر ، عن طريق تعاون النفوذ الذي تملكه الأسرة في كل من فلورنسة وروما .

وقد أثبت الزمن من وجهة النظر المتعلقة بسمعته الأخيرة أن مكيافللي ارتكب أعظم أخطائه في اختيار هذا البطل ، فقد اقترف قيصر بورجيا جرائم كثيرة ، وهو في طريق الوصول إلى السلطان ، كما اقترف جرائم أخرى بصورة عارضة . لكن ما اتفق عليه المؤرخون والمعاصرون ، في تلك المنطقة ، وهو ما يجب ذكره هنا ، ان قيصر قد اختار مديراً للأشغال العامة في منطقته ، مهندساً ذا مواهب فائقة ، هو «ليوناردو دافنشي» . وثمة سبب آخر حمل مكيافللي على الاعجاب بجرأة قيصر واقدامه ، فإذا تذكرنا ان مكيافللي أثناء عمله في الوظيفة كان مهتماً أيضاً بالشؤون العسكرية ، وانه كان مقتنعاً من أن استخدام فلورنسة وغيرها من المدن الايطالية ، للمرتزقة في جيوشها ، لن يمكنها مطلقاً من اقتناء قوات عسكرية كافية وموثوقة .

وان قيصر ، بعد ان أجرى إصلاحات مهمة في مقاطعته روماتا ، تناولت أفراد الشعب ، اختار جنوده ، من الأهلين ، بعد تدريبهم ، تبين لنا سبب هذا الاعجاب ، الذي حمل مكيافللي ، على احتذاء حذوه . وعلى الرغم من كل هـذا ، فإن النصوص الواردة في الفصل السابع المشهور تشير إلى ان مكيافللي كان مدركاً تمام الادراك ، لما يستفزه اختياره لقيصر كبطل له ، من نقمة وسخط في محيطه ، وهذا الادراك ، هو الذي حمله على التكرار ، أكثر من مرة ان « استعراض الأعمال التي قام بها الدوق (قيصر بورجيا) ، تجعله بعيداً عن كل لوم ، وتحملني على العكس ، كما فعلت ، على اعتباره مثلاً يجب على الآخرين احتذاءه . وأعني بهم أولئك الذين رفعهم الحظ ورفعتهم سواعد غيرهم ، إلى مناصب السلطان » .

ولكن الجو الأخلاقي في أوروبا وايطاليا ، ما عتم ان تبدل تبدلاً كلياً ، ولم يمض خمسون عاماً ، حتى أضحى أي ولد من أولاد البابوات ، ولا سيما هذا النجل بالذات للبابا البورجي ، بعيداً عن أن يكون مثلاً مقبولاً ، المنقذ المرجو لايطاليا . وكانت ثمة اعتراضات أخرى ولا سيما تجسيد تلك الصفات التي تتمثل في كل من الأسد والثعلب والتي تتمثل في القوة والحيلة .

ولهذا السبب ، لم يترك كتاب الأمير أثراً بارزاً وثورياً في حياة ايطاليا السياسية . وأعلنت رومة ، لأسباب أخرى زعمتها ، وضعه على قائمة الكتب الممنوعة عام ١٥٥٩ . وقررت محاكم التفتيش ، إحراق جميع كتب مكيافللي ، وأقر مجمع ترنت الكنسي هذا القرار وكتب أحد البروتستنت الفرنسيين في عام ١٥٧٦ رداً عنيفاً على كتاب الأمير ، سرعان ما انتشر وترجم إلى الانكليزية .

أما بالنسبة إلى القراء البريطانيين ، فقد كانت السرعة التي انتشرت فيها سمعة مكيافللي ، واضحة في تكرار ورود اسمه ، في جميع مؤلفات كتاب

المسرحية في عصر المملكة اليصابات . وبالطبع فإن شخصية مكيافللي ، التي تلقي الاستهلال في مسرحية مارلو « يهودي مالطة » هي شخصية زائفة مزورة . وقد أثبت الأديب الأمريكي هاردين كريغ ، ان الافتراض السالف ، بأن هؤلاء المسرحيين ، لم يكونوا قد اطلعوا اطلاعاً مباشراً ، على مؤلفات مكيافللي ، ليس بالافتراض الصحيح . وقد أصبح من الواضح ، انه بالاضافة إلى الترجمات اللاتينية والفرنسية التي طبعت ، فقد وجدت هناك ترجمات انكليزية كانت توزع على شكل مخطوطات . ولا ريب في أن شكسبير ، في روايته « زوجات وندسور المرحات » عندما أطلق على لسان إحدى شخصياته قوله : « ماذا ، أأنا مخادع .. أأنا مكيافللي ؟ » لم يكن يضفي مديحاً على الكاتب الايطالي وفي وسعنا أن نوجز الصبغة الغالبة لجميع هذه الاشارات في قول مارتسون في روايته « بيجماليون » : « وكان أحد المكيافلليين الملعونين ، يحمل المصباح للشيطان ، برهة من الزمن » .

ولا ريب في ان هذه الأمثلة كافية للاشارة ، إلى أن اسم مكيافللي ظلّ . بعد أن مرت على طباعة كتابه « الأمير » في انكلترا وفرنسا واسبانيا وإيطاليا ، خمس وسبعون سنة وهو يختلط في الأحاديث العامة بهذه الصفات والنعوت التي أشرنا اليها . وقد غدا مكيافللي « عبد الأدب الكبّير » الذي تنهال عليه المثالب وتجري عليه التجارب . ولم يحدث أي تبدُّل في موقف الرأي العام تجاه سمعة مكيافللي فقد ظلت كلمتا « مكيافللي » و « مكيافللية » اليوم تحمل نفس المعاني التي كانت تحملها في الماضي .

وعلى الرغم من ان فرنسيس بيكون ، معاصر شكسبير قد بيّن أن مكيافللي يتناول الأشخاص ، كما هم لا كما يجب أن يكونوا ، فإن أياً من فرسان الأدب والنقد في القرن ونصف القرن التاليين ، لم يقم بأية محاولة لتحسين سمعة مكيافللي

٤

ولم يختلف تقدير العالم المثقف لمكيافللي بصورة جوهرية عن تقدير الرأي العام في حينه ، ولذا ، فإن التبدل القائم في التاريخ الثقافي لأوروبا الغربية ، لاعادة تقييم كتاب مكيافللي ، الذي كان في الماضي ملعوناً ، فغدا الآن مشهوراً ، من قبل المؤرخين وعلماء السياسة ، يعتبر أمراً بارزاً وكبير الأهمية

ويقول « و . ش . دانّنغ » في كتابه « تاريخ النظريات السياسية » ان مؤلف مكيافللي ، كان مغايراً لنظام النظريات السياسية المألوف في عصره ، كما كان اكتشاف معاصره كولمبس لأمريكا ، مخالفاً لنظـام الجغرافية المقبولة في ذلك العصر . وفي وسعنـا أن نضيف ، ان هذا المؤلف ، ظل مغايراً ، للتيارات الجوهرية للفكر السياسي الحديث مدة ثلاثة قرون ، وقـد بدأ مكيافللي في التسلل إلى هذه التيارات الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر ، وغدا قريباً من السيطرة عليها في القرنين التاسع عشر والعشرين .

وكثيراً ما اعتبر أرسطو ، إنساناً واقعياً ، وأثرت رسالته عن «السياسة» على اتجاهات الفكر في العصور التي سبقت ظهور مكيافللي . ولعلّ خير ما يبيّن الفرق بين التراث القديم وبين مكيافللي ، هو أن نضع أمام القارىء ، الاستهلال الذي بدأ به أرسطو رسالته ، وأن نقارن بينه وبين استهلال كتاب الأمير . قال أرسطو في استهلاله :

« لما كانت الدولة ، كل دولة ، نوعاً من المشاركة ، وكانت كل مشاركة ، تتم للوصول إلى نفع وخير – إذ المفروض ان الخير هو نهـاية كل عمل – فان من الواضح انه بالنظر لكون الخير هدف جميع المشاركات ، فان الخير الأسمى ، في أرفع رتبه ، هو هدف تلك المشاركة السامية ، التي تضم كل ما عداها ، أو بكلمة أصح ، الدولة أو المشاركة السياسية » .

وفي امكاننا تلخيص فصل نختاره كنموذج من أرسطو على الشكل التالي :

ثمة شروط ثلاثة يجب أن تتوفر في كل من يملكون السلطة المطلقة في الدولة ، وهي :

١ - الإخلاص لنظام الدولة .

٢ - الكفاءة لاداء مهام وظائفهم .

٣ - الفضيلة والعدالة ، في المعنى الذي يتفق مع نظام الدولة .

وعندما يتحدث عن خير السبل للمحافظة على نظام الدولة ، يقول ان خير ما يصون هذا النظام هو تعليم المواطنين على روحية الدولة إذ « بدون هذا التعليم ، تغدو أحسن القوانين وأكثرها حكمة ، غير مجدية » .

ولا يهتم مكيافللي بتثقيف المواطنين إذ انه يعتبرهم جامدين هامدين . وليست الدولة في رأيه أداة للوصول إلى حياة طيبة » وإنما هي قوة فعّالة بل وحدة ديناميكية مفتونة . ويرى بعض طلاب مكيافللي المعاصرين من أمثال ليوناردو أولشكي ، الذي وضع كتابه « مكيافللي العالم » انه كان أقرب إلى الطريقة العلمية من أرسطو ، أو من غيره من سابقيه ، وان هذا هو العامل الأساسي ، في انقلاب مكيافللي على التقاليد المتوارثة . وفي هذا القول الكثير من الصدق والصحة ، إذ ، على حد تعبير اولشكي « تؤلف الدولة في عقل مكيافللي ، حقيقة نظرية مجردة ، بل مبدأ ثابتاً ، يتمثل حقيقه العلمي في الامارات والجمهوريات » ولعل من بعض الغلو في القول ، أن نذكر أن دور الأمير يقوم في توجيه هذه القوة ، وفقاً للمبادىء التي تتفق في جوهرها مع المبادىء التي يوجه العالم بواسطتها سير صاروخه الموجه . وليس ثمة من هدف فطري في الدولة . إذ ان أي توجيه تسير عليه ، يجب أن يفرضه الحاكم عليها فرضاً .

ولم يكن هـــذا الاعتراف بالصفات العلمية في مؤلفات مكيافللي ، من الناحية الأولى هو الدافع إلى تجدد الاهتمام به وبمؤلفاته ، بل نجم هذا الاهتمام عن اعتبار مختلف كل الاختلاف ، لا يتضح للقارىء ، إلا عندمــا يصل إلى الفصل الأخير من كتاب الأمير . « فالتحريض لتحرير ايطاليا من البرابرة » ، مع الأمل في أن « يختار الله شخصاً لانقاذها » هما أبلغ ما ورد في مؤلفات مكيافللي من فقرات وعبارات . ولا ريب في ان ما في هذا الفصل من شعرية متدفقة تبرز بروزاً واضحــاً في فكرتها ، إزاء العرض الرياضي الرتيب الذي يبدو في بقية أنحـــاء الكتاب حتى ان النقاد والأدباء كانوا حتى عهد قريب يعتبرون هذا الفصل ملحقاً به لا جزءاً أصيلاً منه . لكن أية دلائل لا تقوم مؤيدة اضافة هذا الفصل فيما بعد . والتفسير الصحيح هو ان مكيافللي كان يجمع بين الروح العلمية وبين الوطنية العارمة ، ولعل هذه الروح الوطنية هي التي حملت مكيافللي من جديد ، إلى موضع الاعتبار والتقدير .

ولم تكن النظريات السياسية السابقة ، لتمنى عناية كبيرة بالحقوق الشعبية المجردة . وكانت فرنسا وانكلترا ،مثلاً في عهد مكيافللي ، قد خطتا خطوات أكثر اتساعاً من خطوات ايطاليا نحو الوحدة القومية . لكن فكرة السيادة التي ظلت ردحاً طويلاً موضع البحث والنقاش في النظريات السياسية ، كانت لا تزال مرتبطة ومشتبكة مـــع فكرة الملكية الوراثية . وكانت الحقوق المعترف بها للأمير الذي حصل على لقبه بالوراثة ، من القوة بحيث تيسر لآخر أفراد الهوهنزولرن (الاسرة المالكة في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى) أن يزعم لنفسه الحقوق الالهية التي جعلت منه ملكاً ، وما زلنا حتى يومنا هذا نرى على النقد الانكليزي عبارة لاتينية تشير إلى هذا الحق على الرغم من ان الانكليز قد ارتضوا أحد أبناء اسرة هانوفر (جورج الأول) ملكاً لهم . وكانت سلطات الامراء بالوراثة إبان الحروب الدينية التي نشبت بعد عصر مكيافللي ، مقررة راسخة الدعائم ، حتى ان الأمير كان يعتبر صاحب الحق

في تقرير المذهب الذي يتبعه رعاياه . ولم يكترث أمير مكيافللي كثيراً بالمشاكل السياسية المركزية، التي تحتم على هذه البلاد الاهتمام بها في محاولة لحلها في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد اعترفت القوانين الأساسية للملوك في كل من انكلترا وفرنسا بسلطان الملك وبحقه في الوراثة . وكانت المشكلة الفورية التي تواجهها هذه القوانين ، لا معالجة أوضاع الدول القومية على حقيقتها ، وإنما صياغة الديمقراطية الحديثة التي أضحت طابعنا وتتلخص المشكلة في السؤال التالي : ما هي الحقوق التي يجب أن يتمتع بها الرعايا ، في بلد تمارس فيه الملكيه القائمة على اسس سليمة ، صلاحياتها بشكل مخالف للقوانين الأساسية ولقد كانت هذه المشكلة . هي أكثر المشاكل الحافاً التي عالجتها ثورات انكلترا وفرنسا وأمريكا . وكان من الواجب حلها بتطبيق مبادىء القانون الطبيعي ، ذات الجذور العميقة في اصول القانون الروماني وتطبيقاته ، على الرغم من تجاهل مكيافللي لها ، وإهماله أمرها ، ولو أعدنا قراءة اعلان الاستقلال الأمريكي بشكل سطحي ، وما فيه من اتهام الملك انكلترا فسيتبين لنا اننا حتى في عام ١٧٧٦ ، لم نكن نصر إصراراً قاطعاً على الحقوق القومية . ولم تكن الذريعة التي اعتمدنا عليها في إقامة الدولة الجديدة ، هي تعلقنا بقوميتنا الأمريكية ، بل نشداننا التمسك بالحقوق الجوهرية للحياة الانسانية ، كالحرية والسعي وراء الرخاء ، وهي حقوق اعتدى عليها ملك انكلترا الذي كنا من رعاياه . ومع ذلك ، كانت الاعتبارات القومية التي قدر لها أن تبرز مكيافللي في حياة القرن التاسع عشر السياسية تفكيره آخذة في التطور .

٥

اعتبر المؤرخون والعلماء السياسيون ، منذ أيام عصر النهضة ، التي كان مكيافللي أحد أبطالها وممثليها ، الحضارة الأوروبية عميقة الجذور ، تمتد إلى أقدم أيام الانسان ، مارة بحلقة طويلة من التطور . عبر القرون الوسطى تشبه فترة العلاج الطويل في المصطلح الطبي . وقام أدباء القرن الثامن عشر بصورة خاصة بسلسلة من التحريات قدر لها أن تؤدي إلى نتائج اخرى وأن تميل الى فصل ذلك الرابط المنبعث عن الإحساس بالقدم . ويطلق طلاب الأدب على هذه الفترة اسم الثورة الابتداعية (الرومانطيقية) وقد اهتمت هذه الثورة في إحدى مراحلها ، بالقرون الوسطى على علاتها ، وأدى اهتمامها الى عناية فائقة للغاية بشعر هذه الحقبة وأغانيها الشعبية . وكانت هذه الحركة أكثر بروزاً في المانيا منها في غيرها من البلاد ، على الرغم من انها لم تكن قد خطت نحو الوحدة القومية .وكانت ألمانيا أقل البلاد الأوروبية تأثراً بالرومان ولذا لم يكن من المدهش أن نراها تبحث عن أصول ثقافتها ، في شعرها الشعبي المنقول عن القرون الوسطى ، وفي عاداتها ومؤسساتها . وهذا التيار الفكري الحديث هو الذي أثمر ما عرف في عهد هتلر بالثورة على الغرب ، وهي التي تعني الثورة على التقاليد الاغريقية - الرومانية . وهذا التجميد للشعب ذو علاقة وثيقة بما بدا من تأكيد أو حتى من غلو في تأكيد الأصول القومية بصورة عامة . ويبدأ الشعب يتخذ صورة الوحدة الخفية ، أو الشخص الماثل ، مع ما تربط هـذا الشخص إلى نظرائه وقرنائه من وشائج القربى والدم . وهكذا أصبحت حقوق السيادة متمثلة في هذا الشعب دون غيره ، كوحدة خفية وكشخص قانوني وبالطبع لم تكن لدى مكيافللي أية فكرة كهذه عن وجود شعب إيطالي ، إذ ان الايطاليين كانوا بالنسبة إليه النسل

المباشر الرومان » ولذا فانهم أحق من غيرهم من الشعوب في أن تكون لهم دولة قومية ، وهكذا فان ارتفاع موجة المطالبة بتأميم المؤسسات في أوروبا وخلق الدول القومية ، قد أدى إلى عودة أفكار القوميـــة إلى الظهور على المسرح وإلى إقحام هذا الاتجـــاه الفكري في التيار العام الذي ساد القرن التاسع عشر .

٦

وامتازت فلسفة هيغل في القرن التاسع عشر ، بالعمل على أن ترى فى الدولة الجهـــاز الذي تتحقق عن طريقه الإرادة الإلهية ، على التاريخ أو بواسطته . ومالت هذه الفلسفة إلى وضع القوى التي تؤثر على العالم الانساني فوق سيطرة البشر . وقد أخذت هاتان العقيدتان التي تقول اولاهما بالقومية كوحدة خفية تمتد جذورها في الشعب ، وتقول ثانيتهما برأي هيغل ، في ان الدولة قوة تفرضها السماء ، وسلطة تتجاوز حدود اللانهائية في تطوير الحضارة تشتدان وتقويان لتنبثق عنهما فكرة الدولة القومية ، ومهد هـــذا التطور الطريق أمام موقف أكثر تقبلاً للافكار القومية التي انطوى عليهـــا كتاب الأمير . وارتفع الستـــار الذي كان مفروضاً على مكيافللي ، وأسفر تحقيق الوحدة القومية الايطالية التي كان نبيها الأول على اعتباره بطلاً من الأبطال. وجعل الايطاليون من ذكرى مرور أربعمائة عـام على مولده في سنة ١٨٦٩ عيداً قومياً ، وأقامت مدينته فلورنسة على ضريحه نصباً تذكارياً كتبت عليه العبارة التالية : « لن يكون أي اطراء كافياً لوفاء مثل هـــذا الاسم العظيم حقه » .

وتميل العامة من قراء المناقشات الأخيرة عن كتاب « الأمير » التي دارت بين علمـــاء السياسة ، إلى استخلاص نتائج خاطئة ، فهم يعرفون ان هتلر

وموسوليني وستالين قد اتبعوا سيراً من العمل ، كعمليات التطهير التي تشبه القواعد التي وضعها مكيافللي . وعندما يرون ان الدراسات الأخيرة لكتاب الأمير تميل إلى انصاف مكيافللي وإطرائه بالذبـــة إلى معتقداته السياسية الأساسية ، يستنتجون بأن علماء السياسة أخذوا يتجهون اتجاهات فاشية واني أرى من اللازب ، هنا ، أن أورد كلمة شرح ضرورية .

لا ريب في ان الكثيرين من الزعماء السياسيين من مختلف الفئات والاتجاهات الذين تولوا منذ أيام مكيافللي ، قد وجدوا في كتابه الأمير ، الكثير ممـــا يتفق مع أهدافهم وأغراضهم . وعلينا ان لا ندهش لرؤية المؤرخين الألمان في مطلع القرن التاسع عشر يبدون اهتماماً خاصاً بمكيافللي فلقد كانت المشكلة الرئيسية لألمانيا ، شأنها في ذلك شأن ايطاليا ، الحاجة إلى الوحدة القومية . وكان رانكي ، الذي يعتبر أقدر المؤرخين الألمان ، ومؤسس الطريقة التاريخية الحديثة ، يشعر بالاضطراب الى حد كبير . ولا ريب في أن ما كتبه عـــن مكيافللي ينطوي على نوع من الاعتذار والتبرير ، عندما قال انه وقد أدرك الحالة اليائسة التي تعاني منها ايطاليا ، وقد وجد « الشجاعة ليصف لها السم كعلاج » .. وينطبق هذا القول على الكثير من الوصفات المميتة التي وصفهـا مكيافللي لعلاج ما نسميه الآن «بالقتل الاشفاقي». ولكن رانكي يرى دائماً في مكيافللي الرجل الذي يتأثر دائماً من أقوال ناقضيه وأعدائه ، لأنهم لا يفهمونه ، ولأنه على حد تعبير رانكي «مؤلف من الطراز الأول لم يكن في يوم من الأيام بالرجل الشرير». ولا ريب في ان مينيكي يعتبر من أقدر المؤرخين الألمان في القرن العشرين. ويبدو ان هذا المؤرخ لم يتأثر بكتاب سابق، كما تأثر بمكيافللي، فوضع عنه دراسته التحليلية المشهورة لكتاب الأمير ، التي تستخدم كمقدمة لأحسن الطبعـات الالمانية من الكتاب . وموضوع الوقت هنـــا على جانب كبير من الأهمية ، فنظرية رانكي في التاريخ ، قد تأثرت بأحداث القرن التاسع عشر وتياراته الفكرية . أما نظرية مينيكي المتشائمة ، فقد وضعت في القرن العشرين وكتبت

دراسته التحليلية عن كتاب الأمير ، في الفـــترة المضطربة التي تلت الحرب العالمية الأولى . ومع ذلك أبدى مينيكي شجـاعة فائقة في رفض ادعاءات هتلر ، بزعامة الشعب الألماني ، وأبى أن يذعن عندما أراد هتلر أن يفرض السيطرة الفكرية على الجامعات الألمانيـة .. وكان الكونت كارلو سفورزا في ايطاليا المعاصرة من أشد خصوم موسوليني جرأة وشجاعة . وسفورزا هذا هو الذي ألف مجلداً عن أفكار مكيافللي الحيّة ، وهو المجلد الذي يؤكد خلود الكثير من تفكير الكاتب الايطالي .

وكان التيار الفكري في الميل إلى مكيافللي في فرنسا وانكلترا وأمريكا، أبطأ منه في غيرها من البلاد . وكان بعض المؤرخين في انكلترا ، أكثر اهتماماً بالمحافظة على الحريات الشخصية والمدنية من اللورد اكتون ، ولا ريب في أن أقواله عن تأثير الفساد على السلطان أشهر من أن تكرر . ومع ذلك ، فقد كتب اكتون هذا ، في الحقبة الأخيرة من القرن الماضي ، المقدمة التي تظهر عطفاً عاماً على مكيافللي ككتاب بيرد عن الأمير . وبدأ الاهتمام الأولي في أمريكا بمكيافللي ، بعد الحرب العالمية الأولى وكان خيرة ما ظهر من كتب عنه في الحقبة الأخيرة . وأود هنا أن أقول ، تجنباً لكل سوء فهم ، انه إذا كان طلاب النظريات السياسية من الأمريكان ، قد أضحوا أكثر ميلاً لمكيافللي فان هذا لا ينبثق عن اتجاههم نحو الفاشيّة وإنما عن محاولتهم ممارسة الطريقة العلمية . ويبدو لي ان ثمة خطأ في هذا الموضوع ، وان هـذا الخطأ قد بولغ فيه إلى حد كبير . وعلينا أن ندرس بعناية ، ولو لحظة من اللحظات، كيف ظهر هذا الاتجاه . وإذا أردنا أن نضع اعتبـار مكيافللي تحت المجهر ، فمن الضروري أن نذكر أنفسنا انه إذا كان ثمة خطأ قد ارتكب فإن هذا الخطأ إدراكي ، فكري ، ولعل من نافلة القول أن نذكر ان الأخطاء الفكرية في الديمقراطية الأمريكية بريئة في مقصدها .

٧

من حسن الطالع ، في ناحية واحدة على الأقل ، ان دراسة السياسة تسمى عامة بعلم السياسة ، إذ أن السياسة لا يمكن أن تكون علماً ، بنفس المحتوى الذي ينطوي عليه علم الفيزياء مثلاً ، لما يقوم عليـــه من قياسات وتجارب وأرقام . ففي كل قرار سياسي ، يوجد دائمـــاً عنصر معين من المغامرة أو المجازفة . والأدباء المعاصرون الذين يميلون الى قبول صاروخ مكيافللي الموجه في نظريته القائلة بالعلاقة بين الدولة والأمير إنما يقبلون بنوع من الجناس بين السياسة والفيزياء . والتجربة في ميادين العلوم الطبيعية ، هي الوسيلة التي يوجه بها العالم سؤاله الى الطبيعة . وهذا ما عمله فرانكلين ، عندما طيّر « طيارته الورقية » في وجـــه عاصفة شديدة من الرعود ، فقد كان يسأل الطبيعة ، الرد على سؤاله عمـــا إذا كان البرق ظاهرة كهربائية . وكانت الطبيعة لا فرانكلين هي التي تولت الرد على هـــذا السؤال . ولا تدخل « المعادلات الشخصية » ضمن نطاق هذه الردود العلمية . أمـا العالم السياسي ، فلا يملك تحت تصرفه مثل هـذه الأساليب المتزمتـة وخير ما يستطيع أن يعمله ، هو أن يدرس دوافع الأمراء في الأوضـاع المحدودة دون أن تكون لديه أفـكار سابقة . وقد اعتقد مكيافللي أن بين هـذه الأفكار السابقة التي تحول دون الوصول إلى الحقيقة ، فكرة شديدة الخطورة ، وهي أن على الأمراء أن يتبعوا نفس القواعد الأخلاقية ، التي تتحكم في سلوك الأفراد ولهذا فقد فرّق مكيافللي ، تمام التفريق ، بين دراسة السياسة ودراسة الشؤون الأخلاقية ، وأكد عدم وجود أي رابط بينهما . وهنا نجد أنفسنا ، وقد خضنا في سلسلة

من التناقضات النفسية (السيكولوجية) ، التي وصل إليها مكيافللي عن طريق إحساسه الواقعي الشديد . فقد أوصى الأمير بأن يستخدم المصانعة والرياء ، حيث يرى استخدامها نافعاً ، للوصول إلى السلطان ، وبالطبع ، لن تكون هذه الطريقة مجدية ، على المدى الطويل ، إذ أن علاقات الأمير المهمة ، تكون مع الأمراء الآخرين . ولا يتطلب إدراك هذه النتيجة أي قسط من التعلق بالمثاليات ، وعلى الرغم من أن لاروشيفوكو الفرنسي ، لا يعتبر من المثاليين ، إلا أنه يقول في احدى حكمه المشهورة ان « المصانعة هي الجزية التي تدفعها الرذيلة للفضيلة». وهو يعني بهذا ان المصانعة تؤتى أكلها لأن غالبية الرجال ليسوا من المرائين والمنافقين وانهم تبعاً لذلك ، لا يشكون كثيراً . وعندما يمارس جميع الأمراء أساليب الخداع ، يتوقف الخداع عن تحقيق أية نتائج لهم جميعاً . وهذا ما حدث بالفعل لبطله قيصر بورجيا ، إذ حصل على سلطان كبير عن طريق استخدام القوة والحيلة . ولكنه سرعان ما فقد هذا السلطان عندما لجأ الأمراء الآخرون ، إلى نفس أساليبه واستخدموها بنجاح ضده . وعندما قام بعض المؤرخين والنظريين السياسيين ، من أمثال مينيكي ، بخلق شخصية « الرجل السياسي » على غرار « أمير » مكيافللي ، فإن هذه الشخصية من ناحية تفسير التاريخ الإنساني تصبح مضللة في تعبيرها تماماً كتضليل شخصية « الرجل الاقتصادي » التي ابتكرها علماء الاقتصاد ، مدفوعين بنفس الرغبة في أن يكونوا من العلماء ، ولا ريب في ان هذه الرغبة هي رد الفعل الطبيعي للافتراضات التي لا مبرر لها ، وللتفكير الساذج اللين، الذي اقتحم به طلاب السياسة، والزعماء السياسيون والمواطنون عامة ، بوابة القرن العشرين .

٨

كان التفكير في القرن التاسع عشر ، مغالياً في التفاؤل ولعل السبب في ذلك ، أننا جميعاً ، بما في ضمننا المؤرخون ، قد أخذنا نعتقد بأن التقدم هو القانون الحتمي للحضارة . وعلى الرغم من وجود فترات من التوقف • وس الانتكاسات المؤقتة ، فقد كان ثمة شيء في طبيعة العالم وفي طبيعة الانسان ، يجعل الحضارة تسير في طريق إنساني مرغوب فيه . واتجه التفكير في القرن التاسع عشر إلى الناحية القومية بصورة بالغة ، واكتسبت جميع كتب التاريخ التي وضعت في هذا القرن صورة قومية أيضاً . وعندما تناول المؤرخون وضع الدول القومية ، تتبعوا أصولها الخام من عهد قبائل البرابرة الشعبية حتى عظمتها ، وأصبح الشعب يعتبر أداة القدر للتقدم والازدهار . وعندما تطرقوا إلى بحث الشعوب الأخرى ، التي لم تتحقق لها وحدتها افترضوا ان سير التقدم ، قد تأخر بفعل حكام محليين أنانيين ، مؤكدين انها ستصل حتماً وعما قريب إلى مرتبة القومية ، وانتشر الافتراض العام بعد تحقيق الوحدتين الايطالية والالمانية ، بأن البشرية ، أصبحت متأهبة الآن للخطو نحو الأمام ، خطوة واسعة . واستمر هذا الاتجاه الفكري الذي ينطوي عامة على القومية وروح التفاؤل ، طيلة أيام الحرب العالمية الأولى . ولعل خير ما يوضح ايماننا بأن الشعب وحدة فطرية خيرة هو قبولنا دون تحفظ للمبدأ القائل ، بالحق القومي في تقرير المصير . وأصبح من المفروض ، ان الشعب كالملك في النظريات السياسية السابقة لا يمكن له أن يخطىء أبداً . لكن اضطهاد الأقليات في الدول القومية ذات المصير الحر ، وظهور الفاشية الوطنية ، وفشل عصبة الأمم بعد عشرين سنة من قيامها ، كلها عوامل أدت إلى صدمة قاسية

أيقظتنا جميعاً ، بما فينا من مؤرخين وعلماء سياسة . وتلقت الفكرة الجديدة القائلة بأن الشعب ليس « بالوحدة الخيّرة » ، تأكيداً جديداً من تطور نشأ بعد الحرب العالمية الأولى . فقد قام كارل ماركس بتفسير التاريخ من جديد حوالي عام ١٨٥٠ ، واحتفظ ببعض نظريات هيغل القائلة بأن قوى التاريخ لا تخضع لتوجيه الانسان وإنما تعمل تلقائياً وآلياً . وأسقط ماركس الله من حسابه ، على أساس انه افتراض لا جدوى منه ، وفسّر التاريخ تفسيراً يقوم على عداء القومية . وعلى الرغم من أن نظريات ماركس قد أصبحت في حينها موضع الكثير من الجدل والنقاش ، إلا أنها اكتسبت أهمية سياسية من الطراز الأول بعد اعتناق الروس السوفيات لها ، واضفائهم عليها نواة ومركزاً قوميين . ووضعت هذه التطورات نهاية للتفكير الذي ساد القرن التاسع عشر . واختفى من الوجود الاصلاح الذي طالما تردد في القرن التاسع عشر بصورة مقبولة ، وهو اصطلاح « عائلة الشعوب » . واذا كانت هناك عائلة من هذا النوع ، فإنها ولا شك عائلة شقية تعسة . ولو تحمل أي منا مشقة الاطلاع على خرائط أوروبا وآسيا عام ١٩١٠ وقارنها بخرائط عام ١٩٣٠ ثم عام ١٩٥٠ لأذهله ما يجد فيها من استمرار في انتقال الحدود ، وظهور دول جديدة واختفاء أخرى . وتوصل إلى النتيجة المحتومة بأن عالمنا المزدحم والمتشابك يضم دولاً قومية في القرن العشرين ، لا تختلف من ناحية ما فيها من عدم استقرار وفوضى ، عن الأوضاع التي كانت سائدة في دول المدن في ايطاليا في أيام مكيافللي .

٩

ليس من العسير أن نفهم ، لماذا تجدد الاهتمام بآراء مكيافللي في هذه الفوضى الراهنة من الدول القومية في العالم التي تشبه الدول المدنية التي كانت سائدة في أيام مكيافللي .

ويرى الكثيرون من نقاد مكيافللي في القرن العشرين أنه كان الرجل الحديث الأول . ولا ريب في أنه يبدو كذلك ، في ناحيتين على الأقل . فمن الناحية السلبية ، لم يؤمن مكيافللي قط ، بالتقدم ، وقد توقف الكثيرون من الرجال المعاصرين عن الايمان بذلك أيضاً . أما من الناحية الايجابية ، فقد آمن مكيافللي بالقومية ، كما آمن بالطريقة العلمية ، الى الحد الذي حمله على التخلص من الآراء والأفكار الغيبية . ولا ريب في أن مشاكلنا ، من الناحية الظاهرية على الأقل مشابهة للمشاكل التي واجهها . وجل ما يهدف اليه رجل القرن العشرين ، الوصول الى السلام و « السلامة » بالنسبة لدولته ولنفسه . ولكن مكيافللي لم يهتم بالسلام ، ولم يؤمن بضرورته . لكن الحروب في أيامه كانت برداً وسلاماً إذا ما قورنت بالحروب في أيامنا. ولو لم تنشب الحروب آنذاك ، لما قدر للآثار الفنية الخالدة والنصب المعمارية الرائعة في رومة وفلورنسة والبندقية أن تعيش . ولكنه أراد « السلامة » لمدينته وآمن بأن هذه السلامة يمكن أن تتحقق ، بواسطة أمير ، يستطيع أن يفرض على دويلات المدن ، الانصهار في دولة قومية .

من الواضح في كتاب مكيافللي « محادثات عن الجباية » ان الدولة القومية الايطالية تعني بالنسبة اليه أن تكون وريثة عظمة الجمهورية الرومانية ، ومن الواضح أيضاً في جميع مؤلفاته ، انه كان يرى الايطاليين متفوقين على غيرهم من الشعوب والأجناس البشرية . وهو يرى ان ما يحققه الفرنسيون والاسبان من سيطرة على بعض أنحاء ايطاليا ، وما يسلبونه منها ناجم عن تفوقهم في التنظيم السياسي الذي يمكنهم من ذلك . وإذا تمكنت ايطاليا من إيجاد هذه الدولة ، فإن وضعها الجغرافي الممتاز على البحر الابيض المتوسط « بحرنا » ، سيمكنها من إعادة فرض سيطرتها على العالم المتمدن . ولما كانت رومة قد أفلحت في تحقيق ذلك في الماضي فإن في وسع أبناء الرومان ، اذا نظموا

أمورهم تنظيما فعـــالاً مؤثراً ، واذا توفر لهم بعض حسن الطالع وتطبعوا بفضائل الرومان الأقدمين ، ان يعيدوا هذه الأمجاد التليدة . ولعل إحساس مكيافللي العميق ، بالهوان من جراء سقوط الاقوياء ، يفسر هـذه البلاغة العاطفية الرائعة البادية في الفصل الاخير من كتابه ، الذي أثار حيرة ناقديه ودهشتهم . وقد أجمع مؤرخو القرن التاسع عشر على تأييد ايطاليا في كفاحها البطولي لتحقيق الوحدة ، فقد آمنوا انهـا بوصولها الى الوحدة ، ستتمكن من استعادة مركزها التاريخي المرموق بين أسرة الشعوب .

وقد أهمل الناقدون الاشارة بصورة عامة ، وما زالوا يهملونها ، الى عدم وجود مـا يدل على أن مكيافللي كان من المحتمل ان يبدل في نصيحته الى الامير عندما تصبح ايطاليا شعباً واحـــداً . والقيمة الحقيقية ، أو العلمية المفترضة لكتاب الامير ، تجعل ما فيه من نصائح يوجهها الى الحاكم ، لتسير أعماله ، أمراً يمكن تطبيقه بصورة عامة . وكان موسوليني في هذه الناحية حوارياً أكثر ولاء وصدقاً لمكيافللي من مازيني الذي رغم عمله المستمر لوحدة ايطاليا كان يعارض بعض آرائه الاخرى. فالدولة القومية بالنسبة لمكيافللي، أو الدولة بصورة عامة ، هي قوة يجب أن تعتمد في جوهرهـا على العمل الدينامي وعلى العدوان ، وقد كتب أحد خيرة الباحثين السياسيين في امريكا بُعيد الحرب العالمية الاولى ، ان القومية قد برهنت على أنهـا « مرحلة مؤقتة وانتقالية في طريق التوسع » . وإذا لم نحمل هذا الرأي على محمـل الاعتبار والتقدير التامين ، فليس في وسعنا أن نفهم مكيافللي ولا أياً من المشاكل الدولية في عصرنا .

وقد رأينا مكيافللي يستخلص من نظريته العلمية القائلة بأن الدولة قوة ، قواعد السلوك التي يتحتم على الامير اتباعها . فقوة كهذه سواء أكانت قذيفة أو قنبلة لا تنطوي على مبادىء أخلاقية ، لا سيما وقد رأينا أن هذه المبادىء

لا تربط الامير ، وإنما ترك له حق الاختيار في تقبلها أو رفضها. ونحن ندرك أن الأوضاع التي تجد الدولة نفسهافيها هي التي ترسم صورة القواعد الأخلاقية، للمواطن ، في ظل النظام الديمقراطي . فعندما تشتبك بلاده في حرب يتحلل من قواعد احترام مـا للحياة من قداسة وإطاعة الوصية المقدسة التي تأمره بأن لا يقتل . وعندما يرى بلاده في خطر يتوجب عليه أن يدافع عنهـا . ولما كانت مسؤولية الحاكم عن سلامة بلاده تفوق مسؤولية المواطن العادي ، فإن مثله الأخلاقية ، تكون عرضة للتبدل أثناء الحروب أكثر من غيره ولا ريب في أن ما أفزع قراء كتاب الأمير القدامى ، ومـا زال يفزع بعضهم حتى الآن ، هو أن ما أسماه رانكي بالسم والذي وصفه مكيافللي في كتابه ، يمكن أن يستخدمه الأمير لا ضد أعدائـــه الخارجيين فحسب ، بل ضد مواطنيه ، الذين يعارضون في حكمه لسبب من الأسباب . وثمـة فقرات في الكتاب ، يبدو فيها أن تحديد مكيافللي لتطبيق القوانين وسريان مفعولهـا مشتق من نظريته في القوة ، وإليك المثال :

« عندما تفتقر الدولة الى السلاح الكافي ، تنعدم القوانين الجيدة، وعندما تكون جميع الدول مسلحة تمام التسلح تكون جميع قوانينها جيدة. وسأتخلى في حديثي عن القوانين ، واقتصر فيه على الأسلحة » .

وعندما ظهرت في القرن التاسع عشر ، الدول القومية الجديدة كألمانيا وايطاليا ، لم تعتبر القومية قوة من الناحية الأولية ، وإنمـا اعتبرت حارساً خيراً ، للحقوق السيادية التي يتمتع بهـا شعبها ، ولكن هذه الحقوق السيادية التي تمتعت بها الشعوب جعلت العالم الأوسع ، الذي تعيش فيه عالماً لا سيطرة للقانون فيه . وكان رجـل القرن التاسع عشر ، المؤمن بالتقدم والقومية ميالاً الى اعتبار هذا العالم من الدول القومية ، نوعاً من الدولة المثالـية (يوتوبيا) التي ستتحقق عند انتهاء التاريخ ، كما يعتبر الماركسي مجتمعه الذي تنعدم فيه

الطبقات عالماً مثالياً . وإذا لم يكن هناك من قانون يسود القومية السيادية ، فقد ظل هناك ما نسميه بقانون الطبيعة الأول ، وهو حق البقاء والدفاع عن النفس ، وكثيراً ما ارتكبت الجرائم باسم هذا الحق . فلم يكن الشعب يسمح لجيرانه بالإيغال في القوة والتسلح . والكثير من مظاهر التوسعية والاستعمارية والحروب الوقائية كانت تجري تحت اسم المصالح القومية أو الدفاع عن المصير . وكثيراً ما بررت هذه الأعمال، على أنها ضرورية لأسباب تتعلق بالدولة ، وبالنظر الى الافتقار الى أي مبدأ آخر ، فقد أضحى هذا القانون هو الوحيد . وبالنظر الى هذه المظاهر ، كان من حق مكيافللي ، ان يستخلص بأن نواة الدولة ، هي القوة . ولا ريب في ان مكيافللي ، في اعتباره للدولة على أنها قوة توسعية ديناميكية كان أقرب الى الواقعية والى الواقع السياسي من كثيرين من مفكري القرنين التاسع عشر والعشرين ، فكان بهذا الاعتبار ، أكثر عصرية .

١٠

ولكن مكيافللي ظل من الناحية الاخرى، بعيداً عن العصرية، ومتمسكاً بالمأثورية الايطالية التي بدت في عصر النهضة . فهو لا يحس مطلقاً بما نسميه الآن بالتطور التاريخي . وقد عثر على مثله العليا في رومة ، وكانت الجمهورية الرومانية بالنسبة إليه ، ترمز إلى ذروة ما حققه الانسان ، وفي «مساجلاته» تبدو الجمهورية الرومانية ، وكأنها خير ما ابتكره الانسان من طرازات الحكم وصوره . وكان شديد الاعجاب بمؤسسات هذه الجمهورية ، حتى أن أحد خيرة الطلاب الفرنسيين المعاصرين لمكيافللي ويدعى«رينوديه» كتب يقول انه لو طلب الى مكيافللي وضع دستور لدولة حديثة، فسيشتمل هذا الدستور

على القناصل ومجلس الشيوخ والحكام (التربيون) ، ولكان قد أعاد في هذا الدستور الأفكار الرومانية بنصها وروحها، فجاء أقرب الى الدستور الفرنسي الذي سنه اليعاقبة بعد الثورة الفرنسية ،لاسيما وقد كانوا من المعجبين بالرومان، منه إلى الدستور الذي سنه المستعمرون الأمريكان، وجاهدوا في سبيل وضعه محتملين الآلام والمتاعب، لينطبق على احتياجات الشعب الذي وجد نفسه بعد سبع سنوات من الثورة ، وقد اتيح له أن يخلق طرازاً من الحكم مثالياً ، يتفق مع أوضاع شعب حر ، ولم يكن لمكيافللي أي أثر على طراز الحكومة الأمريكية أو ما يسمى بالديمقراطية الجفرسونية ، وإذا ما أعاد الانسان قراءة كتاب جفرسون ونقب في جميع ما ورد فيه من عبارات ، فانه لا يرى أي أثر أو حتى اشارة عابرة لمكيافللي . وليس في كتاب الأمير أي تحديد لسلطة الدولة ، بينما كانت مشكلة هذا التحديد ، هي كل ما اهتم به جفرسون .

واصول العقيدة القائلة بحقوق الانسان والتي لا يقبل بالتنازل عنها معروفة إلى حد كبير ، حتى يصبح أي حديث عنها من نافلة القول ، ولذا تكفي الاشارة إليها . ومن الغريب ان هذه النظرية برزت لأول مرة في عهد انحطاط دول المدن الاغريقية . وكان المفكرون الاغريق قد توصلوا الى النتيجة القائلة بأن عالم الطبيعة كون هيولي يضم عالماً من القوانين التي يكتشفها العقل البشري. وقد أسفرت فتوحات الاسكندر الأكبر في الشرق ، عن قيام المزيد من الاتصالات بين مواطني المدن اليونانية وبين مواطني الدول الاخرى . وأحس الرواقيون إحساساً عميقاً بأن الناس يعيشون في عالم واحد ، وانهم جميعاً مواطنون في مدينة عظيمة أطلقوا عليها اسم المدينة العالمية . ولهذا العالم الانساني قوانينه أيضاً وعلينا أن نقر بها ، إذا أردنا ان يحقق الانسان جميع امكانياته البشرية .

وفي وسعنا ان نتجاهل جميع هذه الأقوال على اعتبار أنها من الفرضيات ولكن من الغريب ان الرومان الذين يمتازون عن الاغريق بالروح العملية

الواقعية قد واجهوا نفس المشكلة ، وأخذت الأقوام ، التي تمت إلى أجناس غير رومانية تتدفق على روما ، لمزاولة الأعمال التجارية وللتنعم بما تضفيه عليهم من سلامة وطمأنينة . ولما كان أبناء هـذه الأقوام ، لا يعتبرون من المواطنين ، لم تكن لهم أية حقوق قانونية أو أية رعوية . وأخذ القضاة الرومان يبحثون عن قاسم مشترك ، لقوانين جميع الشعوب ، واعتقدوا انهم عثروا عليه فيما أطلقوا عليه اسم قانون الشعوب ، وهو ما اعتبروه القانون الأساسي . وكان هذا القانون الأساس الذي قامت عليه جميع قوانين الطبيعة وقوانين طبيعة الله ، التي استوحاها جفرسون في اعلان الاستقلال الأمريكي ، والتي قدّر لها أن تؤلف أساس معتقداتنا العصرية عن حقوق الانسان وعن العدالة . وقد أدخلت جميع هذه القواعد في التشريع الروماني الذي قدر له أن يؤثر كل التأثير على الحضارة الأوروبيـة وبالتالي الحضارة الأمريكية . ويدين المؤرخون الألمان المعاصرون الذين يمثلهم مينيكي ، الشديد الاعجاب بمكيافللي ، جميع أولئك الذين يشغلون أنفسهم فيما يسميه بالطريقة الطبيعية المثلى للتفكير . ومن الغريب ان نجـد ان مكيافللي ، الذي كان شديد الاعجاب بروما ، لم يكن يهتم كثيراً بالتشريع الروماني الذي يعتبر أعظم اسهام لروما في الحضارة البشرية .

١١

ولم يكن تمكن الانسان رغم جميع العوامل من البقاء ، على الرغم من ضعفه الجسماني إذا ما قورن بالأسود مثلاً ناجماً عن الخديعة أو الحيلة التي لجأ إليها بعض الأفراد . وعلى الرغم من وجود الرجال الشريرين في كل زمان ومكان ، فإن الانسان مدين ببقائه عبر ما يقرب من نصف مليون عـام ،

وبحضارته التي أقامها في غضون الستة آلاف سنة الأخيرة الى شيء سليقي فطري ، في طبيعته . وهذا هو السبب الذي يحتم علينا اعتبار الحضارة أمراً طبيعياً بالنسبة إلى الانسان . وهذا هو السبب الذي دفع بأرسطو الى اعتبار الانسان حيواناً سياسياً أو اجتماعيــاً . والدولة ليست خارج نطاق عالمنا الانساني . فالشكل المعين لهـذه الدولة التي يعيش البشر في ظلها ليس من صنع الله ولا من صنع الشيطان أو فرضها ، وهي إلى حد ما من الأشياء التي خلقها الانسان ، ولذا من الواجب ان تكون خاضعة كغيرها من الأمور التي خلقها لاعادة نظره ودراسته . وهذا السبب أيضاً هو الذي حمل الرواقيين على الاعتقاد اعتقاداً صحيحاً كما ذكرت آنفاً ، بأن جميع الناس يعيشون في مدينة عظمى ، بل في عالم إنساني يختلف في إمكانياته واتساعه عن العـالم الذي تعيش فيه الأسود والثعالب . وفي امكان الرجال الذين تنعدم فيهم صفات البشر ، ويفتقرون الى الرحمة والانسانية ، أن يعيشوا كالحيوانات المفترسة وان يبحثوا عن فرائسهم . ولكن مثل هـذا الزحف على القـوة والسلطان قد يكون ممكناً لأن الكثيرين يشعرون بالحاجة الفطرية إلى التعاون والاخوة البشرية . ولما كان الانسان ذكياً بطبعه ، وخلاقاً ، فمن المحتوم ان تقوم خلافات ومصادمات ، وان تظهر مشاحنات دامية حول الصور الممكنة والمختلفة ، التي يجب أن توجد فيها الارتباطات القبلية أو المدنية أو القومية أو العالمية ، ومع ذلك يظل هناك شعور بالمصلحـة المشتركة ، وبالرابطة التي تصل بين النـاس . وهذا هو السبب الذي يحفز رجـال عصرنا الحاضر على الاهتمام بالمدن القديمة وبالطريقة التي كان يعيش فيها الناس وسيجد الزعيم نفسه دائماً منهزماً أمام تصلب وعناد أفراد جيله ، ولكن هذا الزعيم إذا كان ذكياً مدركاً ، فإنه يدرك ان طبيعته الاجتماعية ، وحاجته تحتمان عليه ، ان يضع قانوناً للسلوك يكون بالطبع ، قانوناً أخلاقياً ، يستهدف أولاً وقبل كل شيء خير

للمجموع . ولا ريب في أن العامة من الناس يعرفون هذا تمام المعرفة ، ولذا فهم لا يضعون قيصر بورجيا وإيفان الفظيع ، في نفس المكانة مع القديس بولس الملك الفرنسي ، أو جورج واشنطن . وعلى الرغم من أن مكيافللي لا يذكر هذا بصراحة في كتابه الأمير ، إلا أن الإحساس بطبيعة الرجل وحاجته لم يكن بالشيء الغريب عليه . ففي مساجلاته حول موضوع الجباية يأمر قارئه بأن :

« يلاحظ ما أضفاه الناس من اطراء ومديح على الأباطرة المستحقين ، الذين بعد أن غدت رومة أمبراطورية ، تمسكوا بأهداب الشرائع والقوانين كحكام طيبين خيرين ، بعكس أولئك الذين اختاروا السبيل المضاد . وسيلاحظ هذا القارىء ان شيش ونيرفا وتراجان وهادريان وانطونيوس وماركوس وأوريليوس ، لم يكونوا بحاجة الى الحرس البريشوري والى فرق الجنود للدفاع عنهم ، لأن لهم من سلوكهم الحسن، وحب الشعب لهم وتأييد مجلس الشيوخ خير ضمان لحمايتهم » .

وقد أدت الاكتشافات العلمية الحديثة الى قوة الاحساس بأننا نعيش في مدينة عظيمة يسودها الانسجام ، وتسيطر عليها قوانين الطبيعة ، ولم يعد هناك إلا النزر اليسير من الناس ليشك في هذه الحقيقة . ولا يستثني هذا الاحساس بالطبع ، وقوع بعض الكوارث ، والخراب . ولا ريب في ان الأخطاء التي تسبب الزلازل هي نتيجة عمل قوانين الطبيعة ، تماماً كعودة الربيع ، أو إيناع الزهور أو قتل الرياح الشديدة للكثير من البراعم . وهكذا ففي العالم الانساني وفي الشؤون البشرية ، ستكون هناك ثورات بائسة ومميتة تؤدي إلى خسائر عديدة في الأرواح .

لقد قضى مكيافللي ثلاثة عشر عاماً يجاهد لتحسين الأحوال في بلاده وقد تعلم في هذه المدة الكثير من الحقائق وكان الجزاء الذي لقيه، هو النفي. ومن نافلة القول أن ننكر ان كتاب « الأمير » مؤلف ينطوي على المرارة التي نجمت عن فشله في حياته . وليس في استطاعة القارىء الحديث ان يسمح لهذه الحقيقة بأن تحول بينه وبين رؤية ما يحتوي عليه الكتاب من حقائق ما زالت تنطبق على واقعنا في هذه الأيام .

كريستيان غاوس



نيقولو مكياڤللي





غلاف طبعة سنة ١٥٨٤
من كتاب الأمير

مِن نيقولو مكيافللي
إلى لورنزو العظيم
نجل بيارو دي مديشي

جرت عادة الناس الذين يرغبون في كسب ود الأمير على محاولة هذا الكسب ، بتقديم الهدايا اليه ، من الأشياء التي يعتقدون بغلاء ثمنها أو تلك التي يعرفون محبة الأمير لها . وهكذا تنهال في الغالب على الأمراء الهدايا من أمثال الخيول والأسلحة ، والملابس المذهبة واللآلىء ، وغير ذلك من أدوات الزينة ، اللائقة بمكانتهم . ولما كنت راغباً في أن أقدم لسموكم دليلاً متواضعاً على ولائي ، لم أعثر في ما أملكه على شيء أعتز به أو أقدره تقديراً فائقاً ، كمعرفتي بجلائل الأعمال التي قام بها الرجال العظام ، وهي المعرفة التي حصلت عليها بعد تجربة طويلة ، وخبرة بالأحداث المعاصرة ، ودراسة لوقائع الماضي .

وقد تمكنت بعد طويل جد وكد ، من التأمل والاستقصـــاء في أعمال العظماء ، وتوصلت إلى نتائج أقدمهـــا إلى سموكم ، ضمن إطار مجلد صغير ، وعلى الرغم من أنني أعتبر هـذا العمل غير لائق بتقبل سموكم، إلا أن إيماني بانسانيتكم يحملني على الاعتقاد بانكم ستتقبلون هذا الكتاب ، بمزيد من العطف ، ثقة منكم بان ليس في مكنتي أن أقدم اليكم هدية أعظم ، من تمكينكم في فترة قصيرة ، من فهم جميع الأمور التي تعلمتها ؛ منفقاً في تعلمها سنوات طوالاً من الانزواء والمخاطر . ولم أحاول تزويق كتابي بالجمل الطويلة ، ولا بالزخارف اللفظية الطنانة ، ولا بالحلي الجذابة المصطنعة التي يلجأ اليها الكثير من الكتاب ، لتنميق مؤلفاتهم ، لأنني لا أطلب مجداً لكتابي أكثر مما يستحقه بفضل جدة موضوعه ورزانته . وأنا واثق ، أن ليس من الغرور في شيء أن يقحم انسان ذو وضع مغمور ومتواضع ، نفسه في محاولة البحث في حكومات الأمراء وتوجيههم ، إذ أن مصوري المنـــاظر الطبيعية ، يقيمون مراكزهم في الوديان ، ليرسموا منها صور القـلاع والجبال ، ويرتقون التلال ليشرفوا منهـــا على السهول ، وليحصلوا على المناظر الصحيحة فيها ، وهكذا ، من الضروري أن تكون أميراً لتستطيع التعرف بدقة على طبيعة الشعب ، كما ان من الضروري أن تكون فرداً من أبناء الشعب لتتمكن من معرفة طبيعة الأمراء .

فهل لي أن أرجو تبعاً لذلك ، سموكم ، تقبل هذه الهدية الصغيرة ، بنفس الروح ألتي أقدمها فيها ، وإذا تلطفتم فاتبعتم ما في هذا الكتاب

فستدركون أن رغبتي العارمة ، تقوم في أن أراكم تصلون إلى تلك العظمة التي تؤهلكم لها مواهبكم الشخصية ، وسعد طالعكم .

وإذا تكرمتم سموكم ، فتطلعتم من سامق عليائكم إلى هذه البقعة المتواضعة التي أقيم فيها ، فستدركون الآلام العظيمة التي لا أستحقها ، والتي شاء سوء طالعي الشرير أن يلحقها بي .

١

أنواع الحكومات المختلفة
والطريقة التي أنشئت بها

لا تخرج جميع الحكومات والممالك ، التي حكمت الجنس البشري في الماضي أو التي تتولى حكمه الآن ، عن أن تكون في أحد شكلين ، إما الشكل الجمهوري أو الشكل الملكي . والملكيات إما أن تكون وراثية ، بحيث ينتقل الحكم فيها عبر السنوات الطويلة ، ضمن أفراد الأسرة الواحدة ، أو حديثة العهد والنشوء . والملكيات الناشئة حديثاً إما أن تكون جديدة في كل شيء ، كما هي الحالة في ميلان التي نصبت فرانسيسكو سفورزا ملكاً عليها ، أو تكون ملحقات جديدة ، أتبعت بممتلكات الأمير الوراثي الذي ضمها إلى ممتلكاته ، كما هي الحالة في مملكة نابولي ، التي يحكمها ملك اسبانيا . ومثل هذه الممتلكات

المكتسبة ، اما أن تكون آلفة لهذا النوع من الحكم ، لأنها كانت خاضعة لأمير آخر ، أو أنها كانت دولاً حرة ، وقد أتبعت بممتلكات الأمير عن طريق قوته العسكرية الخاصة ، أو قوة الآخرين ، أو عن طريق انتقالها اليه نتيجة حسن الطالع أو الكفاءة الخاصة .

٢

الملكيات الوراثية

لن أتحدث في هذا الفصل عن الجمهوريات لأنني تناولتها بصورة مسهبة في مكان آخر ، ولكنني ساقصر حديثي على الملكيات ، فأشرح الطرق التي يمكن بواسطتها إدارة الأنواع المختلفة منها ، والاحتفاظ بها . ففي المقام الأول ، تكون مهمة الاحتفاظ بالملكيات الوراثية ، حيث تعود الناس على أسرة حاكمة ، أقل صعوبة من الاحتفاظ بالملكيات الجديدة إذ يكفي في هذه ، أن لا يضطر المرء إلا الاعتداء على المألوفات الوراثية ، وأن يكيّف نفسه لظروف لم يكن يتوقعها . ويستطيع الأمير بهذه الطريقة ، إذا كان مثابراً ودؤوباً على العمل ، أن يحتفظ دائماً بمركزه ، إلا إذا طرأت قوى استثنائية ، وبالغة الشدة فطردته منه ، ولكنه حتى لو طرد ، ففي مكنته عندما تصيب الأمير

الجديد ، أية لوثة مهما ضؤلت من سوء الطالع ، أن يستعيد مركزه ومكانته .

ولدينا مثال على ما أقول ، في ايطاليا ، الدوق فيرّار الذي تمكن من الصمود أمام هجمات البنادقة عام ١٤٨٤ وهجمات البابا يوليوس عام ١٥١٠ ، بفضل شيء واحد وهو عراقة أسرته في حكم المدينة . ولما كان من الطبيعي أن الأمير صاحب الحق الشرعي ، لا يستفز وجوده ، بحكم الحاجة والعلة ، أية حزازات فمن الطبيعي أيضاً ، أن يكون حب الشعب له كبيراً . وإذا لم يقترف من الرذائل ما يربو على المعقول ، فيحمل الناس على كراهيته ، فإن من المنطق بالنسبة لرعاياه أن يكونوا شديدي التعلق به فينسون على مدى حكمه الطويل ، ذكريات البدع وأسباب التجديد ، إذ أن التبدل في الحكم ، يترك الطريق ممهداً دائماً ، لوقوع تبدل آخر .

٣

الملكيات المختلطة

ان الصعوبات تواجه دائماً الملكية الجديدة . إد عندما تكون الدولة من الناحية الأولى ليست بالناشئة حديثاً وإنما بالعضو في دولة مختلطة ، فإن الاضطرابات فيها تنبع أولاً من الصعوبة الطبيعية ، التي تقوم عادة في جميع الممالك الجديدة ، لأن الناس يقبلون على تغيير حكامهم ، بمحض الرغبة والارادة ، آملين في تحسين أحوالهم ، وهذه العقيدة تدفع بهم إلى الثورة على حكامهم الذين خدعوهم ، لا سيما إذا أثبتت التجارب أنهم قد انتقلوا من حالة سيئة إلى حالة أسوأ منها . وهذه نتيجة حتمية لسبب بديهي آخر وهو ما يلحقه جنود الحاكم الجديد من أذى محتوم بالرعايا في المملكة التي وصل الأمير إلى حكمها ، أو ما يؤدي اليه احتلاله من عدد لا حصر له من الأضرار والإساءات .

وهكذا فإنك ستجد أعداءك دائماً ، أولئك الذين تضرروا من

جراء احتلالك لبلادهم ، وبيس في مكنتك الاحتفاظ بصداقة أولئك الذين ساعدوك في الحصـــول على هذه الممتلكات الجديدة ، لأنك لن تستطيع تحقيق جميع آمالهم ، كما أنك ستكون عاجزاً عن مقابلتهم بالشدة والصرامة بالنظر لما تشعر به من دين لهم عليك . ولهذه الأسباب كلها ، مهما كانت جيوشك بالغة القوة فإنك ستحتاج كل الحـــاجة إلى عطف السكان لتتمكن من احتلال بلادهم . ولعل فيما ذكرت ما يوضح الأسباب التي أدت إلى إخراج لويس الثاني عشر ملك فرنسا من ميلان بعد احتلاله لها بفضل جيوشه القوية بوقت قصير ، مع العلم أن القوات التي أخرجته لم تتعد ، جيوش لودفيكو الصغيرة التي كانت كافية في البداية لتحقيق هذه الغــاية ، وذلك لأن السكان الذين فتحوا أبواب مدينتهم طوعــاً ورضى في بادىء الأمر للملك الفرنسي ، سرعان ما وجدوا الآمال التي تعلقوا بها تتلاشى بسرعـــة البرق ، ولأنهم لم يحصلوا على المنافع التي كانوا سيتوقعونها ، وهكذا تعذر عليهم احتمال حكم أميرهم الجديد لما في هذا الحكم من استثارة لحفيظتهم .

ومن الحق أن يقال ، ان الحاكم ، إذا أعاد احتلال مقاطعة ثارت عليه ، فإنه لا يضيعها هذه المرة بسهولة ، لأنه ، وقد جابهته حقيقة الثورة ، أضحى أقل عداء للاحتفـــاظ بمركزه عن طريق معاقبة المذنبين ، والكشف عن المشبوهين ، وتقوية نفسه في مراكز الضعف . وهكذا فعلى الرغم من أن مجرد ظهور شخص كالدوق لودفيكو على حدود ميلان جعل فرنسا تفقد سيطرتها على المدينة في المرة الأولى ،

إلا أنها في المرة الثانية لم تتخل عن المدينة ، وتفقد سيادتها عليها ، إلا بعد أن تألب العالم عليها ، وبعد أن هزمت جيوشها وأجبرت على الرحيل عن ايطاليا ، وهذا بفضل الدوافع التي شرحتها فيما سلف. ولكنها على كل حال ، حشرتها في المرتين الأولى والثانية . وقد شرحت الأسباب العامة التي أدت إلى خسارتها لها في المرة الأولى ولم يبق أمامي إلا أن أشرح أسباب الخسارة في المرة الثانية ، وأن أوضح السبل التي كان بإمكان فرنسا اتباعها لتحول دون هذه الخسارة ، أو الوسائل التي كان من المحتوم أن يلجأ اليه حاكم آخر غير ملك فرنسا ، لو كان في مركزه ، والتي لم يلجأ اليها بالفعل . ومن الواجب أن نلاحظ أولاً ، أن الدول ، التي تتحد بفعل الضم ، مع دولة قائمة من قبل ، قد تكون أو لا تكون تحمل نفس القومية وتتحدثان بنفس اللغة ، فمن السهولة بمكان عظيم الاحتفاظ بالضم ، ولا سيما إذا كانت الدولة المضمومة غير متعودة على الحرية، ومن الواجب في سبيل الاحتفاظ بهذا الوضع بعيداً عن كل خطر ، أن يقضي نهائياً ، على الأسرة التي كانت تحكم في الماضي تلك الدولة وما تبقى فامر في غاية البساطة ، إذ أن الأوضاع التي كانت سائدة في الماضي لم تتأثر ولم تضطرب، ولذا يعمد الناس فيها إلى الهدوء في ظل حكامهم الجدد ، وهكذا ما يبدو بوضوح في بورغنديا وبريتاني، وغسكونيا ونورمانديا التي اتحدت منذ عهد بعيد مع فرنسا . وعلى الرغم من وجود بعض الفروق في اللغة فإن عادات السكان في جميع هذه البلاد متشابهة إلى حد بعيد ، وفي وسعهم أن يسيروا جنباً إلى

جنب ، وأن يعيشوا متآخين على أحسن ما يرام ، وعلى كل من يضع يده على مثل هذه الممتلكات ويود الاحتفاظ بها ، أن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية ، أولهما إبادة الأسرة الحـــاكمة السابقة وثانيهما عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقت قصير جداً ، وأن يؤلفا دولة واحدة .

ولكن عندما يضم الانسان مقاطعات تختلف عن ممتلكاته الأصلية في لغة أهلها وقوانينهم وعاداتهم ، فإن الصعوبات التي تواجهه تكون عظيمة ويتطلب تذليلها الكثير من حسن الطـــالع والعمل الدائب المستمر ، في سبيل الحفـــاظ على ممتلكاته الجديدة . ولعل من خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد ، إقامة مقره في الممتلكات الجديدة ، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً ، وهو ما فعله الأتراك في بلاد اليونان ، إذ على الرغم من جميع الوسائل التي لجأ اليها الأتراك للاحتفاظ باليونان . فإن هذا الاحتفاظ ما كان ممكناً ، لو لم ينتقل الأتراك إلى بلاد اليونان للعيش فيهـــا . ووجود المحتل في المنطقة يمكنه من رؤية الاضطرابات عند وقوعهـــا ومعالجتها فوراً ، بينما إذا كان بعيداً عنها ، فإنه لا يسمح بنشوبها إلا بعد حين ، وبعد أن يصبح من العسير علاجها . يضاف إلى هذا ، ان المقاطعة المحتلة لن تصبح مسرحاً لشهوات موظفي الحـــاكم المحتل ، وسيكون في مكنة الرعايا الوصول إلى ما يتطلعون اليه من انصاف عن

طريق الاتصال المباشر بحاكمهم ، ولما كانت رغبة الرعية إظهار الولاء دائماً للحاكم ، فإن هذا يحملهم على حبه ، أو حتى على مخـــافته إذا لم يكونوا راغبين في هذا الحب. وإذا كانت إحدى الدول الأجنبية راغبة في مهاجمة تلك الأرض المحتلة ، فإن وجود الأمير فيها لا يشجعها على الإقدام على عمل كهذا ، إدراكاً منها لمـــا في إخراجه من مقره ، من صعوبة ومشقة. ولا ريب في أن العلاج الأفضل، هو إقامة مستعمرات تقيم فيها جاليات في مكان أو مكانين استراتيجيين ، إذ أن من الضروري، إما تنفيذ هذه الخطة أو الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة، في البلاد المحتلة . ولا تكلف هذه المستعمرات ، الأمير شيئاً ، إلا النزر اليسير ، ففي وسعه أن يرسل الجاليات وأن يقيم أودها في المراحل الأولى بتكاليف جد طفيفة ، وفي عمله هذا لن يسيء إلا إلى أولئك الذين تُؤخذ منهم أراضيهم وبيوتهم ، ليقيم فيها السكان الجدد ، وهم لا يؤلفون إلا نسبة ضئيلة من سكان البلاد المحتلة ، وهم بعد فقدهم لأراضيهم ، أضحوا فقراء مشردين في كل مكان ، ليس في وسعهم إلحاق الأذى بالأمير ، بينما بقية السكان ، لم يصابوا من الناحية الأخرى بسوء ، فيحافظوا على هدوئهم بسهولة مخافة الاساءة إلى الحاكم ممـــا يعرضهم لمعاملة تشبه تلك التي لحقت بمن فقدوا أراضيهم. وختاماً فإن هذه المستعمرات لا تكلف الأمير شيئاً . وتكون موالية ومخلصة له وأقل ضرراً من السكان الأصليين ، الذين أضحوا فقراء مبعثرين عاجزين كما ذكرت عن إلحـــاق الأذى بالأمير . ويجب أن نلاحظ ان

علينا إما أن نعطف على الناس ، أو نقضي عليهم ، إذ أن في وسعهم الثأر للإساءات الصغيرة ، أما الإساءات الخطيرة البالغة فهم أعجز من أن يثأروا لها . ولذا إن أردنا الإساءة لإنسان فيجب أن تكون هذه الإساءة على درجة بالغة لا نضطر بعدها إلى التخوف من انتقامه . أما الاحتفاظ بالحاميات بدل الجاليات فيكلف الأمير نفقات أكبر تستنزف جميع موارد تلك الدولة ، مما يحيل التملك الجديد إلى خسارة، بالإضافة إلى ما فيه من إساءة ، لجميع سكان البلاد المحتلة الذين يرون الجيش معسكراً في أراضيهم . ومثل هذا الشعور بالاساءة ، يقلب جميع الناس إلى أعداء ، قادرين على إلحاق الضرر ، إذ أنهم على الرغم من هزيمتهم ما زالوا في بيوتهم وأراضيهم . وهكذا فإن الحاميات على كل حال غير مجدية بينما الجاليات نافعة كل النفع .

وعلى حاكم المقاطعة الأجنبية المحتلة ، كما شرحت ، أن يقيم من نفسه زعيماً لجيرانه الضعفاء ، وحامياً لهم ، وأن يحاول إضعاف الأقوياء منهم ، وأن يعنى بحمايتهم من غزو حاكم أجنبي آخر ، لا يقل عنه قوة وشأواً . وسيجد نفسه في هذه الحالة دائماً ، مدعواً للتدخل ، بين جيرانه المتنازعين بسبب الطموح أو الخوف ، بطلب منهم . هذا ما حدث فعلاً عندما دعا الايتوليون ، الرومان إلى بلاد اليونان ، فكانوا يجدون أنفسهم ، يدخلون كل مقاطعة بطلب من أهلها . والقاعدة العامة تنص على ان الأجنبي القوي ، عندما يدخل إمارة ، فإن الضعفاء من أهلها يصبحون فوراً من أنصاره ، يحفزهم إلى ذلك

حسدهم لأولئك الذين كانوا يتحكمون في شؤونهم . وهكذا لا يجد الحاكم الجديد صعوبة كبيرة في اجتذاب صغار الوجهاء والمتنفذين إلى صفه ، لأنهم يندفعون إلى تأييد الدولة التي أقامها ، بمحض رغبتهم الخالصة . وعليه أن يكون على أية حال ، واعياً ، فلا يمكنهم من الوصول إلى منتهى القوة والسيطرة ، وباستطاعته بسهولة عن طريق قواته وتأييد هؤلاء الوجهاء ، أن يقضي على الأقوياء في إمارته الجديدة وأن يظل الحاكم المطلق في جميع شؤون الإمارة . أما الذي لا يسير في حكمه تماماً على هذا الأسلوب الذي شرحت ، فسرعان ما يخسر ما حصل عليه . وفي غضون حكمه القصير يواجـــه متاعب وصعوبات لا حد لها ولا حصر .

وقد اتبع الرومان في جميع المقاطعات التي احتلوها هذه السياسة دائماً ، فاقاموا المستعمرات والجاليات ، وغرروا بصغار الوجهاء دون أن يضاعفوا من قوتهم ، وأخمدوا سلطان الأقوياء ، ولم يسمحوا للحكام الأجانب بالحصول على النفوذ في بلادهم . وسأعرض بلاد اليونان كمثل فريد من نوعه ، فقد اتخذوا من الآخيين ، والايتوليين أصدقاء لهم ، وقضوا على مملكـــة مكدونيا وطردوا الانطاكيين ، ولم يسمحوا لأصدقائهم الآخيين والايتوليين بتوسيع رقعتهم وبسط سلطانهم ، كما لم يصغوا لإغراءات فيليب ، الذي نشد صداقتهم ، إلا بعد أن أضعفوا من نفوذه ، كما لم يسمحوا لأنطيوخوس رغم قوته ، بالسيطرة على أي جزء من اليونان .

ولم يكن ما عمله الرومان في هذه الحالات ، إلا ما يجب أن يعمله الأمراء الحكماء الذين لا يحصرون اهتمامهم بشؤون الحاضر، بل يتعدونها إلى ما يتوقعونه من خلافات في المستقبل ، فيتخذون أهبتهم لمواجهتها. ودرء أخطارها، إذ أن مجرد توقعها يمكن الانسان من علاجها بسهولة ، أما إذا انتظر مجيئها حتى تقع ، فإن العلاج يصبح غير مجد بالنظر إلى تأصل الداء ، وهذا ما ينطبق تماماً على الحميات الرئوية ، التي يقول الأطباء عنها إنها صعبة التشخيص وسهلة العلاج في البداية ، ولكنها تضحى مع مرور الزمن ، إذا سمح لها بالبقاء دون علاج سهلة التشخيص ومتعذرة الشفاء . وهذا ما يحدث تماماً في شؤون الدولة ، إذ أن تمييز الشرور قبل وقوعها ، وهذا ما يتيسر للانسان العاقل ، يمكنه من معالجتها بسهولة . ولكن إذا أدى الافتقار إلى المعرفة ، إلى بقائها واستمرارها حتى أصبح تشخيصها في متناول كل انسان ، يتعذر العثور على علاج لها . ولذا فإن الرومان ، كانوا يلاحظون الاضطرابات قبل وقوعها بأمد بعيد ، وكانوا تبعاً لذلك يعثرون على العلاج ، وجرت عادتهم ، على أن لا يسمحوا لها بالازدياد مخافة أن تؤدي إلى حرب ، إذ أنهم عرفوا أن الحرب أمر لا يمكن تجنبه ، وإنما في الامكان تاجيله وغالباً ما يكون هذا التاجيل ، في صالح الجانب الآخر ، ولهذا فقد أعلنوا الحرب على فيليب وعلى انطيوخوس في اليونان ، تجنباً من محاربتها في ايطاليا ، مع انه كان في

وسع الرومان آنذاك ، أن يتجنبوا كلا الحربين . ولكنهم لم يختاروا عمل ذلك ، ولم يهتموا بأن يقوموا بما نسمعه الآن على كل لسان من ألسنة حكمائنا ، وهو أن نتمتع بفوائد التأجيل ، وآثروا ، أن يكلوا الأمر لفضائلهم وصدق حدسهم ، لأن الزمن ، قد يلد كل شيء ، وقد يتمخض دون اكتراث إما عن الخير أو عن الشر .

ولكن لنعد إلى فرنسا ، ونتحرى ما إذا كانت قد قامت بمثل هذه الأمور ، ولن أتحدث عن شارل ، بل عن لويس ، الذي تمكننا رؤية أعماله بطريقة أفضل، بالنظر إلى أن سيطرته على ايطاليا امتدت زمنياً أمداً أطول . وإذا ما عدنا ، تبين لنا أنه قام بعكس ما سبق لي أن قلته تماماً ، من الأمور التي يجب عليه أداؤها للحفاظ على حيازته لدولة أجنبية . فقد استدعى البنادقة ، الملك لويس للمجيء إلى ايطاليا ، ليحققوا عن طريقه رغبتهم في الحصول على نصف لومبارديا . ولن ألوم الملك على مجيئه ، ولا على الدور الذي قام به ، إذ أنه مدفوعاً برغبته في وضع أقدامه في ايطاليا ، دون أن يكون له أصدقاء في البلاد ، بعد أن رأى جميع الأبواب تغلق في وجهه بسبب سلوك سلفه الملك شارل، اضطر إلى قبول أية عروض للصداقة يمكن العثور عليها. وكان من المقدر لخططه أن تنجح بسرعة ، لولا الأخطاء التي ارتكبها في اجراءاته الأخرى .

فبعد أن استعاد الملك لومبارديا ، استرجع فوراً السمعة التي كان شارل قد أضاعها . فقد أذعنت له جنوا ، وأصبح الفلورنسيون من

أصدقائه وتقدم مركيز مانتولم، ودوقات فيرارا وبنتيفوغلي ، وسيدة فورلي ، وسادة فانيزا ، وبيزارو وريميني وكاميرينو وبيومبينو وسكان لوكا وبيزا وسيينا ، تقدموا اليه جميعاً ينشدون وده وصداقته . ولا ريب في أن البنادقة قد أدركوا نتائج طيشهم ، وكيف أدت رغبتهم في كسب بعض المدن في لؤمبارديا ، إلى سيطرة الملك على نحو من ثلثي ايطاليا .

ولا ريب في أن الملك ، ما كان ليلقى صعوبة تذكر في الاحتفاظ بسمعته وممتلكاته في ايطاليا ، لو اتبع القواعد التي شرحتها آنفاً ، وفرض يده القوية المطمئنة على جميع هؤلاء الأصدقاء ، الكثيري العدد والضعيفي الشأن ، والمتخوفين دائماً ، إما من الكنيسة أو من البندقية، مما يجعلهم مرغمين على الالتفاف حوله ، فيمكنه التفافهم من الاطمئنان تجاه كل من لا يزال يتمتع بالعظمة والقوة . ولكنه بدلاً من ذلك ، لم يكد يضع قدمه في ميلان حتى قام بإجراء مضـــاد ، فساعد البابا ألكساندر ، على احتلال رومانا . ولم يدرك لغفلته أنه بعمله هذا قد أضعف نفسه بالتخلي عن أصدقائه الذين التجأوا اليه طالبين منه الحماية، وقوّى الكنيسة ، بإضافة سلطات زمنية إلى سلطتهـــا الروحية التي تضفي عليها قوة هائلة . وبعد أن اقترف الخطيئة الأولى ، اضطر إلى اتباعها بأخطاء أخرى ، إذ أن رغبته في وضع حد لمطامع الكساندر ، وللحيلولة دون صيرورته حـــاكم تسكانيا حملته على المجيء ثانية إلى ايطاليا . ولم يكتف بما عمله من زيادة قوة الكنيسة وإضاعة أصدقائه ،

بل امتدت مطامعه إلى مملكة نابولي ، واقتسمها مع ملك اسبانيا . وبعد أن كان السيد المطلق لايطاليا ، استصحب معه شريكاً ، قد يلجأ اليه جميع الطامحين ، الذين قد لا يرضيهم حكمه لإنصافهم ، وبدلاً من أن يترك في تلك المملكة ، ملكاً تابعاً له ، خلعه عن عرشه ليأتي بآخر في وسعه أن يخرجه من البلاد .

والرغبة في الامتلاك ، غريزة طبيعية ، وشيء مألوف . وعندما ينجح القادرون على الامتلاك ، فإنهم يلقون الثناء دائماً ، ولا ينهال عليهم اللوم . أما إذا كانوا عاجزين عن ذلك ، ورغم عجزهم ، يريدون الامتلاك مهما كان الثمن ، فإنهم يقترفون خطيئة تستحق أعظم اللوم . ولهذا ، لو كان في مكنة فرنسا ، أن تستولي على نابولي ، بقواتها ليس إلا ، لكان من واجبها أن تفعل ذلك ، أما إذا كانت عاجزة فقد كان خطأ منها أن تشترك في ذلك مع اسبانيا ، وإذا كنا نجد له المبررات لاقتسام لومبارديا مع البنادقة ، لأن هذا الاقتسام كان الذريعة التي لجأ اليها ملك فرنسا لوضع أقدامه في ايطاليا ، فإننا لا نجد المبرر لهذا الاقتسام الجديد الذي يستحق اللوم ، لأن الضرورة لم تقض به أو تبرره .

وهكذا ارتكب لويس هذه الأخطاء الخمسة : سحق الدول الصغرى ، وضاعف في ايطاليا من قوة حاكم واحد ، وأتى إلى البلاد بأجنبي قوي ، ولم يكلف نفسه عناء الاقامة في البلاد ، كما لم يقم فيها أية مستعمرات أو جاليات . وعلى الرغم من هذه الأخطاء ، فقد كان

باستطاعته لو عاش تجنب أضرارها ، لو لم يرتكب الخطيئة السادسة وهي احتلال دولة البنادقـــة ، إذ لو لم يقم بتقوية الكنيسة والاتيان بالاسبان إلى ايطاليا ، فإن مثل هذه الخطوة أمر ضروري ومشروع لإخضاع البنادقة واذلالهم . ولكنه بعد اتخاذ تلك الاجراءات ، توجب عليه أن لا يوافق مطلقاً على خراب البنادقة، إذ لو كان البنادقة أقوياء، لتمكنوا من الحيلولة بين الآخرين وبين القيام بأية محـــاولات ضد لومبارديا . أولاً لأنهم لن يوافقوا على أي إجراء ، لا يضمن المنطقـــة لأنفسهم ، وثانياً لأن الآخرين ما كانوا ليرغبوا في استخلاص المنطقة من فرنسا ليعطوها بدورهم إلى البندقية وما كانوا أيضاً ليجدوا الجرأة على مهاجمة الفريقين معاً .

ولو ألح انسان بالقول بان الملك لويس قد سلّم رومانا لالكساندر ومملكة نابولي لاسبانيا رغبة منه في تجنب الحرب فإني أرد عليه سارداً الأسباب التي سبق لي شرحها ، وهي ان على الانسان أن لا يسمح بقيام اضطراب أو فوضى رغبة منه في تجنب الحرب ، إذ أن سماحه ، لا يجنبه الحرب ، وإنما يؤجلها لمصلحة خصومه . وإذا زعم آخرون أن الملك كان قد وعد البابا بمثل هذا المشروع كمكافأة له على حلّـه من رباطه الزوجي ، وعلى منحه رتبة الكردينالية لروهان ، فإني أرد عليه بما سأقوله فيما بعد عن موضوع عهود الأمراء ، والطريقة التي يرعون بها هذه العهود . وهكذا أضاع الملك لويس لومبارديا ، لأنه لم يرع أياً من الشروط التي راعاها غيره من الأمراء ، الذين احتلوا مقاطعات ورغبوا

في الاحتفاظ بها ، ولم تكن في هذا الموضوع أية معجزة ، وإنما كان أمراً عادياً ومعقولاً . وقد تحدثت في هذا الموضوع مع الكردينال روهان ، في مدينة نانت ، عندما قام فالنتاين ، المسمى بقيصر بورجيا نجل البابا الكساندر ، باحتلال رومانا . وقد قال لي الكردينال ، ان الايطاليين لا يفهمون شيئاً في شؤون السياسة ، إذ لو كانوا يفهمون ، لما سمحوا قط للكنيسة بان تصل إلى هذه الدرجة من العظمة . وقد دلتنا التجارب على أن عظمة الكنيسة في ايطاليا ، وقوة اسبانيا فيها ، إنما هما من خلق فرنسا ، وكان من ثمرة هذا الخلق ، ان جاء خراب فرنسا ودمارها . ومن هذا نستخلص قاعدة عامة ، يندر أن تخطىء ، وهي ان من يسعى إلى تقوية غيره يحكم على نفسه بالخراب والدمار ، إذ أن هذه القوة إنما تجيء عن أحد طريقين ، أمـا الحيلة أو القوة العسكرية وكلتاهما ، أمر يكون موضع الشك ، عند ذلك الانسان الذي ارتفع إلى مرتبة القوة والسلطان .

* * *

٤

الأسباب التي حالت دون ثورة مملكة داريوس (دارا) التي احتلها الاسكندر ضد خلفائه بعد موته

إذا أخذنا بعين الاعتبار، المصاعب، التي تلقاها الدول في الاحتفاظ بدولة احتلتها حديثاً ، فقد يدهش المرء من رؤية الاسكندر الأكبر ، وقد أصبح سيداً لآسيا في غضون بضع سنوات ، ثم لا يكاد يحتل هذه المناطق الشاسعة حتى يلقى منيته ، مما يوحي بان جميع هذه الأصقاع ستثور فوراً على حكامها الجدد ، ومع ذلك فقد احتفظ خلفاؤه بسيطرتهم ، ولم يلقوا من المصاعب ، إلا تلك التي نشات بينهم بسبب أطماحهم الشخصية .

وللرد على هذه الدهشة ، أقول ، إن التاريخ يعرف من الممالك نوعين تحكمان بطريقتين مختلفتين . فإما أن يحكم المملكة أمير وموظفوه ، الذين عينوا وزراء بتفضل وكرم منه ، فيساعدونه على

إدارة شؤون المملكة . أو أن يحكمهـــا أمير ونبلاء (بارونات) ، يحتفظون بمناصبهم، لا بفضل الحاكم وعطفه ، بل بفضل دمهم العريق. ولهؤلاء النبلاء مقاطعات يحكمونها ، ولهم رعاياهم ، الذين يعترفون بهم كأسياد لها ، ويرتبطون بالتالي بهم . وللأمير في الدول التي يحكمها الأمراء وموظفوهم ، سلطة أكبر وأوسع إذ ليس في الدولة من يعتبر في منصب الرفعة سواه ، وإذا كانت الطاعة مفروضة لغيره ، فلأنهم من وزرائه وموظفيه وليست لهم أي اعتبارات خاصة ، كما لا يحمل لهم الناس أية عاطفة معينة .

ولعل من الأمثلة على هذين النوعين من الحكومات في عصرنا ، حكومة الأتراك ، ومملكة فرنسا فالسلطنة التركية يحكمها حاكم واحد ، أما الآخرون فخدمه وموظفوه ، وتنقسم المملكة إلى سناجق يبعث اليها الحاكم بموظفين إداريين مختلفين ، يعزلهم متى شاء ، ويبدلهم متى أراد. أما ملك فرنسا ، فيحيط به عدد ضخم من النبلاء الأقدمين، الذين يعترف بهم أبناء رعيتهم ، ويحبونهم ، ولهم امتيازاتهم الخاصة التي ليس في وسع الملك حرمانهم منها إلا إذا عرض نفسه للأخطار . وإذا درسنا أوضاع هاتين الدولتين ، تبيّن لنا أن من الصعوبة بمكان عظيم احتلال مملكة الأتراك . ولكن إذا تمكنت دولة من احتلالهـــا ، فمن السهل الاحتفاظ بها ، وقد يكون من السهل ، من نواح عدة احتلال مملكة فرنسا ، ولكن الاحتفاظ بها ، أمر شاق وعسير .

أما سبب الصعوبة في أحتلال المملكة التركية ، فيقوم في أن المحتل لا يمكن أن يدعى من أمراء تلك المملكة للقيام بمثل هذا العمل ، كما لا يسعه أن يأمل في تسهيل مغامرته عن طريق ثورة يعلنهـــا .أولئك القريبون من شخص الحاكم كما يتضح من الأسباب التي شرحتها في هذا الفصل . إذ ، لما كان هؤلاء جميعاً من العبيد ، والمعتمدين على شخص الحاكم ، فمن الصعب رشوتهم ، وحتى لو تحققت هذه الرشوة ، فإنهم أعجز من أن يحملوا الشعب معهم في ثورتهم بسبب العوامل التي ذكرتها. ولذا فإن على كل من يهاجم السلطان التركي ، أن يعتمد على قوته لا على الاضطرابات في صفوف العدو ، إذ أنه سيواجه جيشاً متحداً ولكنه إذا تمكن من الانتصار عليه ، وهزمه في ميدان القتال هزيمة تقعده عن إمكانية حشد جيوش جديدة ، فلا يبقى أمام المحتل ما يخافه إلا أفراد أسرة الأمير التركي ، وإذا ما قام بإبادتها والقضاء عليها ، لم يعد هناك من يخافه ، إذ أن الآخرين لا يتمتعون بأية مكانة لدى الشعب ، ولما كان المنتصر ، قبل نصره ، لم يعلق عليهم الآمال الكبار ففي وسعه بعد انتصاره أن لا يتوجس منهم خيفة

ويقع العكس بالنسبة للممالك التي تحكم على غرار فرنسا ، إذ أن من السهل على الغازي ، احتلالها، عن طريق استمالة أحد النبلاء في المملكة، لا سيما وان هناك دائماً عدداً من الساخطين الحاقدين، وآخر من الراغبين في التغيير . وفي وسع هؤلاء ، للأسباب التي شرحت ، أن يفتحوا الطريق أمامك ، وأن يسهّلوا عليك الوصول إلى النصر ، ولكنك إذا

أردت فيما بعد ، أن تحافظ على ما ملكت ، فستقوم في طريقك عقبات لا حصر لها ، يثيرها أولئك الذين ساعدوك في الماضي ، والآخرون الذين تعرضوا لاضطهادك . ولن يكفيك اضطهاد أفراد أسرة الأمير ، إذ سيظل دائماً أولئك النبلاء ، الذين سيتولون القيـــادة في كل ثورة جديدة ولما كنت أعجز من أن ترضيهم أو تقضي عليهم ، فإنك ستفقد الدولة التي احتللت عندما تحين الفرصة المناسبة .

وإذا درست الآن ، طبيعة حكومة داريوس ، فستجد أنها كانت مماثلة لنظام الحكم السائد الآن عند الأتراك ، ولذا تحتم على الاسكندر أولاً أن يغزو البلاد ، وأن يقضي على حكومتها قبل أن يحقق النصر ، فلما مات داريوس ظلت الدولة المحتلة أمينة في قبضة الاسكندر . بسبب العوامل التي شرحتها . ولو قدّر لحلفـــائه أن يظلوا متحدين لتمتعوا بحكم البلاد أمداً طويلاً ، بسلام وهدوء ، إذ أن الاضطرابات التي نشأت في البلاد كانت من صنع أيديهم . ولكن من الصعوبة بمكان عظيم امتلاك بلاد بهذه الطريقة كفرنسا ، وهذا مـــا أدى إلى قيام الثورات المتعاقبة في اسبانيا وفرنسا واليونان ضد الرومان ، وذلك بسبب تعدد الإمارات في ربوع هذه البلاد إذا ما دامت ذكرى هذه الامارات قائمة ، فان احتلال الرومان ظل مقلقاً ومعرضاً للانهيار ، ولكن عندما تمكن الرومان من طمس هذه الذكريات نهائياً ، تمكنوا بفضل ديمومة الامبراطورية من أن يصبحوا السادة الذين لا ينازعهم في سلطانهم أحد . وعندما كانت المنازعات تنشب بين الرومان أنفسهم ،

كان في وسع أي من المتنافسين أن يعتمد على تأييد ذلك الجزء من الإمارة الذي أقام سلطته فيها فقد ظل الرومان وحدهم الحكام المعترف بهم ، بعد أن أبيدت السلالات الملكية القديمة . وإذا أمعنا النظر في جميع هذه الأمور تبين لنا دون أن تلحق بنا الدهشة، السبب في السهولة التي تمكن بها الاسكندر من الاحتفاظ بآسيا ، وفي الصعوبات التي واجهت الآخرين للاحتفاظ بالبلاد المحتلة مثل بيروس وغيره . ولم يكن هذا الاختلاف ناجماً عن كفاءة المحتل أو عدم كفاءته وإنما عن اختلاف الأوضاع في البلاد المحتلة .

* * *

٥

حكم المدن أو الممالك التي كانت قبل احتلالها تعيش في ظل قوانينها الخاصة

عندما تكون الدول التي تم احتلالهـــا ، قد ألفت الحرية في ظل قوانينها الخاصة ، فهناك ثلاثة سبل للاحتفاظ بهذه الدول . أما السبيل الأول فهو تجريدها من كل شيء ، وأما الثاني فهو أن يذهب الأمير المحتل ، ليقيم في ربوعها وأما الثالث والأخير ، فهو أن يسمح لأهلها بالعيش في ظل قوانينهم مكتفياً بتناول الجزية منهم ، وخالقاً فيهـــا حكومة تعتمد على الأقلية الموالية للحاكم . وتدرك مثل هذه الحكومة التي خلقها الأمير ، أنها تعتمد في بقائها على صداقته وحمايته ، ولذا فهي تبذل بالغ الجهد للحفاظ عليها . يضاف إلى هذا ، أن المدينة التي ألفت الحرية ، لا تذعن بسهولة إلا إلى أبنائها ومواطنيها ، وهذا هو السبيل الصحيح للاحتفاظ بها .

ولنضرب مثلاً بما وقع للاسبارطيين والرومان . فقد احتفظت اسبارطة بسيطرتها على أثينة وطيبة ، عن طريق خلق حكومتين فيهما من الأقليات ، ومع ذلك فقد خسرت هذه السيطرة . أما الرومان ، فرغبة منهم في الاحتفاظ بكابوا وقرطاجنة ونومانتيا ، قاموا بتخريب هذه المدن وهدمها ، فلم يخسروها . ولكنهم أرادوا الاحتفاظ باليونان بنفس الطريقة التي اتبعها الاسبرطيون ، تاركين لمدنها الحرية لتعيش في ظل قوانينها ، فلم ينجحوا مما اضطرهم إلى تخريب عدد من المدن في تلك البلاد للاحتفاظ بها . إذ لا وسيلة مضمونة لهذا الحفاظ إلا عن طريق تجريدها من كل شيء . وكل من يسيطر على مدينة حرة لا يقوم بتهديمها ، يتعرض هو للدمار منها ، لأنها ستجد دائماً الحافز على العصيان باسم الحرية وباسم أعرافها القديمة التي لا يسدل الزمن عليها سجف النسيان ، ولا تلحق بها المنافع الجديدة الاهمال والتغاضي. ومهما عمل الحاكم الجديد ، فإنه لن يستطيع أن ينسي أهلها ، اسم مدينتهم أو أعرافها ، إلا إذا مزقهم شر ممزق . وفرقهم في كل صقيع . إذ أنهم سيظلون ذاكرين هذه الأعراف ينشدونها عند كل طارىء كما فعلت مدينة بيزا بعد سنوات طويلة من احتلال الفلورنسيين لها ، أما إذا كانت المدن أو المقاطعـــات معتادة على حياة الخنوع في ظل أمير أو حاكم ، وقام المحتل بالقضاء على أسرة الأمير السابق ، فإن أهلها الذين ألفوا الطاعة ، والذين افتقدوا أميرهم السابق ، أعجز من أن يتفقوا على اختيار أمير جديد من بين صفوفهم ، يضـــاف إلى هذا أنهم لا

يعرفون العيش تحت راية الحرية ، ولذا فهم بطيئون في العصيان . وفي استطاعة الأمير المحتل ، أن يكسبهم إلى صفه بسهولة بالغة ، وأن يوطد أقدامه في ربوعهم . أما الجمهوريات فتتميز بالحيوية العظيمة ، والكراهية البالغة ، والرغبة العنيفة في الثأر ، وليس باستطاعة أهلها ، أن يطرحوا جانباً ذكرى حريتهم المجيدة السابقة ، ولذا فإن أضمن سبيل هو إما تدميرها تماماً ، او الإقامة فيها .

●

٦

الممالك المحتلة حديثاً بقوة السلاح الخاص ، وبالقدرة والكفاءة

على كل انسان أن لا تأخذه الدهشة ، إذا كنتُ في حديثي ، عن ممتلكات جديدة ، بالنسبة إلى الأمير أو إلى الدولة، قد استشهدت بأمثلة في منتهى العظمة ، لأن الناس يخطون دائماً في الطرق التي سار عليها الآخرون من قبل ، ويمضون في أعمالهم مقلدين من سبقهم . ولما كان الانسان عاجزاً عن اللحاق بالآخرين تماماً ، وعن تقليدهم بصورة رائعة ممتازة ، فإن من واجب العاجز أن يسير دائماً في الطريق التي خطا فيها العظماء من قبل ، وأن يقلّد الممتازين فقط ، حتى إذا عجز عن الوصول إلى عظمتهم ، تمكن على الأقل من الحصول على بعض ما فيها من أثر أو لون . وهو في عمله هذا يشبه المتبصرين من قاذفي السهام ، عندما يدركون أن الهدف الذي يريدون اصابته أبعد من مدى مرماهم.

إذ انهم يعرفون تماماً هذا المدى فيستهدفون نقطة أعلى بكثير من تلك التي يريدون إصابتها ، لا لأنهم يريدون الوصول بسهمهم إلى ذلك الارتفاع ، بل أملاً منهم في أن يؤدي هذا الهدف العالي إلى إصابة النقطة التي يريدون إصابتها .

ولهذا فإني أقول ، أنه بالنسبة إلى الممالك الجديدة ، حيث يوجد أمير جديد تتوقف سهولة السيطرة عليها أو صعوبتها على ما يتمتع به المسيطر من مقدرة فائقة أو ضئيلة . ولما كان ارتفاع أي شخص عادي إلى مرتبة الإمارة يفترض فيه وجود الكفاءة البالغة أو الطالع الحسن فقد يبدو أن أياً من هذين الأمرين سيخفف جزئياً من المشاكل العديدة. ومع ذلك فإن الذين لا يعتمدون كثيراً على حسن الطالع قد برهنوا على تمكنهم من الحفاظ على ممتلكاتهم أكثر من غيرهم . وقد يسهل من هذه المشكلة اضطرار الأمير إلى الإقامة شخصياً في ممتلكاته الجديدة ، بالنظر إلى عدم توفر من يقوم مقامه . ولكن إذا انتقلت في الحديث إلى أولئك الذين أضحوا أمراء ، بمواهبهم الشخصية وكفاءاتهم لا بحسن طالعهم ، فإني أعتبر أعظمهم موسى وكورش ورومولوس وثيزيوس وأمثالهم . وعلى الرغم من وجوب تجنب الحديث عن موسى بالنظر إلى أنه كان مجرد منفذ لأوامر الله ، إلا أنه يستحق التقدير والاعجاب بالنسبة إلى قداسته التي جعلته أهلاً للحديث مع الله . أما بالنسبة إلى كورش وغيره من الذين أنشأوا الممالك وأقاموها فإنهم يستحقون الاعجاب والتقدير . وإذا ما حققنا في أعمالهم الخاصة وأساليبهم ، تبين

لنا انها لا تختلف كثيراً عن أعمـــال موسى وأساليبه ، على الرغم من اعتاد الأخير ، على سيد عظيم يقف وراءه هو الله . وإذا ما أمعنّا النظر في حياتهم ومآثرهم ، تبيّـن لنا أنهم لا يدينون فقط بأي شيء ، وإنما يدينون للفرص ، التي أتاحت لهم مادة استطاعوا تصويرها على الشكل الذي رأوه مناسباً، ولو لم تتح لهم هذه الفرص لضاعت مواهبهم هباء ، ولو لم تكن لهم هذه المواهب ، لمرت هذه الفرص ، دون انتهاز أو اغتنام .

وهكذا كان من الضروري أن يجد موسى شعب اسرائيل عبيداً في مصر يضطهدهم المصريون ، لتكون لديهم الرغبة في اتباعه للنجاة من العبودية . وكان من الضروري أيضاً أن يعجز رومولوس عن البقاء في ألبا وأن يتعرض للعراء عند ولادته ، حتى يتمكن من أن يصبح ملكاً على رومة ، ومؤسساً لشعب فيها . وكان من الضروري أن يجد كورش الفرس ناقمين على امبراطورية الماديين ، وأن يرى هؤلاء ضعفاء صيّرهم السلام الطويل مخنّثين . ولم يكن باستطاعة ثيزيوس أن يظهر كفاءاته ، لو لم يجد الاثينيين متفرقين متمزقين . وهكذا أتاحت هذه الفرص لهؤلاء الحظ وتمكنوا بفضل مواهبهم العظيمة من الاستفادة منها لتمجيد بلادهم ، ومضاعفة طوالعها ومفاخرها .

ومثل هؤلاء من الذين ينتقلون إلى مرتبة الإمارة عن طريق مراس كفاءاتهم ، يحصلون على ممالكهم بصعوبة بالغة ، ولكنهم يحتفظون

بها بسهولة وتنجم هذه الصعوبات التي يلقونها في مرحلة التأسيس جزبياً من الشرائع والأنظمة الجديدة التي يتوجب عليهم إدخالها ، لتوطيد أقدامهم وترسيخها . وعلينا أن نعتبر ان أصعب شيء في التنفيذ ، وأكثره تعرضاً للفشل ، وأجزائه خطورة في التناول ، هو إقــامة نظام جديد للأمور . فالمصلح يجد أعداءه دائماً بين جميع أولئك الذين كانوا يفيدون من النظام القديم كما يجد أنصاره الخائري الهمة بين الآخرين الذين ينتفعون من النظام الجديد ، وهذا الخور ناجم إلى حد ما عن خوفهم من أعدائهم ، الذين يتمتعون بحماية القانون ، وإلى حد آخر عما يمتاز به الجنس البشري من شكيّة في كل ما هو جديد إذ أن الانسان لا يؤمن بالجديد إلا بعد أن يختبره اختباراً علمياً وحقيقياً . وهكذا يظهر الوضع على الصورة التالية : يقوم مصلح جديد فيهاجمه خصومه بحماس، المواطنين بينما يدافع عنه أنصاره دفاعاً فاتراً خائراً ، ويتعرض هو في خضم ذلك إلى خطر عظيم. ومن الضروري إذا رغبنا في تحقيق هذه المسالة تحقيقاً دقيقاً ، أن نفحص ما إذا كان هؤلاء الجددون مستقلين ، أو انهم يعتمدون على غيرهم ، وهذا يعني ، هل يتحتم عليهم لتنفيذ خططهم أن يرجوا غيرهم أو أنهم قادرون على فرض إرادتهم بالقوة . ولا ينجح المصلحون في الحالة الأولى ولا يحققون شيئاً ، ولكنهم إذا استطاعوا الاعتماد على قوتهم وتمكنوا من استخدام القوة ، فإنهم يندر أن يمنوا بالفشل . وهكذا أثبتت الأيام أن الأنبياء المسلحين قد احتلوا وانتصروا بينما فشل الأنبياء غير المسلحين ، إذ بالاضافة إلى

ما سبق قوله ، تختلف طبيعة الشعوب ، وقد يكون من السهل إقناعها بامر من الأمور ، ولكن من العسير جداً ، إبقاءها على هذا الاقتناع ، ولهذا أصبح من الضروري فرض الأمور عليها ، حتى إذا توقفت عن الاقتناع ، أرغمت عليه بالقوة . ولو كان موسى وكورش وثيزيوس ورومولوس ، غير مسلحين ، لما استطاعوا إرغام الناس على احترام الشرائع التي سنوها ، أمداً طويلاً . فقد رأينا في عصرنا الحـــاضر فراجيرولاموسافونارولا ، يفشل فشلاً ذريعـــاً في قوانينه الجديدة عندما شرعت الجماهير ، بالكفر به، إذ لم تتوفر لديه الوسائل للاحتفاظ بأولئك الذين آمنوا به بسرعة ، ولا لارغام الكافرين به على الايمـان . وهكذا فان مثل هؤلاء الرجال يلقون صعوبات بالغة في شق طريقهم ، إذ أنهم يواجهون الأخطار التي تهددهم ومن واجبهم تذليلهـــا بفضل كفاءاتهم ومواهبهم . وإذا تيسر لهم أن يتغلبوا على هـــذه العقبات وشرع الناس في تبجيلهم وتقديسهم بعد أن قضوا على جميع شانئيهم فانهم يظلون أقوياء في منجى من كل أذى ، سعداء ومكرمين .

وأود أن أضيف الى هـــذه الأمثلة الرفيعة التي أوردتها مثلاً أقل منها درجة وشاناً ، وان كان يصلح للمقارنة معها . ويمكن استخدامه كنموذج لجميع هذه الحالات وأعني به موضوع هييرو السيراقوزي ؛ الذي ارتقى من صفوف الشعب إلى مرتبة الامارة في سيراقوزه ، دون ان يستعين بأي عون آخر من الحظ سوى الفرصـــة السانحة بعد ان

اختاره السيراقوزيون المضطهدون زعيماً لهم ، فارتفع بكفاءته الى مرتبة الامارة ، بينما كانت فضائله في حياتـه الخاصـة سبباً في ان تحمل البعض على القول بانـه لا ينقصه شيء للحـكم ، إلا وجود المملكة التي يحكمها ، وألغى الجيش القديم من المتطوعة ، وأقام جيشاً آخر ، وتخلى عن صداقاته القديمة ليقيم بدلاً منهـا صداقات جديدة ، وهكذا تمكن بفضل أفراد جيشه وأصدقائه الذين اختـارهم هو ، أن يقيم مملكة على أسس سليمة وان يحتفظ بهـا ، ولم يلق في الحفاظ عليها ما لاقاه من صعوبات عند انشائها .



٧

الممالك التي يتم احتلالها بمساعدة الآخرين أو بمساعدة الحظ

قد لا يجـــد هؤلاء الذين يرتقون من صفوف الشعب الى مرتبة الامارة بفضل حسن الطالع صعوبة كبيرة ، في هذا الارتقاء ، ولكنهم يجدون صعوبة كبيرة في المحافظة على مراكزهم . وفي طريق الارتقاء ، لا يواجهون أية مصاعب ، لأنهم يحلقون فوقها ، لكن متاعبهم سرعان ما تنبثق عندمـا تتوطد أقدامهم . وتنطبق هـــذه الحالة على أولئك الذين يبتاعون الدول بالمال ، أو يحصلون عليها عن طريق كرم من يمنحهم إياها كما وقع في اليونان وفي المدن الايونية والهليسبونت ، عندما خلق داريوس أمراء في مثل هذه الأماكن ، ليحافظوا عليهـــا باسمه ، حماية لأمجاده وسلامتـــه . كما تنطبق أيضاً على أولئك الأباطرة ، الذين ارتقوا من صفوف الشعب عن طريق رشوة الجيش ويعتمد مثل هؤلاء

اعتماداً كلياً على حسن نية أولئك الذين رفعوا من قدرهم ، وعلى حسن طالعهم ، وكلا الأمرين يفتقر الى الاستقرار والدوام . وهم لا يعرفون كيف يحافظون على مراكزهم ، وليسوا في وضع يمكنهم من هذا الحفاظ ، وما لم يكن ذلك الانسان الذي قضى طيلة حياته ، يعيش كانسان عادي ، عبقرياً كبيراً ، فانه لن يتمكن من معرفة طريقة الحكم ، يضاف الى هذا انه سيعجز عن المحافظة على وضعه ، لأنه لا يملك قوات صديقة ومخلصة له . والدول التي تشاد بسرعة ، شأنها في ذلك شأن جميع الأمور ذات البدايات السريعة ، والنمو المتعجل ، لا تستطيع أن تكوّن جذوراً عميقة لها ، ولا تفرعات واسعة ، ولذا فانها تتعرض للهدم عند هبوب أول عاصفة ، إلا اذا كان الرجل الذي أصبح أميراً بهذه الطريقة كما قلت ، عبقرياً عظيماً ، مما يساعده على اتخاذ خطوات فورية ، للحفاظ على ما قذف به الحظ في حضنه ، ومن ثم الانصراف إلى وضع القواعد التي يصفها الآخرون عادة قبل الوصول إلى مرتبة الأمارة .

وسأسرد هنا مثلين على هاتين الطريقتين ، في الوصول إلى مرتبة الامارة ، وأعني بهما الكفاءة ، وحسن الطالع ، مما تحضرني الذاكرة من وقائع . وهذان المثلان ، هما فرانسيسكو سفوروزا وقيصر بورجيا . فقد تمكن فرانسيسكو بالطرق السلمية وبواسطة كفاءاته العظيمة من الارتقاء من درجة المواطن العادي الى مرتبة دوق ميلان ، وتمكن دون صعوبة أو مشقة من الاحتفاظ بما حصل عليه بعد تذليل ألوف المتاعب.

أما قيصر بورجيا من الناحيـــة الآخرى ، وهو المعروف باسم الدوق فالنتين ، فقـد تمكن من الحصول على دولة ، عن طريق نفوذ والده ، ولكنه سرعان ما أضاعهـا ، عندما انتهى ذلك النفوذ ، على الرغم من اتخاذه جميع التـدابير ، التي يمكن أن يتخذهـا رجل مقتدر ومتبصر لتوطيد أقدامه في الدولة التي أقامتهـا له جيوش الآخرين وعطفهم . وقد سبق لي أن قلت ، ان الذي لا يضع أسسه مسبقاً ، قد يتمكن عن طريق المواهب الخارقة ، من وضعها لاحقاً ، على الرغم مما في ذلك من متاعب للمهندس ، ومن أخطار على البنـــاء نفسه . واذا تفحص الانسان بعد ذلك أعمال الدوق وسيره ، فسيرى ان الأسس التي وضعها لتدعيم سلطته المقبلة كانت متينة ثابتة ، ولا أظن ان من العبث بحثها ، إذ أنني لا أرى في أعمال أي أمير جديد مـا يفضلها . أمـا اذا لم يقدر لتدابيره النجاح ، فان هذا ليس ناجماً عن خطأ منه ، وانما نتيجة منتهى سوء الطالع وجرائره .

وكان البابا اليكساندر السادس ، رغبـــة منه في تعظيم شأن ولده الدوق ، قد اضطر الى أن يواجه صعوبات فائقة ، في المـــاضي ، وفي المستقبل أيضاً . فمن الناحية الأولى رأى الوالد ، أن ليس من سبيل ، لرفع ولده الى مرتبة الحكام إلا اذا كانت الامارة من ممتلكات الكنيسة. وكان يدرك ان دوق ميلان والبنادقـــة ، لن يوافقوا على محاولته اغتصاب بعض المدن البابوية ، لأن البندقية ، كانت تشمل بحمايتها كلاً من فايينزا وريميني . ورأى البـــابا أيضاً ، ان القوات العسكرية في

ايطاليا ، ولا سيا تلك التي كان في الامكان لها أن تحقق أهدافه ، كانت تحت سيطرة أولئك الذين يخشون من زيادة عظمة البابا . ولذا لم يكن في وسعه أن يعتمد عليها، لأنها جميعاً كانت تحت قيادة أسرتي أورسيني وكولونا ، واصدقائهما . وتطلب الوضع تبعاً لذلك ، خلق حالة من الاضطراب تقلب الأوضاع القائمة ، وتأتي ببعض الاضطراب الى دول ايطاليا ، ليتمكن من تحقيق سيادته على بعضها . وكان ما أراده سهلاً ، إذ عثر على البنادقة ، الذين حفزتهم عوامل أخرى على دعوة الفرنسيين الى ايطاليا ، وهي الدعوة التي لم يكتف بعدم معارضتها ، بل ذلل أمامها الطريق ، بحل الملك لويس من رباطه الزوجي . وهكذا جاء ملك فرنسا الى ايطاليا بمساعدة البنادقة ، وموافقة اليكساندر . ولم يكد يضع أقدامه في ميلان ، حتى كان البابا قد حصل منه على القوات العسكرية اللازمة لتحقيق مشروعه في رومانا . وهو أمر ما كان في الامكان أن يحققه لولا السمعة التي كان يتمتع بها ملك فرنسا . وبعد أن حصل الدوق على رومانا وانتصر على كولونا ، أقعده عن المضي في طريقه وعن الاحتفاظ بما حصل عليه ، عاملان ، أولهما شكه في قواته واخلاصها ، وثانيهما ريبته في ارادة فرنسا . وهذا يعني ان الدوق قد خاف من أن تنقلب عليه قوات أورسيني التي اعتمد عليها ، وان لا تكتفي بالحيلولة بينه وبين الحصول على أراض جديدة ، بل تعمد الى اغتصاب ما احتله . كما لزمته الخشية ، من أن ملك فرنسا ، قد يتخذ نفس الموقف . وقد ثبت لديه هذا الوضع بالنسبة لأورسيني ،

إذ بعد أن أتم احتلال فايينزا ، وشرع في مهاجمة بولونا ، لاحظ بأن قوات أورسيني تتردد في الهجوم . أما بالنسبة الى الملك ، فقد تحقق من نواياه ، عندما رأى ان الملك قد حال بينه وبين مشروعه الرامي الى مهاجمة تسكانيا ، بعد أن أتم اخضاع دوقية أوربينو . وآنذاك قرر الدوق ، أن لا يعتمد بعد الآن على جيوش الآخرين وطوالعهم . وكان أول ما قام به من عمل اضعاف حزبي أورسيني وكولونا في روما ، باجتذاب انصارهما الى جانبه ، وجلهم من السادة ، أتباعاً له ، عن طريق اغداق العطايا عليهم ، وتعيينهم في قيادات ومراكز تتفق مع رتبهم ، وتمكن بذلك ، في غضون بضعة أشهر من فصم ما يربطهم من ولاء الى أحزابهم القديمة ، وتركيز اهتمامهم عليه . وأخذ ينتظر سنوح الفرصة ليغتنمها ويقضي على زعماء الأورسيني ، بعد أن تمكن من القضاء على أسرة كولونا . وعندما سنحت الفرصة أحسن انتهازها ، وذلك عندما رأى الأورسيني أخيراً ، ان عظمة الدوق وقوة الكنيسة، تعني دمارهم ، فدعوا الى عقد مجلس للشورى في أوربينو ، في مقاطعة بيروجينو . وهنا نشبت الثورة في أوربينو ، وسادت الاضطرابات في رومانا وتعرض الدوق لأخطار لا حدود لها ، لكنه تغلب عليها جميعها بمساعدة الفرنسيين. وبعد أن استعاد مركزه قرر أن لا يثق بالفرنسيين ولا بغيرهم من القوات الأجنبية ، لئلا يجازف بالاعتماد على حلفهم ، وان يلجأ الى الحيلة . وأخفى الدوق حقيقة أهدافه بمهارة فائقة حتى أن الأورسيني سارعوا الى مصالحته ، فأوفدوا ممثلهم السنيور باولو ، الذي

تمكن الدوق من ازالة مخاوفه وشكوكه بما أغدقه عليه من لطف وهدايا شملت الملابس المزخرفة والنقود والخيول ، واقتنع الاورسيني ، سذاجة منهم ، بالعودة الى سينيغا غليا حيث وقعوا فريسة هينة بين يديه . وتمكن الدوق بعد القضاء على هؤلاء الزعماء، واجتذاب أنصارهم الى صفه وصداقته من وضع الأسس السليمة لتوطيد سلطانه ، بعد أن سيطر على جميع أنحاء رومانا ودوقية أورتبينو ، وبعد ان اكتسب محبة الأهلين وعطفهم ، لا سيا وقد بدأوا يحسون بما في حكمه من منافع .

ولما كان هذا الجزء ، يستحق الملاحظة والتقليد من الآخرين ، فلن أتغافل عن ذكره . فعندما احتل رومانا ، كانت هذه المقاطعة خاصعة لحكام ضعفاء ، همهم أن ينهبوا رعاياهم لا أن يحكموهم ، وأن يخلقوا أسباب الفرقة بينهم بدلاً من توحيدهم . وهكذا أضحت عرضة لأعمال النهب والغزو ، وكل شكل من أشكال الفوضى . وقرر أن يقيم في المقاطعة حكومة صالحة ، تحمل الرعايا على الهدوء والطاعة والاذعان لحكمه . واختار لهذه الغاية السيد رميرو دي أوركو ، ليكون ممثلاً له ، وهو المشهور بالقسوة والكفاءة ، ومنحه السلطات الكاملة . وتمكن هذا الرجل في غضون وقت قصير من تحقيق نجاح كبير في احلال النظام في المقاطعة وتوحيدها ، مما حمل الدوق على أن يرى في هذه السلطة المطلقة ، أمراً غير صالح ، فأقام محكمة مدنية للعدل في مركز المقاطعة ، يرئسها قاض ممتاز ، وتختار كل مدينة لها أحد محاميها . ولما كان يدرك ، أن قسوة الماضي ، لا بد وأن تكون قد خلقت مشاعر

من الكراهية ، عزم الدوق رغبة منه في إزالة ما لحق بعقول الشعب ، وفي اجتذابهم تماماً اليه ، على أن يظهر لهم ، أن أية فظاعات ارتكبت في الماضي ، لم تكن بأمر منه، وإنما من ابتداع وزيره . وعندما سنحت له الفرصة ، أمر بقطع جسده إلى شقين وتعليقهما في ساحة مدينة سيزينا العامة ، وإلى جانبه لوحة من الخشب وخنجر ملطخ بالدماء . وقد أثارت وحشية هذا العمل ، عند الشعب ، مشاعر هي مزيج من الرضى والدهشة . ولكن لنعد حيث كنا .

وعندما أحس الدوق الآن بقوته ، وشعر بالطمانينة تجاه الأخطار القائمة ، بعد أن أعد قواته العسكرية الخاصة ، وأطاح ، إلى حد كبير ، بالقوى المجاورة ، التي في وسعها إيذاءه ، رأى ضرورة الحصول على احترام فرنسا ، إذا رغب في مواصلة أعماله الاحتلالية ، إذ أدرك أن ملك فرنسا ، وقد اكتشف أخيراً خطيئته ، لن يقدم له أي عون . وبدأ تبعاً لذلك، بالبحث عن أحلاف جديدة وبالتقرب إلى الفرنسيين، بمناسبة الحملة التي أعدها ملكهم ، لمهاجمة مملكة نابولي ، لمساعدتهم ضد الاسبان الذين كانوا يحاصرون غايتيا . وكان يرمي بذلك ، إلى التأكد منهم ، وكان بوسعه أن يحقق هذه الأمنية لو قدر لوالده اليكساندر أن يظل على قيد الحياة .

هذه هي الاجراءات التي قام بها الدوق ليواجه الحاضر بها . أما بالنسبة إلى المستقبل ، فقد خشي أن يكون الرئيس الجديد لدويلات

الكنيسة من غير أصدقائه ، وأن يعمل على حرمانه من المقاطعات التي أعطاه إياها اليكساندر .

وقرر مواجهة مثل هذا الاحتمال باللجوء إلى أربع طرق : أولها ، القضاء على جميع الأفراد الذين يمتون إلى الأسر الحاكمة ، التي سلبهـا ممتلكاتها ، ليحول بين البابا الجديد وبين فرصة الاعتماد عليهم . وكانت الطريقة الثانية الفوز بصداقة نبلاء رومة ليتمكن عن طريقهم من كبح جماح البابا . أما الطريقة الثالثة فتتلخص في فرض أقصى مـا يستطيع من سيطرة على المجمع. بينما تلخصت الرابعة في اكتساب أكبر قوة ممكنة قبل أن يتوفى والده البابا ليتمكن من المقاومة وحيداً عند أول هجوم . وكان عند وفـاة اليكساندر قد حقق ثلاثة من هذه الأهداف ، بينما كان الهدف الرابع في طريق التحقيق ، إذ تمكن من قتل أكبر عدد من الأمراء المخلوعين ، وأتيحت له فرصة الامساك بهم ولم ينج منهم إلا نزر يسير . واستطاع اجتذاب نبلاء روما إلى صفه . وسيطر سيطرة عظيمة على المجمع . أمـا بالنسبة إلى الممتلكات فقد خطط ليصبح سيد تسكانيا . وتمكن من امتلاك بيروجيا وبيومبينو ، ومن فرض حمايته على بيزا . وعندما تحقق له إنه لم يعد يخشى شيئاً من الفرنسيين ، الذين طردهم الاسبان من نابولي ، بطريقة حملتهم ، كما حملت أعداءهم على محاولة اكتساب وده وصداقته ، وضع يده على بيزا بصورة كاملة . وسرعان ما خضعت له لوكا وسينيا مدفوعتين بكرههما للبنادقة من ناحية ، وبخوفهما منه من ناحيـة أخرى . ولم تكن لدى

البنادقة موارد كافية . ولو نجح في ممتلكاته الجديدة كما نجح في ممتلكاته السابقة ، في نفس السنة التي توفي فيها اليكساندر ، لحقق لنفسه القوة والشهرة الكافيتين للحفاظ على سلطانه ، دون الاعتماد على قوى الآخرين وطوالعهم ، بل بفضل قوته وحده ومقدرته . ولكن اليكساندر مات بعد خمس سنوات فقط من امتشاق قيصر بورجيا لحسامه لأول مرة . ووجد نفسه ، وقد دانت له رومانا تماماً ، بينما ظلت خططه الأخرى معلقة في الهواء تقبع بين جيشين قويين ومعاديين ، بينما هو يشكو من أمراض قتالة ، ولكن شجاعة الدوق ومقدرته كانتا فائقتين . وكان يحسن كسب الأصدقاء والقضاء على الأعداء ، كما يتقن وضع القواعد ، التي تمكن من إرسائها في فترة قصيرة . ولو لم يطبق عليه هذان الجيشان العدوان ، ولو كانت حالته الصحية على ما يرام ، لتمكن من التغلب على كل صعوبة وتذليلهـــا . وفي وسعنا أن نرى سلامة هذه الأسس التي وضعها ، من معرفة الحقيقة الواقعة، وهي أن رومانا ظلت هادئة في انتظاره ، أكثر من شهر واحد ، وهو في روما يعاني سكرات الموت ، فأحس بالطمأنينة . وإن باغليوني وفيتيلي وأورسيني ، رغم دخولهم إلى روما بقواتهم ، لم يجدوا فيها أتباعاً يثورون عليه . وكان باستطاعته ، أن يحول دون اختيار بابا لا يريده ، إن لم نقل تعيين البابا الذي يريد . ولكن لو كانت حالته الصحية على مـــا يرام عند موت اليكساندر ، لحقق كل ما يشتهيه ، ولهان عليه كل شيء . وقد أبلغني في اليوم الذي اختير فيه البابا يوليوس الثاني ، انه ، أي الدوق ، كان

قد فكر في كل شيء قد يحدث عند وفاة والده ، وأعد العلاج لكل شيء ، إلا لشيء واحد . لم يدر في خلده قط ، وهو أن يكون قريباً من الموت في نفس اليوم الذي مات فيه والده .

وفي استعراضي هذا لجميع أعمال الدوق ، لا أجد ما يلام عليه ، بل على العكس أرى نفسي مضطراً ، كما حدث بالفعل ، لأن اعتبره مثالاً يجب أن يحذو حذوه كل أولئك الذين يرتفعون الى قمة السلطة عن طريق أسلحة الآخرين وطوالعهم . ولم يكن في وسعه بما عرف عنه من شجاعة وطموح كبيرين ، أن يعمل أكثر مما عمل ، ولم تحبط خططه إلا بسبب موت أبيه المفاجيء ومرضه هو . وعلى كل من يرى ضرورة للاحتفاظ بامارته الجديدة عن طريق تامين نفسه ضد الأعداء. وكسب الأصدقاء، والاحتلال بالقوة أو الخدعة، وفرض الحب والخوف على رعاياه ، وبسط الاحترام والتبعية على جنوده ، وتدمير كل من يمكن له أن يلحق به الأذى ، وادخال البدع بدل العادات القديمة ، والاتصاف بالشدة والرحمة معاً ، والشهامة والتحرر ، والقضاء على المتطوعين القدامى وخلق قوة جديدة ، والحفاظ على صداقة الملوك والأمراء ، بشكل يحملهم على الاقبال على تقديم المنافع له والخوف من إيذائه ، أن يجد في أعمال هذا الرجل خير مثال يحتذى . ولعل كل ما يتهم فيه ، هو سوء الاختيار عند تاييده للبابا يوليوس الثاني عند انتخابه ، إذ كما قلت في السابق ، لما كان عاجزاً عن اختيار البابا الذي يريد ، كان في وسعه أن لا يسمح مطلقاً باختيار شخص للبابوية ، لا سيما إذا كان هذا

الشخص من الكردينالات الذين سبق له ان أساء إليهم ، أو من الذين يتوجب عليه أن يخشاهم ، عندما يرتقون سدة البابوية . فالرجال يقدمون على اقتراف الاساءات، إما بدافع الكراهية ، أو بدافع الخوف. وكان الكرادلة الذين أساء إليهم كثيرين أهمهم: سان بييترو آد فينكولا، وكولونا وسان جيورجيو واسكانيو . وإذا ما اختير أي من الكرادلة الآخرين إلى سدة البابوية ، فان البابا الجديد سيخشاه باستثناء الكردينال روهان الفرنسي والكرادلة الاسبان ، لأن الأول يتمتع بسلطان كبير بسبب صلة القرابة التي تربطه الى ملك فرنسا ، ولأن الآخرين يتمسكون بما يربطهم الى الدوق من روابط والتزامات : وكان على الدوق لهذه الأسباب ، أن يختار للبابوية أحد الكرادلة الاسبان ، وإذا عجز عن ذلك ، كان عليه أن يوافق على اختيار الكردينال روهان ، لا سان بييترو آد فينكولا . ولا ريب في أن كل من يخيل اليه ان الشخصيات الكبيرة تنسى ، عندما يصيبها منافع جديدة ، الاساءة القديمة ، يكون مخطئاً أبلغ الخطأ . وقد أخطأ الدوق في هذا الاختيار وكان خطؤه سبباً في دماره النهائي .

٨

اولئك الذين يصلون الى الامارة عن طريق النذالة

لما كان ثمة سبيلان آخران للوصول إلى الإمارة ، لا علاقـــة لهما مطلقاً بالحظ أو الكفاءة ، فمن واجبنا أن لا نمر بهما مر الكرام ، على الرغم من أن هذين السبيلين ، تمكن الإفاضة في الحديث عنه لو كنا نعالج موضوع الجمهوريات . وأحد هذين السبيلين ، يتلخص في وصول المرء إلى مرتبة الإمارة ، عن طريق وسائل النذالة والقبح . أما السبيل الآخر فعن ارتقاء أحد أبناء الشعب سدة الإمارة في بلاده ، بتأييد مواطنيه . وسأسرد عند حديثي عن السبيل الأول مثالين ، أحدهما قديم ، والآخر معاصر ، دون أن أتحدث عن مزايا هذا الاسلوب ، لاعتقادي بكفايتهما لإقناع كل من يرى نفسه مضطراً لتقليدهما :

ـ ارتقى اغاتو كليس الصقلي العرش ، وهو من أحط الطبقات

وأدناها في بلاده ، ليصبح ملكاً على سراقوسه . فقد ولد لأب يعمل في صناعة الخزف ، ونشا على حياة امتازت ببالغ الشر والفظاعة في جميع مراحلها . ومع ذلك ، فقد صاحبت فظاعته ، حيوية في العقل والجسم ، فتمكن بعد انضمامه إلى المتطوعة ، من الارتقاء في مراتبها حتى وصل درجة قاضي القضاة « بريتور » في سراقوسه . وعندما عين في هذا المنصب ، قرر أن يصبح أميراً ، وأن يحافظ بالعنف ، ودون اللجوء إلى عون الآخرين ، على ما منحه إياه الدستور . وأسر بنواياه إلى هاميلكار القرطاجي ، الذي كان يحارب على رأس جيوشه في صقلية . واستدعى ذات صباح أهل سراقوسه ومجلس شيوخها ، للتشاور معهم في قضايا بالغة الأهمية ، بالنسبة للجمهورية. وعند إعطائه الاشارة المقررة ، قام جنوده بذبح جميع الشيوخ وأثرياء المدينة . وبعد أن تحقق له قتلهم ، تمكن من احتلال المدينة وحكمها ، دون أن يخشى المنازعات الداخلية . وعلى الرغم من هزيمته مرتين أمام القرطاجيين ومحاصرتهم له في مدينته تمكن من الدفاع عنها . ثم ترك فيها جزءاً من قواته ليواصلوا الدفاع ، وغزا بالبقية ساحل افريقية . وتمكن في وقت قصير من تحرير سراقوسه ، وإنقاذها من الحصار . وأرغم القرطاجيين ، بعد أن ألحق بهم ضربات شديدة على مصالحته ، والاكتفاء بسيطرتهم على افريقيا ، متخلين عن جزيرة صقلية لاغاتوكليس . وكل من يدرس صفات هذا الرجل وأعماله ، يتبين له أن ليس فيها ما يمكن أن يعزى إلى الحظ ، لأنه كما قلت ، لم يصل إلى مرتبة

الإمارة بتعطف من أي انسان ، وإنما بارتقائه سلم المتطوعة ، معرضاً نفسه لألوف المشاق والأخطار . وعندما وصل اليها حافظ عليها ، بتدابير تنطوي على المشقة والأخطار والشجاعة أيضاً . ولا يمكننا أن نطلق صفة الفضيلة على من يقتل مواطنيه ، ويخون أصدقاءه ، ويتنكر لعهوده ، ويتخلى عن الرحمة والدين . وقد يستطيع المرء بواسطة مثل هذه الوسائل ، أن يصل إلى السلطان ، ولكنه لن يصل عن طريقها إلى المجد . ولو أخذنا فضائل اغاتو كليس ، التي تتمثل في مواجهة الأخطار والتغلب عليها ، وفي قوة معنوياته في مقابلة العقبات وإذلالها ، لما وجدنا سبباً يدعونا إلى اعتباره أقل مكانة من أي من الزعماء المشهورين . ومع ذلك فإن فظاعته البربرية ، وتجرده في الشعور الانساني ، مضافين إلى ما لا حصر له من مظالمه ، لا تسمح لنا كلها ، باعتباره واحداً من الرجال المشهورين . وليس في إمكاننا أن نعزو إلى إلى الحظ أو الفضيلة ، ما حققه ، دون الاستعانة بأحدهما .

وفي أيامنا هذه، وفي عهد البابا اليكساندر السادس. نشأ أوليفيروتو دافيرمو ، يتيم الأب ، يرعاه خاله جيوفاني فوغلياني ، الذي أنشاه ليكون جندياً منذ حداثته تحت قيادة باولو فيتلّي ، حتى إذا تدرب في تلك المدرسة الصارمة ، حصل على مركز عسكري ممتاز . وبعد موت باولو ، حارب الشاب تحت قيادة أخيه فيتيلوزو . وبعد وقت قصير تمكن بفضل ذكائه ، وحاضر بديهته وحيويته ، من أن يصبح أحد قادة القوات المحاربة . ولكنه رأى من المهانة لنفسه أن يظل

تحت قيادة الآخرين ، فعزم على احتلال مدينة فيرمو ' بمساعدة بعض مواطني المدينـــة الذين كانوا يفضلون العبودية على الحرية ، وبتأييد فيتلّي . وكتب الى خاله جيوفاني معرباً عن أشواقـه لرؤياه ورؤية مدينته ، وعن رغبته في تفقد ممتلكاته ، بعد أن غاب عنها هـذه المدة الطويلة . وأضاف في رسالته ' انه بالنظر لما لقيه من المتاعب للوصول الى مراتب الشرف ، ورغبة منـــه في أن يرى مواطنوه ؛ انه لم يضع وقته عبثاً ، فإنه يود أن ياتي إلى المدينة بصورة تنطق بالمجـد ، يرافقه نحو من مائة فارس من أصدقائه وأتباعه . ورجا خــاله أن يصدر أوامره بان يستقبله أهل فيرمو ' استقبـالاً ينطوي على التكريم . لأن مثل هذه الظاهرة ' لا تعبر فقط عن حفـاوتهم به ' أي باوليفيروتو ' بل عن تكريمهم له ، أي لجيوفاني ، الذي ربّاه وعلّمه . ولم يتقاعس جيوفياني عن الاحتفاء بابن أختـه . وحمل أهل مدينتـه على استقباله وتكريمه ' ثم استضافه في منزله . وبعـد أن انتظر أوليفيروتو بضعة أيام حتى أعد خطته الشريرة الماكرة . دعـــا خاله جيوفاني وجميع البارزين من رجال فيرمو إلى وليمة كبرى . وبعد العشاء وما أعقبـه من احتفاء مألوف في مثل هذه المآدب' افتتح أوليفيروتو بكياسة بعض المناقشات المهمة ، متحدثاً عن عظمة البابا اليكساندر وولده قيصر وعن مشاريعهما . وعندما بدأ جيوفياني والآخرون بالرد عليه ، نهض فوراً على قدميه قائلاً : ان مثل هذه المواضيع يجب أن تبحث في خلوة . ومضى إلى غرفة مجاورة ما عتم أن لحق به إليهـــا جيوفياني والوجهاء

الآخرون . وما كادوا يجلسون ، حتى هجم عليهم الجنود من مخابئهم فقتلوا جيوفاني وجميع الوجوه . وبعد انتهـــاء الجزرة ، امتطى أوليفيروتو جواده ومر بشوارع البلدة وحاصر دار قاضي القضاة . واضطر الجميع خوفاً منه إلى إطــاعته ، وتاليف حكومة جديدة نصّبوه عليها أميراً . وبعد أن تم له القضاء على جميع من يخشى شرهم إذا لم يكونوا راضين عنه ، أحاط نفسه بجمهرة جديدة من المدنيين والعسكريين ، حتى أنه في السنة التي حكم فيها المقاطعة لم يكتف بتوطيد أقدامه في فيرمو فحسب ، بل فرض مهابته على جميع جيرانه. وكان من الصعب أن ينهار حكم اغاتو كليس ، لو لم يسمح لنفسه ، بان يخدعه قيصر بورجيا عندما اعتقل الأورسيني والفيتلّي في سينيغاغليا ، كما ذكرت آنفاً ، إذ اعتقل هو أيضــاً بعد سنة واحدة من المجزرة الجماعية التي اقترفهـــا ، ولقي حتفه مع فيتيلوزو ، استاذه في المقدرة والقسوة .

وقد يدهش انسان من كيفية تمكن اغاتو كليس ، وأضرابه ، بعد حلقة متواصلة من الخداع والخيانات والفظاعات، من أن يعيشوا بأمان واطمئنان سنوات طوالاً في بلادهم ، وأن يدافعوا عن أنفسهم ضد الأعداء الخارجين ، دون أن يتعرضوا لمؤامرات رعاياهم، على الرغم من أن آخرين لم يتمكنوا ، بسبب قسوتهم ، من الحفاظ على مراكزهم ، في أوقات السلم ، بل في أوقات الحروب المضطربــة . وللرد على هذه الدهشة أقول إنني أعتقد أن السبب في ذلك ناجم عن الطريقـــة التي

ارتكبت بها الأعمال الفظيعة ، وهل كانت طريقة حسنة التنفيذ أم رديئة . وإني لأطلق اسم الطريقة الحسنة ، إذا سمح لنا أن نستعمل الحسن للشر ، على تلك الأعمال التي دفعت اليها الحاجة إلى الاستقرار وضمان الأمن ، والتي لم تستمر ، بل استبدلت فيما بعد ، بتدابير نافعة للرعايا ، إلى أقصى حد ممكن . أما الطريقة السيئة فتشمل تلك الأعمال الفظيعة ، التي رغم قلتها في البداية ، ما عتمت أن ازدادت عدداً، بدل أن تقل مع مضي الزمن . وفي وسع أولئك الذين يتبعون الطريقة الأولى أن يصلحوا أوضاعهم مع الله ومع الانسان ، تماماً كما فعل اغاتو كليس . وليس في وسع الآخرين أبداً الحفاظ على أنفسهم وأوضاعهم .

ومن هذا يتبين ، أن على المحتل ، عند احتلاله لدولة من الدول ، أن يتخذ التدابير اللازمة لارتكاب فظائعه ، فوراً ومرة واحدة ، وأن لا يعود اليها من يوم إلى آخر . وهكذا يتمكن ، عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة ، من خلق الطمأنينة عند شعبه ، واكتسابه إلى جانبه ، بواسطة المشاريع النافعة له . أما الذي ينهج نهجاً مغايراً ، اما بسبب الجبن ، أو المشورة الفاسدة ، فإنه يضطر إلى الوقوف دائماً وسيفه في يده ، إذ لا يستطيع مطلقاً الاعتماد على رعاياه ، لأنهم بسبب تكرر الاساءات الجديدة عاجزون عن الأعتماد عليه . ومن الواجب اقتراف الاساءات مرة واحدة وبصورة جماعية ، وهذا يفقدها مزية انتشار التأثير ، وبالتالي لا تترك أثراً سيئاً كبيراً . أما المنافع فيجب

أن تمنح قطرة فقطرة ، حتى يشعر الشعب بمذاقها ويلتذ بها . وفوق كل هذا ، على الأمير أن يعيش مع رعاياه ، بطريقـــة لا تحول فيها الطوالع الحسنة أو السيئة ، عن متابعته لسيره . فالحاجة التي تنشأ في الأوقات الصعبة ، تحتم عليك أن تكون متأهباً لمواجهتها ، والخير الذي تعمله قد لا يفيد في مثل هذه الأوقات ، لأن الرأي يسود ، بان الحاجة قد فرضته عليك . وهنا لن يكون في وسعك أن تستخلص منه أية فائدة مهما كانت .



٩

الامارات المدنية

نأتي الآن إلى الحالات التي يرتفع فيها المواطن إلى مرتبة الامارة ، لا عن طريق الجريمة أو العنف الذي لا يحتمل ، بل عن طريق تأييد رفاقه المواطنين ، وهذه الحالة هي التي تدعوها بـ « الامارات المدنية ». وللوصول إلى هذا المنصب لا يعتمد الانسان كلية ، على الكفاءة أو على الحظ ، بل على المكر ، يدعمه الحظ . وقد يصل المرء اليه ، أما عن طريق تأييد الجماهير ، أو عن طريق دعم النبلاء . إذ يوجد هذان الفريقان المتعاكسان في كل مدينة ، وينجم تعاكسهما عن رغبة الجماهير في تجنب طغيان العظماء ، وعن رغبة العظماء في التحكم والطغيان على الجماهير . ومن هذا التضارب في المصالح المدنيـــة ، تنشأ احدى نتائج ثلاث : اما قيام حكومة مستبدة ، أو حكومة حرة ، أو حكومة تفرض القيود والاجازات . وتتألف الحكومة الأولى اما من الشعب أو

من النبلاء ، ويتوقف تاليفهـــا على الفرص النسبية التي تتاح للفريقين المتنازعين ، إذ عندما يشعر النبلاء بعجزهم عن مقاومة الشعب ، فإنهم يتحدون في تمجيد أحدهم ، ورفعه إلى مرتبة الامارة ، ليستطيعوا تحت ظل سلطانه، فرض إرادتهم وتحقيق خططهم . وعندما يعجز الشعب ، من الناحية الأخرى ، عن مقاومة النبلاء ، يحاول أن يخلق أميراً وأن يمجده ، ليشعر بالحماية في ظل سلطانه . ويلقى الأمير الذي يصل إلى منصبه بمساعدة النبلاء مصاعب أكبر في الحفاظ على سلطته ، من ذلك الذي يرفعه الشعب إليها . إذ أن الأول يحاط بزمرة من النبلاء الذين يعتبرون أنفسهم أنداداً له ، فيعجز بذلك ، عن تسيير دفة الأمـــة والحكم ، وفقاً لما يشتهي ويهوى . أما الذي يرفعه الشعب إلى الزعامة ، فيجد نفسه وحيـــداً دون منافس ، ولا يرى من يعارضه إلا النزر اليسير . يضاف إلى هذا ان ليس في الإمكان إرضاء النبـــلاء بإتباع العدالة وعدم إيقاع الأذى بالآخرين ، بينما يسهل إرضاء جماهير الشعب بهذه الطريقة . إذ أن هدف الشعب أنبل من أهداف النبلاء . فهؤلاء يريدون أن يظلموا ، وأولئك يريدون مجرد وقاية أنفسهم من ظلم الآخرين. ومن واجبنا أن نقول أيضاً ان الأمير لا يستطيع حماية نفسه من شعب ناقم عليه ، بالنظر إلى كثرة عدد أفراد هذا الشعب ، ولكنه يستطيع أن يحمي نفسه من عداء العظماء لأنهم قلة . وان أسوأ ما ينتظره الأمير من شعب ساخط عليه ، أن يتخلى هذا الشعب عنه . أما ما يخشاه من النبلاء الساخطين فليس مجرد التخلي ، وإنما المعارضة

الجدية الفعالة . ولما كان هؤلاء بعيدي النظر ، وأكثر من أفراد الشعب فإنهم يكونون دائماً على أهبة لإنقـــاذ أنفسهم ، والانضمام الى جانب الخصم ، الذي يتوقعون له الغلبة . وليس في وسع الأمير كذلك إلا أن يعيش مع نفس الشعب . أما بالنسبة إلى النبلاء ، فيستطيع أن يحيا دون أن يحـــاط بنفس الناس منهم ، إذ ان بإمكانه أن يضفي عليهم النبالة ، أو يخلعهـــا عنهم في أي وقت . كما ان في وسعه أن يرفع من رتبهم أو يخفضها كما يشاء ويهوى .

ولألقي ضوءاً أكثر على هذا الجزء من مناقشتي ، أود أن أقول ان الواجب يحتم على الأمير معاملة النبلاء بإحدى طريقتين : أولاهما أن يحكموا بشكل يضمن اعتمادهم الكلي على عطف الأمير ، وثانيتهما أن لا يحكموا بهذه الطريقة . وعليك أن تكرم وتحب هؤلاء الذين يرتبطون بك ، دون أن تكون لهم مطامع ، أمـــا أولئك الذين يظلون بمنأى عنك ، فيجب أن ينظر إليهم بصورتين مختلفتين . فمنهم من قد يدفعه افتقاره إلى الشجاعـة وخوره إلى اتخاذ هذا الموقف ، وعليك في مثل هذه الحالة ، أن تفيد من هذا الطراز من الناس ، وأن تستعين بمشورتهم وآرائهم ، فيكرمونك في حالة الرخاء ، ولا تخشى منهم شيئاً في حالة الشدة والضيق . أمـــا إذا كانوا ينأون عنك بدافع أغراضهم الخاصة ومطامحهم ، فهذا دليل على أنهم يفكرون بأنفسهم أكثر من تفكيرهم بك . وعلى الأمير أن يحذر مثل هؤلاء الناس ، وان ينظر إليهم كأعداء خفيين سيعملون حتماً على تحطيمه ، عندما تحل به شدة أو ضائقة .

وعلى الأمير الذي يصل إلى منصبه باختيار الشعب ، أن يحافظ على صداقته ، وهي في متناول يديه ، إذ أن كل ما يطلبه الشعب لا يعدو الخلاص من الطغيان . أمـــا الأمير الذي يصل إلى منصبه عن طريق النبلاء ، ورغم إرادة الشعب ، فعليه قبل كل شيء أن يحاول كسب عطف الشعب ، وهذا أمر سهل إذا فرض حمايته عليه . ولما كان من طبيعة الناس أن يشعروا بالدين الكبير لمن يلقاهم بالمعروف ، في حين أنهم لا ينتظرون منه إلا المكروه ، فإن الشعب سيصبح أكثر ميلاً لهذا الأمير منه للأمير الذي يختاره برضاه . وفي وسع الأمير أن يكسب عطف الشعب بطرق شتى تختلف باختلاف الظروف، ولا تنطبق عليها أية قواعد أو قوانين ، ولذا بات من واجبنا أن نتجاوزها . ولكني أريد أن أقول في الختـــام ، أن من الضروري لكل أمير أن يكسب صداقة شعبه وإلا فإنه لا يجد أي ملجأ له في أوقات الشدة والضائقة .

وقد تمكن نابيس ، أمير اسبارطة ، من الصمود أمـــام حصار اشتركت فيه بلاد اليونان بأسرها ، متعاونة مع جيش روماني منتصر واستطاع أن يحمي بلاده منهم جميعاً، وأن يحافظ على مركزه ومكانته. وقد اكتفى عند حلول الخطر بالاطمئنان إلى بعض الأشخاص . ومثل هذا لم يكن كافياً لو كان الشعب معادياً له . واني لا أنصح أي انسان بمعارضة رأيي هذا والاعتماد على المثل التافه القائل : « ان من يبني على الشعب ، إنما يبني على أساس واه من الطين » . وقد يصدق هذا القول على المواطن العادي ، في حالة اعتماده على الشعب لتحريره من طغيان

الأعداء ، أو القضاة ، إذ يجد هذا المواطن نفسه ، وقد طاشت أحلامه كما حدث لفراشي في رومة ، وللسيد جيورجيو سكالي في فلورنسة . أما إذا كان المواطن الذي يضع اعتماده على هـذا الأساس أميراً يستطيع أن يحكم ويامر ويتصف بالشجاعة ، ولا يجبن حين الشدة ، ولا يهمل اتخاذ الاستعدادات الأخرى ، وكان قادراً بشجاعته واجراءاته على بعث الحيوية عند جماهير الشعب فإن هذا الأمير لا يجد نفسه مخدوعاً بشعبه، وسيرى أنه قد أقام قواعده على أسس سليمة .

وقد تضحي هذه الامارات في خطر ، عندما يتحول الأمير من مركز الحاكم المدني إلى وضع الحاكم المستبد ، الذي يحكم ، إما مباشرة ، أو عن طريق القضاة . وفي هذه الحالة الأخيرة ، فإن وضع الأمراء يضعف ويصبح معرضاً للخطر ، لأنهم يصبحون تحت رحمة هؤلاء المواطنين الذين اختارهم ليكونوا قضاة ، والذين يستطيعون في أوقات الشدة ، بكثير من السهولة ، خلع الأمراء من مناصبهم ، إما بالعمل ضدهم ، أو عن طريق عصيان أوامرهم . وفي مثل هذه الحالة ، وعند حلول مثل هذا الخطر ، لا يكون الأمراء في أوضاع تمكنهم من تسلم زمام السلطة المطلقة بأيديهم ، لأن المواطنين والرعايا الذين تعودوا على تلقي أوامرهم من القضاة ، لا يكونون مستعدين لإطاعة أوامر الأمير . وسيكون دائماً مفتقراً ، في الأوقات الصعبة ، إلى الرجال الذين يستطيع الاعتماد عليهم . ولا يستطيع مثل هذا الأمير ، أن يقيم خططه على ما يراه في أوقات السلم ، عندما يكون المواطنون بحاجة

إلى الدولة ، إذ أن كل انسان ، في هذه الحـــالات ، يغدق الوعود ، ويعرب عن استعداده للموت في سبيل الأمير ، عندما يكون الموت بعيداً . أما عند الشدة ، وعندما تحتاج الدولة إلى مواطنيها ، فإن الأمير لن يجد إلا القليلين .

ولا ريب في أن هذه التجربة بالغة الخطورة ، إذ أنها لا تقع إلا مرة واحدة . ولذا فإن الأمير العاقل سيبحث عن السبل ، التي يشعر بواسطتها المواطنون في كل حين وفي جميع الأوضاع الممكنة ، بحاجتهم إلى حكومته ، فيدينون له دائماً بالاخلاص والولاء .



١٠

كيف تقاس قوة جميع الدول

عند البحث في طبيعة هذه الامارات ، أرى من الضروري ، أن نهتم بنقطة أخرى وهي : هل يتمتع الأمير بذلك المركز الذي يمكنه في حالة الحاجة ، من المحافظة على نفسه ؟ أو هل هو في حاجة دائمة إلى مساعدة الآخرين ؟ . وخير وسيلة لإيضاح ذلك أقول انني أعتبر من يستطيعون المحافظة على مراكزهم ، أولئك الذين يملكون الكثير من الرجال والمال ، ويستطيعون حشد جيش كاف ، ويصمدون في الميدان ضد كل من يهاجمهم . واعتبر من يحتاجون إلى الآخرين ، أولئك الذين لا يستطيعون خوض المعارك ضد أعدائهم ، فيضطرون إلى اللجوء إلى داخل أسوارهم ، واتخاذ موقف الدفاع . وقد تحدثنا عن الحالة السابقة، وسنتحدث عنها في المستقبل أيضاً ، عندما تدعو الحاجة إلى ذلك . أما عن الحـــالة الثانية ، فليس هناك ما يقال ، سوى تشجيع مثل هذا

الأمير على تزويد مدينته بالمؤن ، وتقوية وسائلها الدفاعية ، وأن لا يزعج نفسه بأحوال الريف المحيط بها . ولا ريب أن الآخرين سيترددون دائماً في مهاجمة الأمير الذي كان يجيد تحصين مدينته، ويحسن إدارة حكومة رعاياه ، كما شرحت سابقاً ، وكما سأتحدث في المستقبل أيضاً ، ذلك لأن الناس يكرهون دائماً المغامرات التي يتوقعون فيها لقاء المصاعب ، ولا يبدو قط من السهل الهجوم على رجل أجاد الدفاع عن مدينته ، وقابله رعاياه بالحب .

وتتمتع مدن المانيا بالحرية الكاملة ، ولا يحيط بها إلا القليل من الأرياف ، وهي تطيع إرادة الامبراطور ، عندما يروق لها ذلك ، وهي لا تخشاه ، ولا تخشى أي حاكم آخر يعيش قريباً منها . فهذه المدن منيعة التحصين ، بحيث يتأكد كل من يحاول القضاء عليها واحتلالها من صعوبة مهمته ، وما فيها من مشاق . الا تحيط بكل منها الخنادق والحصون ، وفيها المدافع الكافية ، والمؤن اللازمة من ماكل ومشرب ووقود ، بحيث تكفي حاجات أهلها سنة كاملة ، وقد أودعت كلها في المخازن العامة . يضاف إلى كل هذا ، أن حكومات هذه المدن ، رغبة منها في إرضاء الطبقات الدنيا من أهلها ، ودون أن تحمل الخزينة العامة أية خسائر ، احتفظت دائماً بالوسائل الكافية لتشغيلهم سنة كاملة في تلك الأعمال التي تؤلف حياة المدينة وعصبها الحساس . وفي الصناعات التي يعيش عليها أبناء هذه الطبقات .

وما زالت التمرينات العسكرية تجري فيها في نظام رفيع ، وما زالت الأنظمة الكثيرة موضع التنفيذ ، للحفاظ على هذا التدريب .

ولا يمكن لانسان أن يهاجم ، تبعاً لذلك ، الأمير الذي يملك مدينة منيعة ، والذي لا يعرض نفسه لكراهية رعاياه . وإذا توفرت للأمير هذه المزايا ، فإن المهاجم سيضطر إلى التراجع ، وقد لحق به العار ، إذ لا يمكن لشيء أن يدوم ، ويستحيل على أي مهاجم أن يظل محاصراً إحدى المدن سنة كاملة ، دون أن تعمل قواته المحاصرة شيئاً . وأود أن أجيب أولئك الذين يقولون إن الشعب المحاصر ، عندما يرى ممتلكاته خارج المدينة تحرق وتلتهب ، يفقد الصبر . وإن إطالة الحصار ، والمصالح الذاتية تجعلهم ينسون أميرهم ، فإن الأمير الشجاع والقوي يتغلب دائماً على هذه المتاعب ، برفع معنويات رعاياه من ناحية، والتأكيد لهم بأن هذه الشرور لن تطول ، وتخويفهم من فظاعة العدو وقسوته ، والاطمئنان دائماً إلى أولئك الذين يظهرون منتهى الشجاعة. يضاف إلى هذا أن العدو يلجأ عادة إلى إحراق الريف المحيط بالمدينة ونهبه في اللحظة الأولى التي يصل اليه منها ، وعندما تكون عقول أهلها ما زالت واقعة تحت سيطرة الحماس والتوق للدفاع عن أنفسهم . ولذا ، فإن هذه الناحية لا تثير الفزع عند الأمير ، إذ مع مضي الزمن، وفتور الحماس ، يكون الضرر قد وقع ، والشر قد حدث ، ولم يعد هناك من علاج . وهذا ما يحفزهم أكثر فاكثر ، على الاتحاد مع أميرهم ،

لا سيما وقد بدأ يشعر بالتزاماته تجاههم ، بعد أن أحرقت بيوتهم وهدمت ممتلكاتهم دفاعاً عنه .

ومن طبيعة البشر أن تربط بينهم المنافع التي يقدمونها لغيرهم بقدر المنافع التي يتلقونها . وهذا يعني أن الأمير الفطن ، بعد دراسته لجميع الاحتمالات ، لن يجد من الصعوبة بمكان ، المحافظة على شجاعة رعاياه ، سواء عند بدء الحصار ، أو إبانه ، إذا توفرت لديه الوسائل والمؤن اللازمة للدفاع .



١١

الامارات الكنسية

بقي علينا أن نتحدث عن الامارات الكنسية ، بالنسبة إلى أن المتاعب فيها ، تقوم قبل احتلالها . ويتم احتلال هـــذه الامارات اما بطريق الكفاءة أو الحظ . لكن المحافظة عليهـــا لا تقوم على هذين العاملين ، لأنها تخضع لتقاليد دينية عريقة ، هي من القوة والكيفية ، بحيث تبقى على سلطان أمرائها ، مهما كانت الطريقة التي يتبعونها والتي يعيشون فيها. فهؤلاء الأمراء وحدهم هم الذين يملكون دولاً لا يحتاجون للدفاع عنها ، ويكون لهم رعايا لا يحكمونهم . ودولهم ، رغم انعدام وسائل الدفاع عنها ، لا تسلب منهم . ورعاياهم ، رغم أنهم لا يشعرون بأنهم يحكمون ، لا يكرهون ذلك ، وهم لا يفكرون ، ولا يستطيعون ان فكروا ، الابتعاد عنهم ، فهذه الامارات وحدهـــا هي الأمينة والسعيدة . ولكن لما كانت دعائمها أسباب رفيعـــة لا يستطيع العقل

البشري الوصول اليها ، فسأتجنب الحديث عنها ، إذ أن كون الله هو الذي يمجدها ويحافظ عليها ، يجعل من السخف والحماقة ، البحث فيها . ومع ذلك ، فقد يسالني سائل ، كيف تمكنت الكنيسة من الوصول إلى مثل هذه القوة الزمنية العظيمة ، بينما لم يكن الزعماء الايطاليون قبل عهد البابا اليكساندر السادس ، سواء الأقوياء منهم أو الضعفاء ، الذين يشتملون على كل سيد أو نبيل ، مهما ضؤل شانه ، لا ينظرون إليها بعين الاعتبار من ناحية السلطان الزمني ، وأضحت الآن قادرة على إرهاب ملك فرنسا وارغامه على الخروج من ايطاليا ، وكذلك على تحطيم البنادقة وتدميرهم . وعلى الرغم من أن الرد على هذا السؤال ، معروف جيداً للجميع ، إلا أنني اعتقد ان ليس من نافلة القول تكرارة والتذكير به .

كانت ايطاليا قبل مجيء شارل ، ملك فرنسا ، خاضعة لحكم البابا والبنادقة وملك نابولي ودوق ميلان والفلورنسيين . وكان لهؤلاء الزعماء أمران يجب عليهم الاهتمام بهما، أولهما عدم السماح لأجنبي بدخول ايطاليا بقوة السلاح ، وثانيهما الحيلولة دون أي من الحكومات القائمة وتوسيع حدودها . وكان من المحتوم أن توجه الرقابة بصورة خاصة إلى البابا والبنادقة . وقد تطلب كبح جماح البنادقة تحالف جميع الزعماء الآخرين ، كما حدث في الدفاع عن فيرارا ، ولكبح جماح البابا كان عليهم أن يستخدموا نبلاء رومة . وكان هؤلاء النبلاء منقسمين إلى حزبين ، حزب الأورسيني وحزب كولونا . ولما كانت الخصومات

دائمة الوقوع بينهم ، وكلنوا دائماً في حالة تأهب للقتال تحت سمع البابا وبصره ، فقد حافظوا على ابقاء البابوية ضعيفة ومشلولة . وعلى الرغم من ظهور بابوات في بعض الأحيان يتمتعون بالصلابة والقوة كالبـــابا سيكستوس ، إلا أن قوته وطالعه ، لم يمكنانه قط من التخلص من هذه الشرور . ولعل قصر عمر الباباوات كان السبب في هذا ، إذ في غضون العشر سنوات ، التي هي عمر البابا بصورة عامة ، يجد الواحد منهم مشقة كبيرة في إذلال أحد الفريقين المتنازعين. وإذا كان أحد البابوات قد تمكن فعلاً، في حياته ، من إخضاع حزب كولونا ، فإن البابا الجديد سيخلفه ، وقد يكون خصماً لحزب أورسيني ، مما يؤدي إلى عودة كولونا إلى الظهور ثانية ، دون أن يتوفر له الوقت لإخضاع الحزب المعادي له .

وهذا ما حمل ايطاليا على عدم احترام السلطة الزمنية التي يتمتع بها البابا . ثم جاء اليكساندر السادس ، الذي تمكن ، خــلافاً لجميع الباباوات الذين ارتقوا السدة البابوية ، من إظهار الطريقة التي يستطيع البابا أن ينتفع بها بواسطة المال والقوة . واستخدم ولده الدوق فالنتين أداة له ، منتهزاً فرصة الغزو الفرنسي ، فقام بجميع الأعمــال التي شرحتها سابقاً عند الحديث عن أعمال الدوق . وعلى الرغم من أن هدفه لم يكن تعظيم الكنيسة بل الدوق ، إلا أن ما قام به من أعمال أدى إلى تعظيم الكنيسة التي أصبحت ، بعد موت الدوق وارثــة جهوده . وجاء بعد ذلك البابا يوليوس الذي وجد الكنيسة قوية تحتل

جميع رومانا ' ويخضع لها جميع نبلاء رومة، بعد أن قضي على الحزبين المتنافسين بفضل قسوة اليكساندر وشدته . ووجد يوليوس الطريق ممهداً أمامه لجمع الثروة' بأساليب لم تكن تستخدم قبل عهد اليكساندر. ولم يكتف باتباع هذه الطرق بل ضاعفها وأكثر منهـــا ' وصمم على السيطرة على بولونا ' وإخضاع البنادقة ' وطرد الفرنسيين من ايطاليا وقد نجح في تحقيق جميع خططه . ولا ريب في أنه يستحق جزيل التقدير ' أو انه عمـل كل ما في وسعه ' لزيادة قوة الكنيسة ' لا زيادة قوة أي انسان فرد . وأبقى حزبي أورسيني وكولونا على الوضع الذي وجدهما عليه عند مجيئه ، وعلى الرغم من ظهور بعض زعماء الحزبين ، الذين كانوا يتوقون إلى تبديل هذا الوضع ' إلا أن عاملين اشتركا في إبقائهم على حالهم ومحافظتهم على هدوئهم أولهما عظمة الكنيسة التي خافا منها، وثانيهما عدم وجود كرادلة فيهما ، وهم دائماً كانوا سبب المنازعات بين الحزبين ، ووجود الكرادلة في الحزبين يحرمهما من الهدوء ، لأن هؤلاء يثيرون حزبيهما داخل رومة وخارجها مما يحمل نبلاء الحزبين على الدفاع عنهم . وهكذا تؤدي مطامح الأحبار إلى الخلافـــات والمنازعات بين النبلاء . وعندما جـــاء قداسة البابا ليو العاشر وجد الكنسة في وضع قوي للغـــاية ، ومن المأمول أنه سيكمل عن طريق طيبته وفضائله التي لا حد لها ، ما بدأه أسلافه البابوات بقوة السلاح ، فيجعل من البابوية قوة عظيمة ومهابة .

١٢

الأشكال المختلفة
للمتطوعة وجنود المرتزقة

بعد أن بحثت بإسهاب في الصفات التي يجب أن تتوفر في الإمارات التي جعلتها موضوعاً لدراستي ، وبعد أن بينت جزئياً عوامل تقدمها أو فشلها ، والأساليب التي لجا اليها الكثيرون للحصول على مثل هذه الدول ، أرى لزاماً علي أن أبحث بحثاً عاماً في الأساليب ، من دفاعية ومن هجومية ، التي يمكن أن تستعمل في أي منها . وقد أكدت سابقاً ضرورة قيام الأمير بإرساء قواعده بصورة طيبة ، وإلا فإن مصيره محتوم إلى الدمار والخراب . ولعل خير هذه القواعد بالنسبة لجميع الدول من قديمة أو حديثة أو مخضرمة ، هو أن يكون لها قوانين جيدة وأسلحة قوية ، والقوانين توجد حيث تتوفر الأسلحة القوية ، ولذا فلن أتحدث هنا عن القوانين ، بل ساقصر بحثي على الأسلحة .

وأود أن أقول ، إن القوات المسلحة التي يعتمد عليها الأمير في الدفاع عن ممتلكاته ، إما أن تكون خاصة به أو مرتزقة ، أو رديفاً أو مزيجاً . والمرتزقة والرديف قوات غير مجدية ، بل ينطوي وجودها على الخطورة . وإذا اعتمد عليهـــا أحد الأمراء في دعم دولته ، فلن يشعر قط بالاستقرار أو الطمأنينة ، لأن هذه القوات كثيراً ما تكون مجزأة ، وطموحة ؛ لا تعرف النظام ، ولا تحفظ العهود والمواثيق ، تتظاهر بالشجاعة أمام الأصدقاء ، وتتصف بالجبن أمـــام الأعداء . لا تخاف الله ، ولا ترعى الذمم مع الناس . والأمير الذي يعتمد على مثل هذه القوات ، قد يؤجل دمـــاره المحتوم ، إذا تأجل الهجوم الذي سيتعرض له . وهكذا فإن هذا الأمير يتعرض أيام السلم للنهب من المرتزقة ، وفي أيام الحروب للنهب من العدو . ولعل العامل في هذا ، هو افتقار المرتزقة إلى الولاء ، أو إلى أي حافز آخر من الحب يحملهم على الصمود في ميدان القتال، باستثناء الراتب الطفيف الذي يتقاضونه، وهو أقل شأناً من أن يحملهم على التضحية بأرواحهم في سبيلك . وهم على استعداد تام ليكونوا جنوداً لك، طالما أنك لا تثير حرباً أو تشترك في حرب ، أما إذا جاء القتال فإنهم إما أن يعمدوا إلى الهرب أو إلى رفض القتال كلية . ولا أرى نفسي في حاجة إلى سرد الأمثال ، إذ أن هذا الدمار الذي لحق بايطاليا ، والذي نشهده الآن ، نجم عن شيء واحد ، وهو اعتمادها سنوات طويلة على جيوش المرتزقة . ولا ريب في أن هذه الجيوش قد ساعدت بعض الأفراد ، على الوصول إلى الحكم ،

وأبدت شجاعة باسلة ، إذا ما قورنت ببعضها البعض . ولكن عندما جاء الغزاة الأجانب ، برهنت هذه القوات على عدم جدواها . وهكذا أتيح للملك شارل الفرنسي ، احتلال ايطاليا دون أية مقاومة . وكل من يعزو ذلك إلى جرائرنا يقول الحق والصدق . ولكن هذه الجرائر ليست هي ما يعنيه القائلون ، وإنما هي تلك التي سردتها . ولما كانت من فعل الأمراء ، فقد عانى هؤلاء من العقاب الذي فرضته الجرائر نفسها .

وساوضح بالتفصيل عيوب هذه الجيوش . فقادتها إما أن يكونوا رجالاً في منتهى الكفاءة ، أو في منتهى العجز . وإذا كانوا من الأكفاء ، فعلاً ، فليس في وسعك الاعتماد عليهم لأنهم سيتطلعون دائماً إلى تحقيق أمجادهم الشخصية ، أمـــا عن طريق اضطهادك أنت ، سيدهم ، أو اضطهاد الآخرين ، عاصين في ذلك أوامرك . أما إذا كان القائد عاجزاً ، فسيكون السبب المباشر في دمارك . وإذا قال إنسان في معرض الرد على حديثي ، إن هذا هو السبيل المحتوم لكل من يملك قوات مسلحة ، سواء أكانت من المرتزقة أم لم تكن ، أجبت بأن الجيوش يستخدمها عادة إما الأمير أو الحكومة الجمهورية . وعلى الأمير أن يتولى القيادة بنفسه ، كما أن على الجمهورية أن تختار أحد مواطنيها لتولي هذه القيادة ، فإذا ثبت عجزه ، وجب عليها استبداله فوراً ، أما إذا برهن عن كفاءة وجدارة فعليها أن تحدد سلطاته ضمن نطاق القانون . وقد علمتنا التجارب أن الامراء ، والجمهوريات المسلحة ، هي

التي تحقق التقدم ، بينما لا ينتج عن المرتزقة إلا الأذى ، كما علمتنا أيضاً أن الجمهوريات المسلحة تكون أقل إذعاناً لحكم أحد أبنائها من الجمهورية التي تعتمد على الجيوش الأجنبية .

وقـــد تمتعت رومة واسبرطة قروناً عديدة بالحرية . وكانت لهما جيوشهما القوية . وتتمتع المدن السويسرية الحسنة التسلح بالكثير من الحرية أيضاً . ولعل خير ما نضربه من مثل على قوات المرتزقة ، ما حدث في قرطاجة ، حيث اضطهد جنود المرتزقة أهلها ، بعد انتهاء الحرب الاولى مع الرومان، وعلى الرغم من وجود قرطاجي في قيادتها . وفي اليونان اختار أهل طيبة فيليب المقدوني قائداً لقواتهم العسكرية بعد موت ايبا مينونداس . وبعد أن حقق انتصاره الأول ، حرمهم من حريتهم . واستأجر اهل ميلان ، بعـــد موت الدوق فيليب ، فرنسيسكو سفورزا لمحاربة البنادقة ، ولكنه بعد أن انتصر عليهم في معركة سرافاجيو ، تحالف مع البنادقة على أهل ميلان ، الذين استأجروه . وكان والد سفورزا هذا ، وهو جندي أيضاً ، يعمل في خدمة جيوفانا ملكة نابولي ، فتخلى عنها فجأة تاركاً إياها دون أية قوة عسكرية ، مما أرغمها على الارتماء في أحضان ملك الآراغون . وإذا كان البنادقة والفلورنسيون قد وسعوا ممتلكاتهم بواسطة قوات كهذه في الماضي ، وإذا كان قادة هذه القوات لم يغتصبوا الامارة ، بل دافعوا عن الأمراء القائمين على الحكم ، فإني أقول إن الحظ في هذه الناحية قد خدم الفلورنسيين ، لأن القادة الذين كان يتحتم عليهم أن يخشوهم ، لم

يحاولوا السيطرة ، والبعض منهم الذي حاولها ، قوبل بمقاومة عاصفة ، بينما وجه البعض الآخر مطامحه ناحية اخرى . وكان السير جون هوكوود هو القائد الذي لم يحاول السيطرة ، مع العلم إن اخلاصه لم يظهر ، لأنه لم ينتصر . ولكن الجميع يعترفون ، بأنه لو حاول فرض سيطرته على فلورنسة ، لوقع الفلورنسيون تحت رحمته . أما سفورزا فقد واجه دائماً معارضة « البراكيشي » ، وهذه المعارضة هي التي قدر لهـا أن تكبح جماحه بينما وجه فرانسيسكو مطامحه إلى لومبارديا ، وبراشيو إلى الكنيسة ومملكة نابولي .

ولكن دعونا نستعرض ما وقع قبل فترة وجيزة . لقـد اختار الفلورنسيون باولو فيتيلي ، قائداً لجيوشهم، وهو رجل يتمتع بالفراسة وحسن التبصر ، فارتفع عن طريقهما من مركز متواضع ، إلى أعلى الدرجات . وإذ كان باولو قد سيطر على بيزا ، فليس في وسع أحد أن ينكر حاجة الفلورنسيين إلى صداقته، إذ لو أضحى في خدمة أعدائهم، فلن تتوفر لهم السبل لمقاومته ، ولو استأجروه ، لأصبحوا مرغمين على إطاعته . أما البنادقة ، فإذا درسنا ما أحرزوه من تقدم ، تبين لنا ، أنهم خطوا بثبات وطمانينة ونجاح ، عندما كانوا يعتمدون في حروبهم على قواتهم ، أي قبل أن يبدأوا في تحقيق مشاريعهم في البر الايطالي ، وحاربوا بشجاعة ، متكلين على نبلائهم وشعبهم المسلح ، ولكنهم عندما شرعوا يقاتلون في البر تخلوا عن هذه الفضيلة ، وأخذوا يحذون حذو الاسلوب الايطالي المتبع ولم يكن لديهم ما يخافونه في بداية فتوحاتهم

من قادة جيوشهم ، إذ أن ممتلكاتهم لم تكن واسعة ، وكانت سمعتهم في منتهى العلو ، ولكن بعد اتساع رقعة هذه الممتلكات ، ولا سيما بقيادة كرماغنولا ، تبين لهم الخطأ الذي وقعوا فيه، وأدركوا أنه قد أضحى في منتهى القوة ، بعد أن انتصر على دوق ميلان ، ولما كانوا يعرفون ، إنه كان فاتر الهمة في الحرب من أجلهم . اعتقدوا بوجوب عدم القيام بأية فتوحات جديدة تحت قيادته ، على الرغم من عدم رغبتهم ، أو من عجزهم عن فصله من خدمتهم ، مخافة أن يفقدوا ما حصلوا عليه . ووجدوا أخيراً أن الطريقة المثلى للخلاص منه هي إعدامه . وتولى قيادة جيوشهم بعده رجـــال أمثال بارتولومبو دابيرغامو ، وروبرتو داسان سيفيرينو، والكونت دي بيتيغليانو ، والخسارة من أمثال هؤلاء أكثر توقعاً من الكسب . وهذا مـــا حدث بالفعل في فاييلا حيث خسروا في يوم واحد ما كسبه البنادقة بالجهد والتعب في مدى ثمانية قرون ، وذلك لأن هذه القوات غالباً ما تكون بطيئة في الحصول على المكاسب ، وسريعة ومفاجئة إلى حد الإعجاز في تحقيق الخسائر . ولما كنت قد سردت هذه الأمثلة من ايطاليا التي يتحكم فيها المرتزقة منذ سنوات طوال ، فإني سأنتقل إلى الإفاضة في الحديث عنهم ، حتى إذا عرفنا الأصول التي ينتمون اليها وطريقة تقدمهم ، كان في وسعنا إيجاد العلاج اللازم لمشكلاتهم .

وعليك أن تفهم ، إنه في العصور المتاخرة ، عندما بدأت سلطة الامبراطورية تذوي في ايطاليا ، وأخذت البابوية ، تتوسع في سلطاتها

الزمنية ، كانت ايطاليا مجزأة إلى عدد كبير من الدول . وهبت مدن
كثيرة تثور على نبلائها الذين كانوا يستمدون سلطتهم من الامبراطور ،
ويتحكمون في شؤونها ، مخضعينها لاستعبادهم . وأخذت الكنيسة تشجع
هذه المدن الثائرة ، رغبة منها في توسيع سلطاتها الزمنية . وأضحى
أحد المواطنين في أكثر من مدينة أميراً عليها . وهكذا عندما سقطت
ايطاليا كلية في أيدي الكنيسة ، وفي أيدي بعض الجمهوريات ، كان
رجال الدين وغيرهم من المواطنين ، غير متعودين على حمل السلاح ،
فشرعوا يستأجرون الأجانب كجنود لخدمتهم . وكان أول من أدخل
هذه البدعة من المتطوعة ، البريجو دا كامو ، المواطن في روماننا . وكان
براشيو وسفوررزا ، اللذان أصبحا فيما بعد حكام ايطاليا ، من بين
الكثيرين الذين تدربوا على يديه ، وخلفهم جميع هؤلاء الذين ما زالوا
حتى اليوم يتولون قيادة جيوش ايطاليا ، حيث أثمرت شجاعتهم غزو
شارل الفرنسي لايطاليا ، ودوسها بأقدامه ، ووقوعها فريسة للويس ،
وتعرضها لطغيان فرناندو (الاسباني) ، وإذلال السويسريين . وكان
النظام الذي تبناه قادة المرتزقة في الدرجة الأولى يقوم على الرفع من
شأنهم عن طريق الحط من قيمة المشاة ، وقد قاموا بذلك ، لأنهم لا
بلاد لهم ، ولأنهم يعيشون على رواتبهم وما يكسبونه ، ولا يمكن لعدد
من جنود المشاة ، أن يكثروا من قوتهم العسكرية ، وهم أعجز من أن
يدفعوا رواتب لعدد ضخم منهم . ولهذا فقد اقتصروا على استخدام
الفرسان ، الذين رغم قلة عددهم يلقون التكريم الزائد ، ويتقاضون

الرواتب الكبيرة . وقد نظموا قواتهم على التقليل من شان المشاة ، حتى أن الجيش الذي يبلغ عدده نحواً من عشرين ألف جندي لا يزيد ما فيه من المشاة عن الألفين . واستخدموا أيضاً كل وسيلة ممكنة لحماية أنفسهم وجنودهم من المتاعب والمشقات والمخاوف ، متجنبين أن يقتلوا بعضهم البعض في المعارك ، وأن يقتصروا على أخذ الأسرى طمعاً في الفدية . وكانوا لا يهجمون على الحصون في الليل ، كما أن المقيمين في الحصون كانوا لا يهـــاجمون المقيمين في الخيام في جنح الظلام ، ولا يقيمون حول معسكراتهم أية أسلاك شائكة أو خنادق ، ولا يخوضون غمار القتال في الشتاء . وقد نصت أنظمتهم العسكرية على جميع هذه الأمور وتبنوها ، كما قلنا ، ليتجنبوا عن طريقها المتاعب والأخطار وهكذا حطوا من شان ايطاليا ، وألحقوا بها العبودية والانحطاط .

●

١٣

القوات الاضافية والمختلطة والاصلية

عندما يطلب انسان إلى جاره القوي ، أن يأتي لمساعدته والدفاع عنه بقواته العسكرية ، فإن هذه القوات تسمى « إضافية » ، وهي تشبه في عدم جدواها ، قوات المرتزقة. وقد قام البابا يوليوس بمثل هذا العمل في الآونة الأخيرة عندما رأى الفشل الذريع الذي منيت به قواته المرتزقة في مشروعه لاحتلال فيرارا فلجأ إلى القوات الاضافية وأعد ترتيباً مع فيرناندو ملك اسبانيا ، لمساعدته بجيوشه . وقد تكون هذه الجيوش ، جيدة في حد ذاتها ، ولكنها دائماً شديدة الخطورة على من يستعين بها ، لأنها إذا خسرت ، فانت المهزوم ، وإذا انتصرت ، فقد غدوت أسيرها . ولن أبعد كثيراً عن المثل الذي أوردته والمتعلق بالبابا يوليوس الثاني ، إذ ما زال حديث العهد . ولا ريب أن السبيل الذي اختطه كان بعيداً جداً عن الفطنة ، فقد دفعتـــه رغبته في احتلال

فيرارا إلى الإذعان كلياً لسيطرة الأجنبي الدخيل . ولكن حسن حظه فقط خلق سبباً ثالثاً ، حال دون أن يحصد نتائج سياسته السيئة ، إذ عندما هزمت قواته الاضافية في رافينا ثار السويسريون ، وطردوا المنتصرين ، خلافاً لكل ما توقعه هو أو الآخرون ، وهكذا نجا من الوقوع في أسر الأعداء الذين أركنوا إلى الفرار ، وفي أسر قواته الاضافية ، التي انتصرت ، لا بفضل سلاحها بل بفضل سلاح غيرها ولما كان الفلورنسيون يفتقرون إلى القوات العسكرية فقد استأجروا عشرة آلاف فرنسي لمهاجمة بيزا ، فعرضوا أنفسهم بذلك إلى خطر أبلغ مما تعرضوا له في أية فترة من فترات كفاحهم. واضطر امبراطور القسطنطينية ، رغبة منه في مقاومة جيرانه ، إلى إرسال عشرة آلاف جندي تركي إلى اليونان . وبعد أن انتهت الحرب ، رفض هؤلاء العودة . فبدأت العبودية الطويلة ، التي عاشتها اليونان في ظل الكفرة (كذا)

وقد يكون من سوء البصيرة . لمن لا يرغب في الاحتلال ، أن يستخدم هذه القوات ، إذ أنها أكثر خطورة من المرتزقة ، لأن الدمار معها غالباً ما يكون كاملاً ، فهذه القوات تكون متحدة ، وهي تدين بالطاعة والولاء للآخرين ، بينما بالنسبة إلى المرتزقة ، إذا تحقق لهم النصر ، فسيمضي وقت طويل ، قبل أن يتمكنوا ـ هذا إذا حالفهم الحظ ـ من إلحاق الأذى بك ، ذلك لأنهم لا يؤلفون كياناً واحداً ، ولأنهم يرتبطون بك بوصفك المستأجر لهم ، والدافع لرواتبهم ، ولن

يكون في مكنة شخص ثالث اخترته لقيـــادتهم ، أن يحصل فوراً على السلطة اللازمة والكافية لإلحاق الأذى بك . وبكلمة أخرى ، فإن الخطر الأكبر عند المرتزقة يقوم في جبنهم وترددهم في خوض المعارك، بينما يقوم خطر القوات الإضافية في شجاعتها وجرأتها .

ويتجنب الأمير العاقل مثل هذه القوات ، ويعتمد فقط على قواته الخاصة وهو يؤثر ، أن يخسر المعارك بقواته على أن يكسبها بقوات سواه . واثقاً من أن النصر الذي يتحقق بفضل القوات الأجنبية لا يمكن أن يعتبر نصراً . ولن أتردد في أن أروي هنا على سبيل المثال قصة قيصر بورجيا وأعماله . فقد اقتحم هذا الدوق مقاطعة رومانا بقوات إضافية أجنبية تتألف في كليتها من الفرنسيين ، وتمكن بواسطة هذه القوات من احتلال ايمولا وفورلي . ولكنه لما بدا له ما في وجود هذه القوات من خطر عليه ، لجأ إلى المرتزقة على اعتبار أن الاعتماد عليهم ، سياسة لا تنطوي على الكثير من الخطورة ، واستأجر قوات الأورسيني والفيتّلي . وبعد أن وجد هذه القوات ، صعبة المراس ، ولا يؤمن لها وتؤلف خطراً عليه ، قضى عليها واعتمد على القوات التي ألفها بنفسه . ولا ريب في أن نظرة نلقيها على الفرق بين مكانة الدوق عندمـــا كان يعتمد على القوات الفرنسية ، ومن ثم على قوات الأورسيني والفيتيلي ، والمكانة التي وصل اليها عندما اعتمد على نفسه وعلى جنوده ، تكفي لإلقـــاء ضوء على الفرق بين هذه القوات ، فسمعته أخذت في التزايد باستمرار ، ولم يضـــاهه أحد في الاحترام

والاعتبار ، عندما رأى الجميع أنه قد غدا السيد المطلق لقواتـــه العسكرية .

وعلى الرغم من أنني لا أريد الابتعاد عن الأمثلة المستقاة من تاريخ ايطاليا الحديث إلا أنني لا يسعني تجاهل هيرو السيراقوزي ، الذي سبق لي الحديث عنه في فصول هذا الكتاب . فهذا الرجل كما قلت ، اختير قائداً لجيش سراقوسه ، وأدرك فور اختياره ، عدم جدوى قوات متطوعته، التي كانت منظمة على غرار قوات المرتزقة الايطالية، ولما كان قد أدرك أيضاً ، الخطر في الاحتفاظ بها أو تسريحهـــا فقد أقدم على تمزيقها شر تمزيق ، وأخذ بعد ذلك يخوض ميـــادين القتال معتمداً على جيوشه لا على جيوش الآخرين . وسأستعيد إلى الذاكرة أيضاً قصة معبرة كل التعبير من العهد القديم « التوراة » ، توضح هذه النقطة خير ايضاح . فعندمـــا عرض داوود على شاوول ، أن يمضي لمحاربة البطل الفلسطيني جوليات ، قدم له شاوول ، رغبة منه في تشجيعه سلاحه ودروعه فقام داوود بتجربتها ، ثم رفض استخدامها معتذراً بعجزه عن استعمالها في القتال ، ومفضلاً مواجهة العدو بمقلاعه وخنجره . وبالاختصار فإن أسلحة الآخرين إما أن تخيّب ظنك أو تفشل ، أو تحملك ما لا طاقة لك به ، أو تشل حركتك في القتال . وبعد أن تمكن الملك شارل السابع والد الملك لويس الحادي عشر ، بفضل حسن طالعه وشجاعته من تحرير فرنسا من الانكليز ، أدرك ، الحاجة إلى التسلح بقواته العسكرية الخاصة وأقام من مملكته نظاماً ،

للتجنيد ولقوات المشاة . ومـــا عتم ولده الملك لويس أن ألغى فرق المشاة وبدأ يستأجر المحاربين ، السويسريين ، وهي خطيئة وقع فيها ، وتبعه الآخرون في احتذائها ، مما سبب كما نرى الآن ، خطراً كبيراً على المملكة . فاضفاء مثل هذه الأهمية على السويسريين ، قد أضعف من معنويات الجنود الفرنسيين ، لا سيما وقد ألغى فرق مشاتهم . وأخضع محاربيهم الآخرين لمساعدة الأجانب ، الذين بدأوا يعتقدون بعجزهم عن خوض أية معركة إذا لم تكن القوات السويسرية إلى جانبهم . ومن هذا أضحى الفرنسيون أضعف من أن يقاوموا السويسريين ، وبات الإقدام على أية مغامرة عسكرية ضد الآخرين أمراً مستحيلاً إذا لم يكن السويسريون إلى جانبهم . وهكذا أصبحت جيوش فرنسا خليطاً ، من المرتزقة ومن رجالها ، وهي أحسن من القوات المؤلفة كلياً من المرتزقة أو من الأجانب ، ولكنها في الوقت نفسه أضعف من القوات الوطنية الأصلية .»

وأرى في هذا المثال الذي سردته ما يكفي ، إذ لو طور النظام العسكري الذي وضعه شارل أو لو احتفظ به على الاقل ، لأصبحت فرنسا قوة عسكرية لا تغلب . ولكن النـــاس المفتقرين إلى الحكمة وحسن البصيرة ، كثيراً ما يقبلون على ابتكار الامور الجديدة . فيستسيغون مذاقها من البداية ، ولا يلاحظون ما فيها من سم زعاف في النهاية . كما سبق لي أن أوردت ، بصدد الحمّيات المهلكة .

ولا ريب في أن الأمير ، الذي يعجز تبعاً لذلك ، عن إدراك ما

يقع في دولته من مشاكل عند وقوعها ، إنسان تعوزه الحكمة الصادقة ، ولعل القليلين من هم على هذه الشاكلة . وإذا درسنا السبب الأول ، من زوال الامبراطورية الرومانية تبين لنا انه ناجم ، عن استئجار رومة لمتطوعة القوط إذ بدأ الضعف منذ ذلك التاريخ ، ينسل إلى قوة رومة وعظمتها ، لأن القوط أخذوا يستاثرون بجميع المنافع التي تغدقهـا الامبراطورية على العاصمة .

وأود أن أصل إلى النتيجة وهي أن الأمير الذي لا يعتمد على قواته الخاصة لا يشعر بالطمأنينة والسلامة ، فهو على العكس ، يعتمد كلية على حسن الطالـع . لافتقاره إلى الأساليب الصحيحة للدفاع في أوقات الأزمات . وقد أقر الحكماء دائماً ان ليس هناك أضعف من الانسان الذي يعتمد في قوته على قوة الآخرين . وقوات الانسان الخاصة هي تلك المؤلفة من مواطنيه ، أو من الذين يعتمدون عليه . وما عدا ذلك من قوات فهي إما أن تكون مأجورة أو أجنبية اضافية. ومن السهل، تعلم الطريقة في تنظيم مثل هذه القوات الخاصة، اذا درست الأساليب التي اتبعها الامراء الأربعة الذين ورد ذكرهم في هذا الفصل ، أو درست الطرق التي اتبعها فيليب والد الاسكندر الكبير ، أو غيره من السلاطين والجمهوريات في تنظيم قواتها.ولا أراني محتاجاً الى التوسع في هذه النقطة بالذات بعد أن أوردت الأمثلة المذكورة .

١٤

واجبات الامير تجاه المتطوعة

على الأمير أن لا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها ، وأن لا يفكر أو يدرس شيئاً سواها ، إذ أن الحرب ، هي الفن الوحيد الذي يحتاج اليه كل من يتولى القيادة . ولا تقتصر هذه الفضيلة القائمة فيها ، على المحافظة على أولئك الذين يولدون امراء ، بل تتعداها إلى مساعدة الآخرين ، من أبناء الشعب ، على الوصول إلى تلك المرتبة . وكثيراً ما يرى الانسان ، ان الأمير ، الذي يفكر بالترف أو الرخاء ، أكثر من تفكيره بالسلاح ، كثيراً ما يفقد امارته . ولا ريب في ان ازدراء فن الحرب ، هو السبب الرئيسي في ضياع الدول وفقدها، وان التمرس فيه واتقانه ، هو السبيل إلى الحصول على الدول والامارات .

وقد ارتقى فرانسيسكو سفورزا ، بفضل سلاحه ، من إنسان عادي ، إلى منصب دوقية ميلان ، ولكن أبناءه ، رغبة منهم في تجنب

متاعب الحرب ومصاعبها ، هووا من مرتبة الامارة إلى مرتبة المواطنين العاديين . ولعل بين الشرور التي يؤدي إليهـا الافتقار إلى السلاح ، تعريضك للمهانة والاحتقار ، وهو أمر يحط من قيمة الانسان ، وعلى كل أمير أن يتجنبه كما سنوضح ذلك فيما بعد. ولما كانت المقارنة معدومة بين الانسان المسلح وبين غير المسلح ، فليس من المعقول أن نفترض ان المسلح ، يستطيع بمحض ارادته ، أن يخضع لغير المسلح ، أو ان الأعزل سيكون أميناً بين أتباعه المسلحين . فهذا التابع يحتقره سيده . وذاك يشك في ولاء تابعه ، وهكذا ينعدم الانسجام بينهما ، ولهذا فان الأمير الجاهل بالمسائل العسكرية يتعرض بالاضافة إلى ما أوردته من مصائب ، إلى احتقـار جنوده ، بينما يشك هو بدوره في ولائهم واخلاصهم .

فعلى الأمير تبعاً لذلك ، أن لا يسمح لأفكاره بأن تذهب بعيداً عن مراس الحرب ، وعليه في أيام السلم أن يكون أكثر اهتماماً بها من أيام الحرب ، وهذا ما يستطيعه بواسطة أحد سبيلين هما العمل والدراسة . فمن ناحية العمل يتوجب عليه بالإضافة إلى الإبقاء على جنوده في حالة من التدريب والنظام ، أن يشغل وقته باستمرار في الصيد . وأن يعود جسمه على المشاق ، وأن يدرس في غضون ذلك طبيعة البلاد . كارتفاع الجبال ، وعمق الوديان ، وامتداد السهول وطبيعة الأنهار والمستنقعات . أجل عليه أن يعنى بجميع هذه الامور ، بالغ العناية ، فمعرفته هذه مجدية بطريقتين : أولهما ، أن يعرف الانسان كل شيء عن

بلاده وأن يقرر أحسن السبل للدفاع عنها. وثانيهما، ان معرفته وتجاربه في منطقة واحدة تحمله على تفهم المناطق الاخرى التي يضطر الى مراقبتها بسهولة . ذلك لأن الجبال والوهاد والسهول والأنهار في تسكانيا ، مثلاً، تشبه إلى حد ما نظائرها في الامارات الاخرى . وهكذا يستطيع المرء عن طريق معرفته باحدى المناطق، أن يعرف أحوال المناطق الاخرى. والأمير الذي يفتقر إلى هذه الموهبة ، تنعدم فيه اولى الجوهريات التي يجب أن تتوفر في القائد ، إذ انها هي التي تعلمه كيف يجد عدوه، وأين يقيم معسكره ، وكيف يقود جيوشه ، ويخطط لمعاركه ، ويفرض الحصار على المدن ، آخذاً الفوائد إلى جانبه .

وقد كال الكتاب والمؤرخون، المديح على فيلوبومين، أمير الآخيين، لأنه في أوقات السلم كان لا يفكر بشيء آخر سوى الحرب وأساليبها ، وكان عندما يذهب إلى الريف مع أصدقائه ، كثيراً ما يقف ليسألهم : إذا كان العدو على ذلك التل ، ورأينا أنفسنا هنا مع جيشنا ، فلمن تكون ميزة الموقع ؟ وكيف نستطيع أن نتقدم لنصل اليه بسلام ، محتفظين بنظام قواتنا ؟ وإذا رغبنا في الانسحاب فماذا يتحتم علينا أن نفعل ؟ وإذا انسحب العدو ، فكيف يتوجب علينا أن نلحق به ؟ وكان يضع أمامهم ، في الطريق ، جميع الاحتمالات التي قد تحدث لأي جيش ويستمع إلى آرائهم ، ويعطي رأيه سانداً اياه بالحجج والبراهين . وبفضل هذه الأفكار الدائمة كان يجد نفسه دائماً مستعداً لمواجهة أي حادث ، وهو على رأس جيوشه .

أما بالنسبة إلى العقل ، فعلى الأمير أن يقرأ التاريخ وأن يدرس أعمال الرجال البارزين ، فيرى اسلوبهم في الحروب ، ويتفحص أسباب انتصاراتهم وهزائمهم ، ليقلدهم في هذه الانتصارات ، ويتجنب الوقوع في الأخطاء التي أدت إلى الهزائم ، وأن يفعل ، كما فعل غيره من الرجال في الماضي ، من تقليد لشخص انهال عليه المديح والتمجيد وترك مآثره وأعماله مكسوفة للجميع ، وهو ما يقال أن الاسكندر الكبير قد فعله في تقليد أخيل ، وقيصر في تقليد الاسكندر ، وشيبيو في تقليد كورش. ولا ريب في أن كل من يقرأ حياة كورش كما كتبها اكزونوفون ، سيرى في سيرة شيبيو ، نجاحه في تقليد سلفه ، وكيف تقيد تماماً بصفات كورش التي عددها اكزونوفون ، والتي تنطوي على الرأفة والعطف والانسانية والتحرر الفكري .

وعلى الأمير العاقل أن يتبع أساليب مماثلة ، وأن لا يظل عاطلاً عن العمل في أوقات السلام ، بل يستخدمها بجد وجهد ، حتى إذا ما دارت عجلة الحظ وجدته متأهباً لمواجهة ضرباتها ، وقادراً على التغلب على كل صعوبة .

●

١٥

الامور التي يستحق عليها الرجال ، ولاسيما الامراء ، المديح او اللوم

علينا أن نرى الآن الطرق والقواعد التي يجب على الأمير أن يسير فيها بالنسبة إلى رعاياه وأصدقائه . ولما كان الكثيرون قد أسهبوا في الكتابة عن هذا الموضوع ، فإني أخشى أن تبدو كتابتي عنه غروراً مني لا سيما وإنني أختلف في هذا الموضوع خاصة ، عن رأي الآخرين . ولكن لما كان من قصدي أن أكتب شيئاً يستفيد منه من يفهمون ، فإني أرى أن من الأفضل أن أمضي إلى حقـــائق الموضوع بدلاً من تناول خيالاته ، لا سيما وأن الكثيرين قد تخيلوا جمهوريات وإمارات لم يكن لها وجود في عالم الحقيقة وأن الطريقة التي نحيا فيها ، تختلف كثيراً عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها ، وان الذي يتنكر لما يقع سعياً منه وراء ما يجب أن يقع ، إنما يتعلم ما يؤدي إلى دماره بدلاً ممـــا

يؤدي إلى الحفاظ عليه . ولا ريب في ان الانسان الذي يريد امتهان الطيبة والخير في كل شيء ، يصاب بالحزن والأسى ، عندما يرى نفسه محاطاً بهذا العدد الكبير من النـــاس الذين لا خير فيهم . ولذا فمن الضروري لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير ، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها ، وفقاً لضرورات الحالات التي يواجهها .

وإذا اهملت من جانبي ، تبعاً لذلك الحديث عن الامور المتعلقة بالامراء الخياليين ، وتناولت تلك التي تتعلق بالواقعيين ، فانني أقول : ان جميع الرجـال ولا سيما الامراء الذين يوضعون في مناصب رفيعة ، يشتهرون بمزايا معينة ، قد تكون سبباً في إضفاء المديح أو اللوم عليهم. وهكذا قد يعتبر أحد الامراء كريماً متحرراً بينما يعتبر الآخر بخيلاً شحيحاً (وقد آثرت استخدام هذا الاصطلاح التوسكاني) ، وقد يعتبر أحدهم ذا أريحية والآخر ذا شح وطمع ، أو قاسياً فظيعاً ، والثـــاني رحيماً . وقد يعتبر الأول ناكثاً لوعده والثـــاني وافياً به ، أو مخنثاً خائر العزيمة والآخر عنيفاً قوي الشكيمة ، أو ودوداً انسانياً والآخر متكبراً متعجرفاً ، أو داعراً فاسقاً والآخر نقياً طاهراً ، أو صريحاً والآخر ماكراً ، أو قاسياً والآخر ليناً أو جاداً والآخر هازلاً أو متديناً ورعاً والاخر كافراً ملحداً ، وهكذا دواليك ... واني لاعرف أن كل انسان يقر ويعترف ، ان من الصفات المحمودة في الأمير أن يتصف بجميع ما ذكرت من صفـــات ترمز إلى الخير ، ولكن لما كان من

المستحيل أن يمتلكها الانسان جميعاً وأن يتبعها ، لأن الأوضاع الانسانية لا تسمح بذلك ، فإن من الضروري أن يكون من الحصافة والفطنة بحيث يتجنب الفضائح المترتبة على تلك المثالب التي قد تؤدي به إلى ضياع دولته ، وأن يقي نفسه ما أمكن من تلك التي قد لا تؤدي إلى مثل هذا الضياع ، على أن يمارسها دون أي تشهير ، إذا لم يتمكن من التخلي عنها . وعليه أن لا يكترث بوقوع التشهير بالنسبة إلى بعض المثالب إذا رأى أن لا سبيل له إلى الاحتفاظ بالدولة بدونها ، إذ ان التعمق في درس الامور ، يؤدي إلى العثور على ان بعض الأشياء التي تبدو فضائل ، تؤدي إذا اتبعت إلى دمار الانسان . بينما هناك أشياء اخرى تبدو كرذائل ولكنها تؤدي إلى زيادة ما يشعر به الانسان من طمأنينة وسعادة .

١٦

السخاء والبخل

إذا ما عدنا الآن إلى اولى الصفات التي عددناها في السابق ، تبين لي ان من واجبي القول، ان من الخير أن يعتبر الانسان كريماً سخياً، ومع ذلك فان السخاء على النحو الذي يفهمه العالم ، قد يؤدي إلى إيذائك . إذ ان ممارسته على شكل فضيلة ، وبالطريقة الصحيحة ، لا تؤدي إلى معرفة الناس به ، وتجعله عرضة بالتالي ، لأن تتهم بالمثلبة المعاكسة . ولكن على الانسان الذي يرغب في اشتهار أمره بالسخاء بين الناس ، أن لا يتغافل عن أي نوع من أنواع العرض الذي ينطوي على التفخيم إلى أقصى الحدود ، حتى ان الأمير الذي تكون طبيعته من هذا النوع ، سيستنزف عن طريق هذه الوسائل جميع امكانياته ، وسيجد نفسه مضطراً في النهاية ، إذا أراد الاحتفاظ بشهرته في السخاء ، إلى فرض ضرائب ثقيلة على شعبه ، وأن يصبح مبتزاً ، وأن يقدم على كل عمل يؤدي إلى كسب المال . وإذا ما انحدر إلى مثل هذه

الحالة ، بدأ شعبه يكرهه ، وانفض عن احترامه نظراً لفقره، ويكون بسخائه قد أضر بالكثيرين في سبيل نفع الأقليـــة وسيشعر بأول اضطراب مهما ضؤل شانه ، ويتعرض للخطر بعد كل مجازفة . وإذا ما أدرك الأمير ذلك ، ورغب في تغيير نظام معاملته ، تعرض فوراً لتهمة الشح أو البخل .

وعلى الأمير ، تبعاً لذلك ، إذا كان يعجز عن ممارسة فضيلة الكرم دون المجازفة باشتهار أمره ، أن لا يتعرض إذا كان حكيماً عاقلاً ، على تسميته بالبخل . وسيرى الناس مع مضي الزمن ، إنه أكثر سخاء مما كانوا يظنون ، وذلك عندما يرون إنه عن طريق تقتيره أصبح يكتفي بدخله ، ويؤمن وسائل الدفاع اللازمة ضد كل من يفكر باشهار الحرب عليه ، ويقوم بمشاريع كثيرة دون أن يرهق شعبه ، ويكون بذلك كريمـــاً حقاً مع جميع أولئك الذين لا ياخذ منهم أموالهم وهم كثر للغاية ، وشحيحاً مع أولئك الذين لا يهبهم المال ، وهم قلة ضئيلة . وقد رأينا في عصرنا الأعمال العظيمة يحققها أولئك الذين يوصمون بالبخل . أما الآخرون فمصيرهم إلى الدمار . وعلى الرغم من أن البابا يوليوس الثاني قد اشتهر بالكرم واستعمل شهرته هذه في سبيل ارتقـــاء سدة البابوية ، إلا أنه لم يحاول الاحتفاظ بالكرم بعد ذلك ، ليؤمن الوسائل اللازمة لتمكينه من شن الحروب . وقد قام ملك فرنسا الحالي بشن عدد من الحروب دون أن يفرض على شعبه أية ضرائب استثنائية، لأنه غطى بتقتيره الماضي جميع النفقات الطارئة التي تعرض لها . ولو كان

ملك اسبانيا الحالي كريماً سخياً ، لما تمكن من إقحام نفسه في هذا العدد الكبير من المشاريع التي تكللت جميعها بالنجاح .

ولهذه الأسباب كلها ، على الأمير أن لا يكترث كثيراً باشتهـاره بالبخل ، هذا إذا رغب في تجنب سرقة شعبه ، وفي أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه ، وتجنب الفقر وما يرافقه من مهانة ، وأن لا يجبر نفسه مرغماً على سلب الناس أموالهم ، فالشح هو إحدى الرذائل التي تمكنه من أن يحكم . وإذا قيل أن قيصر ، قد حصل على الامبراطورية عن طريق سخائه ، أو إن الكثيرين غيره ، قد وصلوا إلى أعلى الرتب بالسخاء ، أو بتظاهره على الأقل ، فإني أرد على ذلك بقولي : إنك إما أن تكون أميراً، أو في طريقك إلى الإمارة. ويكون السخاء في الحالة الأولى مضراً ، أما في الثانية ، فمن الضروري حتماً أن يعتبرك الناس كريماً جواداً . ولقد كان قيصر أحد أولئك الذين تاقوا لسيادة رومة ، ولكنه بعد أن حقق لنفسه هذه السيادة ، لو عاش وما اعتدل في نفقاته ، لدمر تلك الامبراطورية تماماً . وإذا كان ثمة من يرد علي قائلاً ، إن هناك عدداً كبيراً من الأمراء ، حققوا أشياء عظيمة عن طريق جيوشهم ، وكانوا مع ذلك ، يعتبرون على غاية الجود والسخاء . فإنني أجيبهم قائلاً : إن الأمير إما أن ينفق ثروته الشخصية أو ثروة رعاياه أو ثروات الآخرين . وعليه في رأيي أن يوفر ثروته ، أما بالنسبة إلى الثروات الباقية فعليه أن لا يهمل ، أن يكون جواداً معطاءاً . ولا ريب في أن الجود ضروري للأمير الذي يزحف على رأس

جيوشه ، ويعيش على مـــا ينهبه ويسلبه ويحصل عليه من الفديات ويتصرف بأموال الآخرين ، إذ لو لم يكن سخياً لما تبعه جنوده . وقد تكون كريماً جداً وحقاً فيما لا يخصك أو يخص رعاياك كما فعل سيروس وقيصر والاسكندر، إذ أن انفاقك أموال الآخرين لا يقلل من شهرتك بل يرفع من قدرها ، بينما إنفاقك لأموالك ، يلحق بك الضرر . وليس هناك ما هو أشد ضرراً على نفسك من الجود والكرم . إذ باستعمالك له تفقد قدرتك على استخدامه ، وتصبح إما فقيراً وإما حقيراً ، أو إذا رغبت النجاة من الفقر تضحى نهاباً سلاباً ، يكرهك رعاياك . وعلى الأمير أن يتجنب قبل كل شيء ، أن يوصم بالحقـــارة ، أو يتعرض للكراهية، ولا ريب في أن الكرم سيقوده إلى إحدى هاتين النتيجتين . ولذا فمن الأفضل أن تكون بخيلاً ، فهذا يعرضك للتحقير دون الكراهية ، على أن تكون مرغماً بدافع الحـــاجة إلى أن تصبح لصاً سلاباً ، مما يعرضك للتحقير والكراهية معاً .



١٧

الرأفة والقسوة
وهل من الخير ان تكون محبوبا او مهابا

إذا ما استطردنا في حديثنا إلى الصفات الأخرى التي ذكرناها سابقاً ، فإني أرى أن على كل أمير أن يرغب ، في أن يعتبره رعاياه رحيماً لا قاسياً فظيعاً . ولكن عليه مع ذلك ، أن لا يسيء استعمال هذه الرحمة . وقد اعتبر قيصر بورجيا من القساة الغلاظ القلوب . ولكن قسوته ، جاءت بالنظام والوحدة إلى رومانا وفرضت عليها الاستقرار والولاء . وإذا أمعنا النظر في هذا الموضوع ، تبين لنا إنه كان أكثر رأفة من الشعب الفلورنسي ، الذي سمح رغبة منه في تجنب صفة القسوة والغلظة بتدمير بيستويا . ولذا على الأمير أن لا يكترث بوصمه بتهمة القسوة ، إذا كان في ذلك ما يؤدي إلى وحدة رعاياه وولائهم . ولو سردنا بعض الأمثلة لتبين لنا انه أكثر رأفة من أولئك

الذين يفرطون في الرقة ، فيسمحون بنشوب الاضطرابات التي ينجم عنها الكثير من سفك الدماء والنهب والسلب . ويتضرر من مثل هذه الأحداث عادة مجموع الرعية ، بينما لا تصيب الأحكام التي يصدرها الأمير إلا بعض الأفراد . ويستحيل على الأمير الجديد ، من دون الأمراء جميعاً ، أن ينجو من سمعة القسوة والصرامة ، ذلك لأن الدول الجديدة تتعرض دائماً للأخطار الكثيرة . ولقد قال فرجيل على لسان ديدو :

« على كل أمير ، أن يواجه الحالات الحرجة ومقتضيات الملك الجديدة باتخاذ التدابير المناسبة وحماية الملك بإقامة حراس على مسافات بعيدة » .

ومع ذلك ، عليه أن يكون حذراً ، في تصديق ما يقال له . وفي العمل أيضاً ، وأن لا يخشى من ظله الخاص به . وأن يسيطر بطريقة معتدلة ، يلفها حسن التبصر والانسانية حتى لا تؤدي به ثقته المفرطة، إلى الإهمال ، وعدم الاهتمام ، ويطوح به حياؤه إلى التعصب وعدم التسامح .

وهنا يقوم السؤال عمّا إذا كان من الأفضل أن تكون محبوباً أكثر من أن تكون مهاباً . أو أن يخافك الناس أكثر من أن يحبوك . ويتلخص الرد على هذا السؤال ، في أن من الواجب أن يخافك الناس وأن يحبوك ، ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين فإن من

الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك ، هذا إذا توجب عليك الاختيار بينهما ، وقد يقال عن الناس بصورة عامة ، انهم ناكرون للجميل ، متقلبون ، مراءون ميالون إلى تجنب الأخطار ، وشديدو الطمع . وهم إلى جانبك ، طالما إنك تفيدهم ، فيبذلون لك دمـــاءهم ، وحياتهم ، وأطفالهم ، وكل ما يملكون كما سبق لي أن قلت ، طالما إن الحـــاجة بعيدة نائية ، ولكنها عندما تدنو يثورون . ومصير الأمير ـ الذي يركن إلى وعودهم ، دون اتخاذ أية استعدادات اخرى ـ إلى الدمـــار والخراب . إذ أن الصداقة التي تقوم على أساس الشراء ، لا على أساس نبل الروح وعظمتها ، هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون امينة موثوقة ، وهي عرضة لأن لا تجدها في خدمتك ، في أول مناسبة . ولا يتردد الناس في الاساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوباً ، بقدر ترددهم في الاساءة إلى من يخافونه ، إذ أن الحب يرتبط بسلسلة من الالتزام ، التي قد تتحطم ، بالنظر إلى أنانية الناس ، عندما يخدم تحطيمهـــا مصالحهم ، بينما يرتكز الخوف على الخشية من العقاب وهي خشية قلما تمنى بالفشل .

ومع ذلك ، على الأمير أن يفرض الخوف منه ، بطريقة ، يتجنب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحب ، إذ أن الخوف وعدم وجود الكراهية قد يسيران معنا جنباً إلى جنب . وفي وسع الأمير الذي يمتنع عن التدخل ، في ممتلكات مواطنيه ورعاياه ، وفي نسائهم ، أن يحصل عليها. وعندما يضطر الأمير إلى سلب انسان حياته ، عليه أن يتوخى

المبرر الصالح والسبب الواضح لذلك ، ولكن عليه قبل كل شيء أن يمتنع عن سلب الآخرين ممتلكاتهم ، إذ أن من الأسهل على الانسان ، أن ينسى وفاة والده ، من أن ينسى ضياع ارثه وممتلكاته . ويضاف إلى هذا أن المبررات لمصادرة الممتلكات ، متوفرة دائماً . وكل من يبدأ في الحياة على النهب والسلب ، يجد مبرراً لسلب الآخرين ما يملكون . بينما أسباب القضاء على حياتهم أكثر ندرة وأسرع زوالاً .

ولكن عندما يكون الأمير مع جيشه ، وتحت تصرفه عدد كبير من الجنود ، فمن اللازم اللازب أن لا يكترث كثيراً فيما إذا أطلق الناس عليه لقب الصارم ، إذ بدون مثل هذه الشهرة يستحيل عليه الإبقاء على جيشه موحداً ، خاضعاً للنظام والواجب . وكانت هذه الصفة من الصفات البارزة في هانيبال ، إذ على الرغم من قيادته لجيش لجب يتألف من رجال من مختلف الجنسيات ، ويقاتل في بلاد أجنبية ، لم يقع أي نزاع بينهم ، أو يظهر أي عصيان للأمير ، لا في أوقات سعده ولا في فترات نحسه . ومثل هذا الوضع لا يمكن أن يعزى إلا لصرامته التي تنبو على حدود الانسانية، وهي إذا ما اضيفت إلى فضائله الاخرى التي لا حصر لها ، فقد جعلت منه دائماً انساناً مهاباً ومخيفاً في عيون جنوده ، ولو لم تكن فيه ، لما كانت فضائله الاخرى كافية لاحداث ذلك التاثير . ويميل الكتّاب الذين يفتقرون إلى التمكير ، إلى تمجيد أعماله من ناحية ، وإلى توجيه اللوم إلى العامل الرئيسي الذي كان السبب في هذه الأعمال .

ولا ريب في ان هذه الحقيقة التي ذكرت، من ان الفضائل الاخرى قد لا تكون كافية . وقد تبدو في قضية شيبيو (المشهور لا بالنسبة إلى عصره ، بل إلى جميع العصور التي تعيش فيها ذكراه) ، فقد ثارت عليه جيوشه في اسبانيا ، ولم تقم ثورتها إلا بسبب إغراقه في اللين واللطف ، مما أدى إلى السماح للجنود باشياء لا تتفق مع النظام العسكري . وقد وجه إليه فابيوس مكسيموس اللوم في ندوة مجلس الشيوخ على ذلك ، متهماً اياه بافساد المتطوعة الرومان . وكان أحد ضباط شيبيو قد انزل الدمار بلوكري ، فلم يثار هذا منه ، كما لم يعاقب شيبيو ضابطه على حماقته لافراطه في اللين . ومع ذلك ، فقد رغب الكثيرون في تبرير أعماله في مجلس الشيوخ وقالوا ، ان ثمة كثيرين يعرفون كيف لا يخطئون ، أكثر من معرفتهم كيف يصلحون أخطاء الآخرين . ومثل هذا الموقف كان كافياً لتشويه سمعة شيبيو لو عاش في ظل الامبراطورية ولكنه لما كان يعيش في ظل مجلس الشيوخ ، فان هذه الصفة المؤذية ، لم يقدر لها الاختفاء فحسب، بل قدر لها أن تكون مصدراً لمجده .

وانني لانهي القول تبعاً لذلك عن موضوع الحب والخوف قائلاً ان الناس يحبون تبعاً لاهوائهم وإرادتهم الخاصة ، ولكنهم يخافون وفقاً لاهواء الأمير وإرادته . والأمير العاقل هو الذي يعتمد على ما يقع تحت سلطانه لا تحت سلطان الآخرين ، وعليه فقط أن يتجنب الكراهية لشخصه كما سبق لي أن أوضحت .

١٨

كيف يتوجب على الامير ان يحافظ على عهوده

لا ريب في ان كل انسان يدرك ان من الصفات المحمودة للأمير ، أن يكون صادقـــاً في وعوده وأن يعيش في شرف ونبل **لا في مكر** ودهاء . لكن تجارب عصرنا أثبتت انـ الامراء الذين قاموا **بجلائل** الاعمال ، لم يكونوا كثيري الاهتمام بعهودهم والوفاء بها ، وتمكنوا بالمكر والدهاء ، من الضحك على عقول الناس وإرباكها . وتغلبوا أخيراً على أقرانهم من الذين جعلوا الأخلاص والوفاء رائدهم .

وعليك أن تدرك ان ثمة سبيلين للقتال . أحدهما بواسطة القانون والآخر عن طريق القوة.ويلجأ البشر إلى السبيل الاول أما الحيوانات فتلجأ إلى السبيل الثاني . ولكن لما كانت الطريقة الاولى غير كافية لتحقيق الأهداف عادة،فان على الانسان أن يلجأ تبعاً لذلك إلى الطريقة الثانية . ومن الضروري للأمير أن يعرف استخدام الطريقتين معاً ،

أي طريقة الانسان وطريقة الحيوان . وهذا ما نصح به قدماء الكتاب الحكام في الماضي ، مستشهدين بأخيل وغيره من الامراء الأقدمين الذين عهد بهم إلى شيرون القنطور الخرافي (حيوان) لتربيتهم وتعليمهم على نظامه . وهذا الرمز الخرافي ، نصف الانسان ونصف الحيوان قصد منه أن يشير إلى أن الأمير يجب أن يتعلم الطبيعتين الانسانية والحيوانية وان إحداهما لا يمكن أن تعيش بدون الاخرى .

وعلى الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان ، أن يقلد الثعلب والأسد معاً ، إذ ان الاسد لا يستطيع حماية نفسه من الاشراك ، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب . ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً ليميز الفخاخ وأسداً ليرهب الذئاب . وكل من يرغب في أن يكون مجرد أسد ليس إلا ، لا يفهم هذا . وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعوده عندما يرى ان هـــذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه ، وان الاسباب التي حملته على اعطـاء هذا الوعد لم تعد قائمة . ولو كان جميع الناس طيبين ، فان هـذا الرأي لا يكون طيباً ، ولكن بالنظر إلى أنهم سيئون ، وهم بدورهم لن يحافظوا على عهودهم لك ، فإنك لست ملزماً بالمحـــافظة على عهودك لهم . ولن يعدم الأمير الذي يرغب في إظهار مبررات متلونة للتنكر لوعوده ، ذريعة مشروعة لتحقيق هذه الغاية . وفي وسع الانسان أن يورد عدداً لا يحصى من الأمثلة العصرية على هذه الحقيقة ، وأن يظهر ، كم من المرات ، تنكر الأمراء لمواثيق السلام ، فنقضوا معاهداتهم ، وكم من

المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها ، وأن يبرهن على ان أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً قد نجحوا أكثر من غـــيرهم . ولكن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة ، أن يجيد إخفاءها عن الناس ، وأن يكون مداهناً كبيراً ، ومرائياً عظيماً . ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة ، ولذا فإن من يتقن الخداع ، يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته ،

وساكتفي بسرد مثل عصري واحد . فالبابا اليكساندر السادس لم يقم باي عمل سوى خـــداع الآخرين ، ولم يفكر باي شيء سوى ذلك. وكان يجد دائماً الفرصة للنجاح في خداعه . ولم يكن ثمة من يفوقه مهارة ، في تقديم الوعود ، وإغداق التأكيدات ، داعماً إياها بالأيمان المغلظة ، في الوقت الذي لم يكن هناك من هو أقل تمسكاً بها . ومع ذلك فقد نجح دائماً في خداعه ، إذ أنه كان يتقن هذه الطريقة في معالجة الأمور .

وليس من الضروري تبعاً لذلك ، بالنسبة للأمير ، أن يتصف بجميع ما أوردته من صفات ، ولكن من الضروري أن يتظاهر على الأقل بوجودها فيه . وقد أجرؤ فاقول إن حيازة هذه الصفـــات وتطبيقها دائماً قد يؤديان إلى تعرضه للأخطار . أما التظاهر بحيازتها

فكثيراً ما يكون أمراً مجدياً . وهكذا فمن الخير أن تتظاهر بالرحمة وحفظ الوعد والشعور الانساني النبيل والاخـــلاص والتدين ، وأن تكون فعلاً متصفاً بها ، ولكن عليك أن تعد نفسك ، عندما تقتضي الضرورة ، لتكون متصفاً بعكسها . ويجب أن يفهم ، ان الأمير ، ولا سيما الأمـــير الجديد ، لا يستطيع أن يتمسك بجميع هذه الأمور التي تبدو خيرة في الناس ، إذ أنه سيجد نفسه مضطراً للحفاظ على دولته ، لأن يعمل خلافاً للاخلاص للعهود ، وللرأفة والانسانية والدين . ولذا فإن من واجبه أن يجعل عقله مستعداً للتكيّف مع الرياح ، ووفقاً لما تمليه اختلافات الجدود والحظوظ ، وأن لا يتنكر لمــا هو خير ، كما قلت ، إذا أمكنه ذلك ، شريطة أن ينزل الاساءة والشر ، إذا مـــا اضطر إلى ذلك وضويق .

وعلى الأمير أن يكون حريصاً ، على أن لا يفضح نفسه بأقواله ، مما يتناقض مع هذه الصفات الخمس التي أشرت اليها . وعليه أن يجعل الناس يرون فيه ، ويسمعون منه الرحمة مجسدة ، والوفـــاء للعهود ، والنبل والانسانية والتدين . ولعل هذه الصفة الأخيرة ، هي أكثرها لزوماً وضرورة ، لأن الناس عموماً يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم، ولأن في وسع كل انسان أن يرى ، بينما لا يشعر إلا القليلون . فجميع الناس يرون ما تعمل، وكيف تبدو لهم ، أما القلة فيحسون حقيقتك، وستتردد هذه القلة في معارضة رأي المجموع، الذين يعتمدون على جلال الدولة في الدفاع عنهم . وفي أعمال جميع الناس ، ولا سيما الأمراء، وهي

حقيقة لا استثناء فيها ، تبرر الغاية الواسطة . وإذا استهدف الأمير مثلاً أن يحتل ، عليه أن يحافظ على الدولة التي احتلها ، فإن جميع الناس سيطرون عمله ، ويعتبرونه مثالاً للشرف ، إذ أن من عـــادة الدهماء أن تغرهم المظاهر ونتائج الأحداث . ويتألف العالم من الدهماء ، أما القلة الذين لا يعتبرون من الدهماء ، فهم معزولون عن الناس عندما يقرر المجموع شيئاً يرونه في أميرهم . وهناك أمير معين ، يعيش في عصرنا ، يحسن بنا أن نغفل ذكر اسمه ، جعل همه ، الدعوة إلى السلام والوفاء للمواثيق ، بينما هو في الحقيقة عدو لدود لهما ، ولو قدر له أن يرعى أحدهما ، لأضـــاع دولته وسمعته في كثير من المناسبات التي تعرض لها .

•

١٩

واجبنا تجنب التعرض للاحتقار والكراهية

لما كنت قد تحدثت عن أهم الصفات المتعلقة بهذا الموضوع ، فإنني ساتحدث الآن باختصار ، وبصورة عامة ، عن المتبقي منهـــا . ولقد سبق لي أن قلت ، إن على الأمير ، أن يتجنب كل ما يؤدي إلى تعرضه للاحتقار والكراهية . وعندما ينجح في ذلك يكون قد قام بدوره ، ولا يرى خطراً في الرذائل الاخرى . ولقد قلت انه يتعرض للكراهية بصورة عامة، إذا أصبح سلاباً نهاباً ، يغتصب ممتلكات رعاياه ونساءهم، وهو ما يجب أن نتجنبه . وعندما يتحاشى الأمير الاعتداء على أملاك عامة الناس وأعراضهم ، فإنهم يعيشون راضين قانعين ، ولا يتعرض الالمكافحة مطامع القلة من الناس الذين في وسعه ان يكبح جماحهم بمختلف السبل والوسائل . وقد يعتبر الامير دنيئا حقيرا اذا رأى الناس فيه تقلبـــه ، وتفاهته ، وتخنثه ، وجبنه ،واستخذاءه ، وهي

أمور يجب ان يقي الامير نفسه منها ، على اعتبار انها الصخرة التي تمثل الخطر ، وان يدبر امره بحيث تبدو من أعماله مخائل العظمة والحيوية ، والرصانة والجلد . أما بالنسبة إلى حكم رعاياه ، فعليه أن تكون أحكامه مبرمة لا تقبل النقض ، وأن يتمسك بقراراته ، فلا يسمح لانسان بخديعته أو الاحتيال عليه .

ويتمتع الأمير الذي يخلق لنفسه مثل هذه السمعة عند رعاياه بشهرة عظيمة ، ومن الصعب أن يتآمر الناس على صاحب الشهرة والصيت العظيمين ، كما ان من العسير أن يهاجم ، لا سيما وان من المعروف عنه القدرة ، واحترام رعيته له . وعلى الأمير أن يخاف من ناحيتين : الأولى داخلية وتتعلق برعيته ، والثانية خارجية وتتعلق بالدول الأجنبية . وفي وسعه أن يدفع عن نفسه عدوان الأجنبي بحيازة الأسلحة القوية والأصدقاء الخلص . ومثل هؤلاء الأصدقاء يكثرون ، إذا توفر له السلاح والقوة . وتظل الجبهة الداخلية دائماً هادئة ، إذا لم تخلق المؤامرات الاضطراب فيها ، ولم يقع عليها أي عدوان من الخارج . وحتى لو حاولت الدول الأجنبية مهاجمته ، فإنه يستطيع – إذا كان حكمه وحياته ، قد سارا على غرار ما قلت ، وإذا صمد بدوره في موقفه – أن يحتمل كل هزة ، كما فعل نابيس الاسبرطي، وفقاً لما ذكرت آنفاً . أما بالنسبة إلى الرعايا ، وحتى لو لم يتعرضوا لأي تاثير خارجي ، فإن الخطر يظل ماثلاً في تآمرهم عليه بصورة سرية، وهو ما يستطيع الأمير وقاية نفسه منه جيداً ، بتجنب التعرض

لكراهيتهم واحتقارهم ، والحفاظ على رضاهم من معاملته ، وهو ما يتحتم عليه فعله ، كما سبق وأوضحنا باسهاب ، في فصل سابق . ولعل خير علاج واق من المؤامرات أن لا يكون الأمير مكروهاً من جماهير شعبه ، إذ أن كل من يقدم على التآمر يخيل اليه أنه سيرضي الشعب بقتل الأمير ، أما إذا اعتقد أنه يسيء إلى الشعب بعمل كهذا ، فإنه سيتردد في إقحام نفسه في مشروع كهذا ، ذلك أن الصعوبات التي يواجهها المتآمرون لا عد لها ولا حصر . وتظهر لنا التجارب أن ثمة مؤامرات كثيرة ، جرت في الماضي ، ولكن القليل منها قد نجح . ذلك لأن المتآمر لا يستطيع أن يعثر على شركاء له ، إلا بين الناقمين الساخطين . وعندما تجهر بنواياك لانسان ناقم ، تقدم له الواسطة لإرضاء دخيلته ، لأنك بهذا الجهر قد بعثت في نفسه الأمل بالحصول على ما يريد ، وهو بهذا قد يقنع نفسه بمجرد العلم ، إذ أنه يرى في ذلك بعض الفوائد التي يتوقعها ، بينما يرى في اشتراكه العملي ، من الناحية الأخرى ، سبيلاً خطراً ينطوي على الشك . ولكي يشترك معك ، ويكون صادقاً في اشتراكه يجب أن يكون أحد اثنين ، إما صديق مخلص للغاية لك ، أو عدو لدود للأمير . ولأعرض الموضوع في بضع كلمات أقول : إن المتآمر لا يجد إلى جانبه إلا الخوف والحسد والريبة والفزع من العقاب الذي يلقي الرعب في قلبه ، بينما يجد الأمير إلى جانبه جلال الحكم والقانون ، وحماية الأصدقاء والدولة ، التي تقف على حراسته . وإذا ما أضفنا إلى ذلك حسن نية الشعب ، تبين لنا أن من

المستحيل لأي انسان أن يجد في نفسه القدرة على التهور في مؤامرة . إذ أن على المتآمر بصورة عامة أن يخشى قبل تنفيذ مؤامرته ، في مثل هذه الحالة ، عداء الشعب ، ولو قدر لجريمته النجاح أيضاً ، فهو لا يامل في العثور على ملجأ يقيه غضب الشعب .

وقد تكون الأمثلة على ذلك كثيرة ، ولكنني أكتفي بسرد حادثة وقعت في أيام آبائنا . فقد قتل المتأمرون من أسرة الكانيشي ، السيد هانيبال بنتفوغلي أمير بولونا ، وجد الأمير الحالي السيد هانيبال . ولم يكن للأمير القتيل أي أقارب إلا السيد جيوفاني الذي كان طفلاً ، ولكن شعب بولونا ثار عن بكرة أبيه وقتل جميع أفراد أسرة كانيشي. وبالطبع كان هذا الموقف ناجماً عما تتمتع به أسرة بنتفوغلي من حب الشعب وتاييده ، مما حمل هذا الشعب بعد قتل هانيبال ، وبعد عدم العثور على انسان من أسرته يتولى الحكم ، على البحث والتنقيب حتى عثر على شخص يعيش في فلورنسة ، كان والده حداداً، يمت إلى الأسرة بصلة القرابة ، فجاء به الشعب إلى المدينة وولاه حكمها ، حتى يبلغ الطفل جيوفاني سن الرشد ، ويتولى حكم مدينته .

وأستنتج من هذا ، تبعاً لذلك ، ان على الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات إذا كان الشعب راضياً عنه ، أما إذا كان مكروهاً ، ويحس بعداء الشعب له ، فإن عليه أن يخشى من كل انسان ومن كل شيء . وقد جرت عادة الدول المنظمة والأمراء العقلاء أن لا يدفعوا بالنبلاء إلى درجة الباس ، وأن يرضوا الشعب ، إذ أن هذا الموضوع ، من أهم المواضيع التي تتحتم على الامير العناية به .

ولا ريب في أن فرنسا ، هي من خيرة الدول تنظيماً وحكماً في عصرنا ، وإننا انجد فيها عدداً كبيراً من المؤسسات التي تعتمد عليها حرية الملك وسلامته ، وفي مقدمة هـــذه المؤسسات بالطبع ، البرلمان وسلطته . إذ أن الذي أقام تلك المملكة ، كان يعرف مطامع النبلاء العظام وحماقاتهم ، فرأى من الضروري تلهيتهم بشيء يضعونه في فمهم لكبح جماحهم . وقد أدرك من الناحية الأخرى ، ما تحملة جماهير الشعب من كراهية للنبلاء العظام ، ترتكز إلى الخوف . ورغبة منه في منحهم الطمأنينة ، أراد أن يجنب الملك ، جعل هذا الموضوع ، محل عنايته القصوى ، لينقذه مما قد يتعرض له من سخط النبلاء ، إذا أرضى الشعب ، ومن سخط الشعب إذا أرضى النبلاء ولهذا فقد أقام قاضياً ثالثاً ، لا يخضع لأوامر الملك مباشرة ، ويكبح جماح العظماء ، ويعطف على جماهير الشعب . وليست هناك من وسيلة أكثر حكمة من هـــذه الوسيلة ، ولا احتياطاً أجدى من هذا الاحتياط لتامين سلامة الملك والمملكة . وفي وسعنا أن نستخلص من هذا قاعدة بارزة ، وهي أن من واجب الامراء ، أن يعهدوا بالمهام التي يحبها الشعب إلى الآخرين ، وأن يقوم هو باغداق المنح والعطف . وأود أن أختم قولي ثانية بالتاكيد على أن من واجب الأمير أن يحترم النبلاء في مملكته ، شريطة أن لا يؤدي احترامه إلى كره رعاياه له .

وقد يبدو مع ذلك للبعض ، ان ثمة أمثلة مستمدة من تاريخ بعض باطرة الرومان وسير حياتهم وموتهم ، تخالف رأيي تماماً ، لا سيا وإن

عدداً من هؤلاء الأباطرة ، رغم معيشهتم النبيلة ، وما أظهروه من قوة الشخصية ، قد فقدوا السلطان ، أو قتلهم رعاياهم الذين تآمروا ضدهم .
ورغبة مني في الرد على هذه الاعتراضات ، سأتحدث عن صفات بعض الأباطرة مبرهناً على أن سبب انهيارهم لم يكن مختلفاً عما قررته من قواعد . وفي غضون ذلك ، سأدرس الامور التي تجب ملاحظتها ، على كل من يقرأ سجلات تلك الأيام . وسأكتفي بالحديث عن جميع الأباطرة الذين تولوا السلطان من عهد ماركوس الفيلسوف ، حتى عهد مكسيمنيوس ، وهم ماركوس وولده كومودوس ، وبرتيناكس ، وجوليانوس، وسيفيروس ، وانطونيوس وولده كراكالا ، وماكرينوس وهليوغابالوس ، واليكساندر ومكسيمينوس ، وأول شيء يجب أن نلاحظه في هذا الحديث، انه في الوقت الذي يتحتم على الامراء الآخرين فقط ، الاهتمام بمطامح العظام وغطرسة الشعب ، فقد كان على أباطرة الرومان أن يواجهوا صعوبة ثالثة ، وهي دعم ما يرتكبه الجنود من أعمال القسوة والطمع ، على ما هي عليه من شدة ، مما أدى إلى الاطاحة بالكثيرين من الأباطرة ، إذ تعذر عليهم إرضاء جنودهم وشعبهم في وقت واحد . فالشعب يحب عادة الهدوء ، ويميل تبعاً لذلك إلى الامراء المسالمين ، بينما يفضل الجنود الأمير ذا الروح العسكرية ، الذي يتميز بالغطرسة والصرامة والميل إلى السلب . وهم يريدون منه أن يطبق هذه الصفات على شعبه حتى يحصلوا على مرتبات مضاعفة ، وحتى يمكن لهم أن يجدوا متنفساً لمطامعهم وقسوتهم. وهكذا فإن أولئك الأباطرة ،

الذين لم يتمتعوا ، بفضل طبيعتهم أو كفاءتهم بالسمعة الكافية ، لكبح جماح الفريقين ، كان مصيرهم الخراب ، وكان الكثيرون منهم ، ممن ارتفعوا إلى مرتبة الامبراطور ، قد اقتصروا على محاولة إرضاء جنودهم ، ولم يفكروا إلا قليلاً بايذاء شعبهم ، ذلك لأنهم كانوا حديثي العهد بهذا المنصب ، وإدراكاً منهم لما قد ينجم عن هذين الميلين المتضاربين من مصاعب ومشاق . وكان من المحتوم عليهم أن يختاروا ، إذا كان من المتعذر عليهم ، تجنب إغضاب أحد الفريقين والتعرض لكراهيته . وكان عليهم أولاً أن يلجأوا إلى كل وسيلة ممكنة لتجنب التعرض لكراهية جماهير الشعب، ولكنهم إذا عجزوا عن تحقيق ذلك، فقد كان عليهم تجنب كراهية أقوى الفريقين وأهمهم شأناً . ولذا فإن هؤلاء الاباطرة ، بالنظر إلى حداثة عهدهم في منصبهم ، شعروا بحاجتهم إلى الكثير جداً من العطف الاستثنائي ، فتعلقوا بجنودهم بدلاً من شعبهم . أما جدوى هذه السياسة أو فشلها فيعتمدان ، على ما إذا كان الأمير يعرف كيف يحتفظ بسمعته ، أمام جنوده . ولهذه الأسباب ، فإن ماركوس وبيرتينكس واليكساندر، بالنظر إلى حياتهم المتواضعة ، وحبهم للعدالة ، وعدائهم للقسوة والغلظة ، وانسانيتهم ، وميلهم إلى الخير ، كلهم انتهوا إلى نهاية محزنة باستثناء ماركوس ، الذي عاش ومات محتفظاً بشرفه ، ذلك لأنه ارتقى سدة الامبراطورية عن طريق حقه الوراثي ، ولم يكن مديناً بشيء لا إلى جنوده ولا إلى شعبه ، يضاف إلى هذا أنه كان يتمتع بفضائل عدة جعلت منه امبراطوراً

محترماً ، فاوقف كلا من الفريقين عند حده ، طيلة حياته، ولم يتعرض بانها لأية كراهية أو زراية . أما بيرتينكس فقد انتخب امبراطوراً رغم إرادة الجنود الذين ألفوا حياة الفجور، في عهد سلفه كومودوس، ولذا فقد شق عليهم ، أن يعيشوا حياة الشرف التي أراد بيرتينكس فرضها عليهم ، وهكذا عرض نفسه لكراهيتهم . فإذا ما أضفنا إلى هذه الكراهية شعور الزراية الذي يحسون به تجاهه لكبر سنه ، فقد قضي عليه في بداية عهده .

ومن هذا يبدو أن الكراهية قد تنجم عن الأعمال الطيبة بقدر ما تنجم عن الأعمال الشريرة . ولذا يتوجب ، كما قلت سابقاً ، على الأمير الذي يرغب في الحفاظ على دولته أن يرتكب الشر أحيانا ، إذ عندما يكون الفريق الذي تعتقد بضرورته للحفاظ على مركزك ، سواء أكان فريق الشعب أو الجنود أو النبلاء فاسداً ، فعليك أن تسير مع التيار ، وأن تعمل على إرضائه وفي مثل هذه الحالة تكون الأعمال الطيبة مؤذية ومضرة . ولننتقل الآن إلى الحديث عن اليكساندر ، فقد كان في منتهى الطيبة. ومما يروى عن فضائله الكثيرة التي كانت موضع الاطراء ما قيل من أنه في فترة الأربعة عشر عاما من حكمه ، لم يقض على أي إنسان بالموت إلا بعد محاكمة عادلة . ومع ذلك فقد اعتبر مخنثا ، لأنه سمح لأمه بالتحكم فيه . وهكذا هبط إلى مستوى الزراية والاحتقار ، فتآمر عليه الجيش وقتله

وإذا درست من الناحية الثانية صفات كومودوس وسيفيروس وانطونيوس وكاراكلا ومكسيمينوس ، تبين لك أنهم كانوا في منتهى الغلظة والجشع ، ولم يتورعوا ، في سبيل إرضاء جنودهم ، عن إلحاق أي أذى بأفراد شعبهم ، ومع ذلك فقد انتهوا جميعا ، باستثناء سيفيروس ، نهاية سيئة . أما هذا فقد توفرت له كفاءات جمة ، مكنته من الابقاء على صداقة جنوده ، والحكم في منتهى السعادة ، على الرغم من اضطهاده لشعبه ، ذلك لأن فضائله جعلته موضع الإعجاب ، عند جنوده وشعبه على حد سواء ، فقابله الأولون بالإجلال والرضى ، والآخرون بالدهشة والبلادة .

ولما كانت أعمال هذا السلطان عظيمة وبارزة ، بالنسبة إلى أمير محدث ، فسأعرض بايجاز ، كيف تمكن من أن يجمع بين صفات الثعلب والأسد وهي صفات سبق لي أن قلت أنها يجب أن يقلدها كل أمير . فقد عرف سيفيروس ، وكان يقود الجيش الروماني في سلافونيا ، بما عليه الامبراطور جوليانوس من كسل وتراخ ، فاقنع جنوده ، بأن من الخير أن يذهبوا إلى رومة للثأر لمقتل الامبراطور بيرتنكس ، الذي ذبحه رجال الحرس البريتوري ، وبهذه الذريعة ودون أن يكشف عن مطامعه في العرش ، زحف على رأس جيشه إلى رومة ، فوصل إلى ايطاليا ، قبل أن ينتشر نبأ مغادرته لسلافونيا . وعندما وصل إلى رومة انتخبه مجلس الشيوخ امبراطوراً ، خوفاً منه وفزعاً وقتل جوليانوس . وبعد هذه البداية الناجحة ، واجه سيفيروس صعوبتين

بالغتين ، قبل أن يتمكن من السيطرة كلياً على الامبراطورية ، أما أولاهما فكانت في آسيا ، حيث أعلن نيفرينوس ، قائد الجيوش الآسيوية نفسه امبراطوراً. وأما ثانيتهما فكانت في الغرب حيث يطمح ألبينوس في عرش الامبراطورية أيضاً . ولما رأى أن من الخطورة بمكان عظيم ، أن يبدو معادياً للقائدين في آن واحد ، فقد قرر مهاجمة نيفرينوس ، وخديعة البينوس ، فكتب إليـه معرباً عن رغبته في اشراكه في هذا الشرف الذي أضفاه عليه مجلس الشيوخ باختياره امبراطوراً ، ومنحه لقب قيصر . ثم أقنع مجلس الشيوخ باعلانه شريكاً له ، وهي نعم صدقها البينوس وخدع بها . وبعد أن تم لسيفيروس هزم نيفرينوس وقتله ، وتهدئة الامور في الشرق عاد إلى روما ، واتهم البينوس في مجلس الشيوخ بالتنكر للنعم التي أغدقها عليه ، والتآمر عليه لقتله وخيانته ، وإنه لذلك يجد نفسه مضطراً للذهاب ومعاقبته على نكرانه للجميل . وزحف الامبراطور المنتصر على فرنسا ، حيث اشتبك معـه في معركة ، وحرمه من مركزه وحياته .

ويتبين لكل من يدرس بالتفصيل أعمال سيفيروس ، أنه كان ليثاً كاسراً وثعلباً ماكراً ، وأن الجميع كانوا يخشونه ويحترمونه ، بينما لم يكن الجيش ليحس نحوه بالكراهية . ولن يدهش الدارس بعد ذلك،أن يرى هذا الحاكم المحدث ، قد تمكن من القبض على ناصية مثل هذه القوة

البالغة ، بالنظر إلى سمعته العظيمة ، التي حمته دائماً من الكراهية ، والتي كان من المفروض أن يستفزها جشعه ، عند شعبه . وكان ولده انطونيوس ، ذا كفاءات بالغـــة أيضاً ، وكان يتمتع بصفات جعلته موضع إعجاب الشعب وحب الجنود ، فقد كان عسكرياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، يحتقر الغذاء المرهف والرخاء ، وغيرهما من صور البذخ ، مما دفع بجنوده إلى التعلق به . ومع ذلك فقد امتـــاز بشراسة وغلظة ، لم يعرف لهما مثيل من قبل . فبعد أن قتل الكثيرين من الأفراد العاديين ، أمر بقتل عدد كبير من سكان روما،وجميع سكان الاسكندرية ، حتى كرهه العالم بأسره ، وبدأ المقربون منه يخشونه ، وانتهى أخيراً قتيلاً على يد أحد قواده وسط الجيش . ومن الجدير بنا أن نلاحظ هنا ، إن مثل هذه الميتة، التي تتم على يد رجل عازم مصمم، وعن سابق قصد وتصميم ، لا يمكن للامراء تجنبها . إذ أن كل من لا يخشى الموت في وسعه أن يقتل الآخرين . ولكن على الأمير ، على كل حال ، أن لا يخشى هذا النوع من الاغتيال ، إذ أن مثل هذا الشكل من الرجال ، نادر الغاية ، وكل ما عليه أن يعمله ، تجنب الإساءة البالغة لأي إنسان يعمل في خدمته ، أو يكون قريباً منه ، كما وقـــع لأنطونيوس ، الذي كان قد أمر بموت شقيق ذلك الضابط ، موتاً مهيناً ، وكان يهدده كل يوم ، على الرغم من احتفاظه به بين رجال حرسه ، وهي حماقة وتهور ، كما أثبتت الأيام والوقائع

ولننتقل الآن إلى كومودوس ، الذي كان في وسعه أن يحتفظ

بمنصبه ، لأنه وصل إليه بالوراثة . فقد كان ابن ماركوس ، وكان في مكنته أن يحذو حذو أبيه ، في إرضاء الشعب والجند . ولكن كومودوس هذا كان فظاً ووحشاً في طباعه ، فعمد رغبة منه في ممارسة جشعه على رعاياه ، إلى إرضاء جنوده والعطف عليهم ، والدفع بهم إلى حياة العهر والفجور . ولم يحتفظ من الناحية الأخرى ، بالوقار الذي يفرضه عليه منصبه ، فكان يهبط دائماً إلى حلبات الصراع في المسارح ويقترف أعمالاً أخرى مشينة ، لا تليق بالامبراطور ، مما حدا بجنوده إلى احتقاره. وهكذا اجتمع العاملان، الكراهية من ناحية ، والازدراء من الناحية الأخرى ، فتآمر البعض عليه وقتلوه .

ويبقى أمامنا شرح شخصية مكسيمينوس. لقد كان رجلاً محارباً، ولما كان الجيش قد أقلقه ما كان عليه اليكساندر من خنوثة وضعف ، وهو من تحدثنا عنه سابقاً ، فقد انتخب امبراطوراً بعد موته . ولكنه لم يتمتع بالعرش طويلاً، فقد وجد عاملان عرضاه للكراهية والزراية، أولهما ضعة أصله ، إذ كان راعياً في طفولته في «تراقية» ، وهي حقيقة ذاع أمرها وجعلته موضع الازدراء من جميع الأطراف . وثانيهما ، تأخره في بداية حكمه في الذهاب إلى روما لارتقاء العرش الامبراطوري ، واشتهاره بالفظاظة والقسوة ، إذ ارتكب عن طريق وكلائه في روما وفي غيرها من أنحاء الامبراطورية ، عدداً من أعمال الوحشية . وهكذا تأثر العالم بأسره سخطاً وحنقاً على ضعة أصله

وكراهيته له ، من جراء الخوف الناجم عن فظاظته . فتآمرت عليه ايطاليا في البداية ، وسرعان ما لحق بها مجلس الشيوخ وجميع سكان روما وايطاليا . وأخيرا اشترك الجيش في التآمر ، إذ بعد حصاره لأكويليا وعجزه عن اقتحامها ، ثار عليه الجنود لصرامته . وعندما رأوا ان الجميع قد باتوا من أعدائه ، زال خوفهم منه ، وقضوا عليه .

ولن أتحدث عن هليوغابولوس أو ماكرينوس أو جوليانوس ، فقد كانوا من المحتقرين ، ولذا فسرعان ما قضي عليهم . ولكنني سأصل إلى نتيجة نقاشي هذا قائلاً ان الامراء في عصرنا يواجهون مصاعب أقل من أولئك ، إذ انهم كانوا مضطرين إلى إرضاء جنودهم في دولهم إلى حد استثنائي . إذ على الرغم من حاجتهم إلى إبداء بعض الاعتبار لهم ، إلا أن المشاكل التي تنجم سرعان ما تحل ، إذ لم يكن لدى أي من هؤلاء الأمراء جيوش ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجهاز الحكومة ، أو بجهاز ادارة المقاطعات ، كما كانت الحالة بالنسبة إلى جيوش الامبراطورية الرومانية. ولهذا كان من الضروري آنذاك ، إرضاء الجنود بدلاً من الشعب . أما الآن ، فإن إرضاء الشعب ، بالنسبة إلى جميع الأمراء باستثناء خاقان الترك والسلطان ، أمر أكثر ضرورة من إرضاء الجنود ، إذ أن في وسع الشعب أن يعمل أكثر من الجنود . وقد استثنيت سلطان الترك ، لأنه يحيط نفسه دائماً بما يربو على الاثني عشر ألف جندي من المشاة ، وخمسة عشر ألفاً من الفرسان ، وعليهم ترتكز دعائم دولته وأمنها وقوتها . ومن واجبه أن يرجىء أي اعتبار آخر ،

في سبيل إرضائهم . وتنطبق هذه الحالة تماماً على مملكة السلطان ، إذ أن وجودها كلية في أيدي الجنود ، يحتم عليه الاحتفاظ بصداقتهم ، دون الاكتراث بالشعب . ومن الجدير بنا أن نلاحظ أن دولة السلطان تختلف تماماً عن دول الأمراء الآخرين ، إذ أنها تشبه البابوية المسيحية في استحالة تسميتها بالمملكة الوراثية، أو المملكة المستحدثة .. ذلك لأن أبناء الأمير المتوفي لا يخلفونه على العرش ، وإنما يخلفه أولئك الذين ينتخبهم أصحاب الشأن والسلطة لهذا المنصب . ولما كان هذا النظام قديماً ، فليس في وسعنا أن ننعت المملكة بالجديدة ، إذ لا توجد فيها المصاعب التي تقوم في الدولة الحديثة ، على الرغم من جدة الأمير ، لأن القوانين والأنظمة في بلاده قديمة ، قد أعدت لاستقباله وكأنه سلطان وراثي .

ولنعد الآن إلى موضوعنا . إن كل من يدرس مناقشاتي السابقة يرى أن الكراهية أو الزراية كانا دائماً العامل في سقوط الأباطرة الذين ذكرتهم ، وسيلاحظ أيضاً ، كيف أن بعضهم قد سلك في أعماله هذا السبيل ، بينما سلك البعض الآخر سبيلاً مغايراً . وقد انتهى بعضهم في كلتا الحالتين إلى نهاية سعيدة ، بينما انتهى البعض الآخر إلى نهاية تعيسة شقية . ولما كانا بيرتينكس واليكساندر حاكمين جديدين ، فقد كان من غير المجدي لهما ، بل من الضار ، أن يحاولا تقليد ماركوس ، الذي كان أميراً وراثياً . وينطبق هذا أيضاً على كراكلا وكومودوس ومكسيمنوس ، فقد كان من الويل لهم أن يقلدوا سيفيروس ، مع

افتقارهم إلى الكفاءات اللازمة للاحتذاء حذوه . وهكذا يصعب على الأمير الجديد ، تقليد أعمال ماركوس ، في امارته ، كما لا يتوجب عليه أن يقلد أعمال سيفيروس . وكل ما يجب أن يعمله ، أن ياخذ عن سيفيروس تلك الأمور اللازمة لتأسيس دولته ، وعن ماركوس تلك التي تفيده ، وتمجده في الحفاظ على دولة قائمة ووطيدة الأركان .

•

٢٠

هل القلاع وغيرها من الاشياء التي يبتكرها الامير ، نافعة أو مؤذية ؟

يلجأ بعض الأمراء ، للحفاظ على ممتلكاتهم باطمئنان وأمان ، إلى نزع السلاح من رعاياهم ، بينما يلجأ آخرون إلى الابقاء على الأراضي التي يحتلونها مجزأة . وهناك من يحاول منهم تهدئـــة الحزازات التي تكمن ضدهم ، بينما ثمة آخرون ، يحاولون أن يكسبوا إلى جانبهم أولئك الذين كانوا يشكون في صدق ولائهم ، عند بداية عهدهم . وقـــد أقام بعض الأمراء قلاعاً وحصوناً ، بينما عمد آخرون إلى هدمها وإزالتها . وعلى الرغم من صعوبة إصدار حكم جازم ، على هذه الأمور دون الدخول في تفاصيل الدولة ، التي تطبق فيها مثل هذه النصائح ، إلا أنني ساتحدث بقدر ما يسمح لي الموضوع بصورة عامة عنه .

ولا يعرف عن أمير جديـــد قط ، انه لجأ إلى نزع السلاح من

رعاياه ، بل العكس هو الصواب . فهو يسلحهم إذا وجدهم عزلاً ، إذ بتسليحهم ، يضمن هذه الأسلحة إلى جانبه ، فمن كان منهم موضع شك وريبة غدا مخلصاً مواليا ، ومن كان قائماً على الولاء ظل كذلك . وتتحول الرعية عن هذه الطريق إلى مجموعة من المواطنين . ولما كان من المتعذر تسليح جميع المواطنين ، فان اخفاء هذا الامتياز على البعض يمكنك من التعامل مع الآخرين بصورة أكثر أمناً واطمئناناً . وهذا التمييز في المعاملة ، وهو ما يدركه رجالك، يجعلهم أكثر التزاماً تجاهك وتعلقاً بك . أما الآخرون فيجدون لك المبرر . جازمين بأن من تناولوا السلاح يتصفون بحكم الضرورة ، بمؤهلات أعظم ، ويتعرضون لأخطار أكبر ، ويواجهون مسؤوليات أضخم . أما اذا أقدمت على نزع السلاح منهم ، فإنك تشرع في الإساءة إليهم ، مبدياً عدم ثقتك فيهم ، اما جبناً منك ، أو افتقاراً إلى الثقة بنفسك ، وكلا هذين الرأيين يولد الكراهية ضدك . ولما كان من المتعذر عليك أن تظل دون قوات مسلحة، فإنك ستجد نفسك مضطراً إلى اللجوء إلى المتطوعة المرتزقة ، التي بيّنا في فصل سابق قيمتها وأهميتها ، وهي قوات حتى لو كانت منظمة ، فإنها لن تكون كافية في إعدادها للدفاع عنك أمام أعداء أقوياء ، ورعايا تشك في صدق ولائهم . ولهذا قلت ان الأمير الجديد في ولاية جديدة ، يلجأ دائماً إلى تسليح رعاياه وتجنيدهم ، والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك .

أما عندما يحتل الأمير دولة جديدة يضيفها إلى دولته السابقة ، فمن

واجبـــه أن ينزع السلاح من أهل تلك الدولة ، باستثناء أولئك الذين وقفوا إلى صفه عند احتلالها. وعليه أيضاً عندما تتاح له الفرصة ويحين الوقت المناسب، أن يضعف هؤلاء الأنصار ويخنعهم، وأن يرتب أموره بحيث يضمن نقل سلاح الدولة الجديدة إلى أيدي جنوده الذين يعيشون على مقربة منه في دولته القديمة . وقد سمعنا آباءنا والحكماء منا يقولون ، ان من الضروري الإبقـــاء على « بستويا » مجزأة متخربة ، وعلى بيزا دون قلاع أو حصون . ولهذا السبب كانوا يثيرون الخلافات في بعض المدن الخاضعة لهم ، أملاً منهم في امتلاكها بصورة أسهل وأهون .
وكانت هذه الطريقة مفيـدة ومجدية في تلك الأيام ، عندمـا كان توازن القوى قائماً في ايطاليا . أما بالنسبة إلى حاضرنا فاني لا أرى فيها فكرة طيبة ، إذ انني أؤمن إيمانـاً جازماً بأن مثل هـذه التجزئات التي تخلق على هذه الطريقة لا تجدي نفعاً قط ، بل على العكس قد تكون مؤذية . إذ عندما يزحف العدو سيتمكن فوراً من احتلال هـذه المدن المجزأة ، لأن الأحزاب الضعيفة ستقف إلى جانبه ولن يكون في مكنة الأحزاب الباقية أن تصمد .

ولا ريب في أن البنادقة كانوا مدفوعين بهذه للعوامل السابقة ، عندما أثاروا حزبيات « الغويلف » و « الفيليبين » في المـدن الخاضعة لهم . وعلى الرغم من أنهم لم يسمحوا لهذه الخلافات الحزبية بان تتطور حتى تصل حد سفك الدماء ، إلا أنهم شجعوها، حتى ينشغل المواطنون بخلافاتهم فلا يقومون بأي عمل ضد الاحتلال البندقي. لكن هذه الطريقة

لم تجدهم نفعاً، إذ رأينا فريقاً من هؤلاء الرعايا بعد هزيمة «فاييلا» يجدون الشجاعة الكافية للاستيلاء على الدولة كلها . وتوحي مثل هذه الأساليب بضعف الأمير ، إذ أن الحكومة القوية لن تسمح بظهور مثل هذه الخلافات . وقد تكون مجدية في أيام السلم ، إذ يسهل على الأمير بهذه الوسائل ، إدارة شؤون رعاياه ، ولكن عندما تحل الحروب ، فإن خطل هذه السياسة سرعان ما يبدد .

ويغدو الأمراء دون شك عظاماً ، عندما يتغلبون على العقبات والمعارضة . ولذا فإن الحظ ، عندما يود أن يعلي من شان أمير جديد هو في حاجة إلى الحصول على الشهرة البالغة أكثر من زميله الأمير الوراثي ، يخلق له الأعداء ، ويرغمه على شن الحروب عليهم ، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم ليرتقي أثر ذلك عالياً ، السلّم ، الذي وضعه أعداؤه في طريقه . ويؤمن الكثيرون ، تبعاً لذلك ، أن على الأمير العاقل إذا أتيحت له الفرصة أن يخلق بمكر عداوات له ، حتى إذا ما قهر أعداءه ، ضاعف من عظمته

وكثيراً ما رأى الأمراء ، ولا سيما الحديثون منهم ، ولاء ونفعاً أكثر ، في أولئك الرجال الذين كانوا يشكون فيهم عند بداية عهدهم ، من أولئك الذين أولوهم الثقة . وقد حكم باندلغو بتروشي ، أمير سينيا ، مقاطعة بواسطة أولئك الذين كان يشك فيهم لا بواسطة غيرهم. ولكننا لن نتحدث بالتفصيل عن هؤلاء ، إذ أن الحديث عنهم يبعدنا

عن الموضوع ، ويكفي أن أقول ان هؤلاء الذين كانوا يعتبرون من الأعداء في بداية عهد حكومة جديدة، يسهل اجتذابهم إلى صفوف الأمير، لا سيما إذا كانوا من النوع الذي يحتاج إلى الدعم للحفاظ على مراكزهم ، وسيجدون أنفسهم مرغمين على خدمته بإخلاص لأنهم يعرفون انهم عن طريق أعمالهم وحدها يستطيعون أن يزيلوا ما علق بالأذهان عنهم في الماضي من فكرة سيئة ، وسيجد الأمير دائماً لديهم عوناً أكبر من الذي يقدمه أولئك الذين يقومون على خدمته وهم مطمئنون ، فيهملون مصالحه .

ولما كنت أشعر بان الموضوع يحتاج بعض الافاضة ، فلن أغفل هنا عن تذكير الأمير الذي احتل حديثاً دولة ما عن طريق العون الخفي الذي قدمه له أهلها ، بأن يدرس بامعان الدوافع التي حفزتهم إلى ذلك . وإذا كانت هذه الدوافع لا تقوم على ما يشعرون به من حب طبيعي له ، بل على عدم رضاهم عن شكل الحكم الذي كان قائماً في دولتهم ، فإنه سيجد مشقة أعظم وصعوبة أبلغ ، في الحفـــاظ على صداقتهم ، إذ سيستحيل عليه ارضاؤهم . وإذا ما درسنا أسباب ذلك على ضوء الأمثلة التي قد نستخلصها من الأزمنة القديمة والحديثة ، تبين لنا أن من الأسهل على الأمير أن يفوز بصداقـــة أولئك الذين كانوا راضين عن الأوضاع القديمة ، وكانوا تبعاً لذلك من الأعداء في البداية ، من صداقة أولئك الناقمين الذين غدوا من أصدقـــائه ، وساعدوه على احتلال دولتهم .

وقد جرت عادة الأمراء ، رغبة منهم في الحفاظ على دولهم بأمان وسلام ، أن يقيموا القـــلاع كشكيمة ترد عنهم أطماع الراغبين في احتلال أراضيهم، وكملجأ أمين ياوون اليه في حالات الهجوم المفاجىء. وإني لأوافق على هذه الطريقة ، فقد استعملت منذ أقدم العصور، ومع ذلك فقد رأينا السيد نيكولو فيتيلي ، في عصرنا هذا ، يدمر قلعتين في سيتا دي كاستيلو ، رغبة منه في الحفاظ على تلك الدولة . وعندما عاد غيدو بالدو ، دوق أوربينو ، إلى مقاطعته ، التي كان قد طرده منها قيصر بورجيا ، هدم جميع القلاع في تلك المقاطعة ، معتبراً انه بدونها ، سيكون من الصعب عليه أن يخسر مقاطعته من جديد . وقام أفراد أسرة بنيتيفوغلي ، عند عودتهم إلى بولونا ، بتدابير مـــاثلة . ولهذه الأسباب ، فإن القلاع قد تكون نافعـــة أو غير نافعة ، وفقاً للأوضاع والأزمنة ، فقد تجدي من ناحية ، وقد تكون مضرة من ناحية اخرى . وعلينا أن نتناول الموضوع على الشكل التالي : إن على الأمير الذي يخشى شعبه أكثر من خشيته للأجانب أن يقيم القلاع ، أما الأمير الذي يخشى الأجانب أكثر من شعبه ففي إمكانه أن يستغني عنها . فقلعة ميلان التي بناهـــا فرانسيسكو سفورزا كانت مصدر ازعاج وقلق لعائلة سفورزا،أكثر من أي اضطراب آخر فيالدولة.ولذا فإن خير قلعة يقيمها الأمير تكون في أفئدة شعبه ، إذ على الرغم من اقامتك للقلاع ، فليس في وسعها حمايتك ، إذا كان شعبك يكرهك . وعندما يثور الشعب ضدك ، فلن يعدم أنصاراً من الأجانب يسارعون

إلى تقديم العون له . ولم نر لهذه القلاع في عصرنا أية فائدة ، لأي أمير من الأمراء ، باستثناء ما حدث لكونتيسة فورلي عند وفاة زوجها الكونت جيرولامو ، فقد تمكنت من الفرار من ثورة الجماهير ، واللجوء إلى قلعتها ، حتى جاءها العون من ميلان فاستعادت إمارتها ، لا سيما وإن الظروف آنذاك لم تمكن أي أجنبي من مساعدة الشعب . لكن هذه القلاع لم تجدها نفعاً فيما بعد ، عندما هاجمها قيصر بورجيا وسارع الشعب المعادي لها ، إلى التحالف مع الأجنبي . وهكذا كان من الخير لها أولاً وآخراً ، أن لا تكون مكروهة من شعبها ، بدلاً من الاعتماد على القلاع والحصون . ولهذه الأسباب كلها ، فانني أطري كل من يقيم القلاع ، وكل من لا يقيمها ، وأوجه اللوم إلى كل من يضع فيها جماع ثقته ، فلا يكترث بكراهية شعبه أو حبه .



٢١

كيف يعمل الامير لاكتساب الشهرة؟

لا شيء يوصل الأمير إلى منزلة التقدير والاجلال ، من إقدامه على المشاريع العظيمة ، وتقديمه الدليل على قوته . ولنأخذ مثلاً معاصراً ، فرديناند ملك الأراغون ، والملك الحالي لاسبانيا . وقد يصح أن نطلق عليه لقب الحاكم الجديد ، لأنه قد ارتقى من منزلة ملك صغير ، إلى ذروة المجد والشهرة ، ليصبح ملك المسيحية الأول. وإذا ما درست أعماله تبينت فيها العظمة البارزة ، فكلها جليل ، وكلها فائق للعادة . وقد بدأ عهده بمهاجمة غرناطة ، فكانت مغامرته هذه، الحجر الأساسي في مملكته . وكان يعمل في البداية ، في أوقات فراغه ووفقاً لأهوائه ، دون أن يخشى تدخلاً من أحد ، فاشغل بذلك عقول نبلاء قشتالة ، في مشروعه ، حتى إنهم من جراء حصر تفكيرهم في الحرب ، لم يتوفر لديهم الوقت للتفكير بأي ابتكار أو ابتداع . وهكذا حقق لنفسه

الشهرة التي أرادها ، والسلطان عليهم دون أن يشعروا بذلك في بادىء الأمر . وتمكن بالأموال التي أخذها من الكنيسة وجمعها من الشعب ، من المحافظة على جيوشه ، ومن خوض تلك الحرب الطويلة ، التي وضعت اسس قوته العسكرية ، والتي أتاحت له فرصة الشهرة وذيوع الصيت فيما بعد . يضاف إلى هذا ، انه رغبة منه في القيـــام بمشاريع أضخم وأكبر ، وتحت ستار الدفاع عن الدين ، عمد إلى الاضطهـــاد الديني ، فطرد العرب من مملكته ، وسلبهم كل ما يملكون ، وليس هناك من مثل أتعس ولا أكثر شذوذاً من هذا . وقام بمهاجمة افريقيا محتجاً بنفس الذريعة ، وقام بمغامرته الايطالية ، وشرع أخيراً في الهجوم على فرنسا . وهكذا فقد كان دائماً يبتدع المشاريع العظيمة ، مما حير عقول رعاياه وأذهلهم ، وجعلهم مشغولين دائماً بالتطلع إلى النتائج . وكانت هذه الأعمال متعاقبة ، حتى ان الواحد منها ليتلو الآخر ، مما لم يترك مجالاً لأي انسان ليحس بالاستقرار ، ويبدأ أي عمل ضده .

ومن المجدي للأمير أيضاً أن يقدم بعض الأمثلة البارزة على عظمته في الادارة الداخلية ، كما سبق وسردت من أعمال قام بها السيد برنابو في ميلان . وعندما يحدث ويقوم أحد الناس بعمل خارق ، سواء في خيره أو في شره ، في الحياة المدنيـــه ، فعلى الأمير أن يجد الوسائل اللازمة لمكافأة هذا الانسان أو معـــاقبته ، بحيث يتحدث الناس عن

ذلك أمداً طويلاً . وعلى كل أمير ، فوق هذا كله ، أن يحاول في جميع ما يعمله الحصول على اشتهار أمره بالعظمة والتفوق .

ويلقى الأمير أيضاً بالغ الاحترام ، إذا برهن على انه إما أن يكون صديقاً مخلصاً أو عدواً لدوداً . وهذا يعني أن يعلن بلا تحفظ ، عطفه على انسان ما ، وعداءه لانسان آخر . ولا ريب في أن هذه السياسة أفضل دائماً من البقاء على الحياد . فإذا اشتبكت دولتان مجاورتان لك في حرب ، فعليك أن تقف منهما ذلك الموقف الذي يؤدي إما إلى خوفك من الدولة المنتصرة ، أو عدم الخوف منها . وفي كلتا هاتين الحالتين يخلق بك أن تعلن عن موقفك بصراحة ، وأن تخوض الحرب . إذ أن عدم خوضك إياها في الحالة الأولى ، يجعلك فريسة سهلة للمنتصر ، مما يبعث في نفس المهزوم الرضى والبهجة . ولن تجد سبباً أو مبرراً للدفاع عن موقفك ، كما لن تلقى أحداً يرحب بك . إذ أن المنتصر ، أياً كان ، لا يرغب في اتخاذ أصدقاء لا يطمئن اليهم ، ولا يسارعون إلى مساعدته في وقت شدته . أما المهزوم فلن يرحب بك بدوره ، لأنك لم تخض المعركة إلى جانبه دفاعاً عن قضيته .

لقد طلب الايتوليون إلى انطيوخوس المجيء إلى بلاد اليونان لطرد الرومان منها ، فلبى طلبهم . وبعث انطيوخوس بالرسل والخطباء إلى الآخيين أصدقاء الرومان لتشجيعهم على البقاء على الحياد ، بينما أقنعهم الرومان ، من الناحية الثانية ، بخوض المعركة إلى جانبهم .

وانتقل الموضوع إلى مجلس الآخيين لمناقشته . وعندما قـــام سفير انطيوخوس ، يحاول إقناعهم بالتزام الحياد ، رد عليه السفير الروماني قائلاً : « ليس أبعد عن الحقيقة ، ممـــا استمعتم اليه من قول . من الأفضل والأجدى لدولتـكم ، عدم التدخل في الحرب ، إذ أن عـدم تدخلـكم فيها سيجعلكم مفتقرين الى كل عطف وكل سمعة بالاضافة إلى أنكم ستصيرون حتماً الجائزة التي يحصل عليها المنتصر أياً كان » .

ويحدث دائماً ، أن من لا يكون صديقاً لك ، يريد منك دائماً أن تظل على الحياد ، أما صديقك فيريد منك أن تعلن عن موقفك بحملك السلاح إلى جانبه. ويلجأ الأمراء المترددون عادة ، رغبة منهم في تجنب الأخطار الآتية، إلى اتباع طريق الحياد ، الذي يؤدي حتماً إلى دمارهم وضياعهم. ولكن عندما يعلن الأمير بصراحة، وقوفه إلى أحد الجانبين، ويقدر لهذا الجانب أن ينتصر ، فإنـــه يشعر على الرغم من قوته ، ومن بقاء الأمير تحت رحمته ، بنوع من الالتزام تجاهه ، إذ أن صداقة متينة قد أقيمت ، وليس من شيمة الناس عادة ، أن يتنكروا للشرف، وأن يضطهدوا من ساعدهم ، متنكرين لجميله على هذا الشكل ، يضاف إلى هذا أن الانتصارات لا تكون عادة على ذلك النوع من النجاح الذي ينسي المنتصر ضميره ، ولا سيا بالنسبة إلى قضايا العدالة . أمـا إذا هزم حليفك فستجد المأوى لديـه ، وسيهب لمساعدتك ما أمكنـه ، وتصبح بذلك ، رفيقاً لطالع ، قد يشرق ثانية ويرتفع . أما بالنسبة إلى الحـالة الثالثة ، عندما يكون المتحاربان من الضعف ، بحيث لا تخشى شيئاً من المنتصر ، وان الخطر عليك أكثر ، أن تتخذ موقفك إلى جانب أحد

الفريقين ، إذ انك تفضي إلى دمار أحدهما بمساعدة الآخر ، الذي تحتم عليه الضرورة ، لو كان عاقلاً أن ينقذه . أما إذا انتصر حليفك ، فسيظل تحت رحمتك ، إذ يستحيل عليه أن لا يحتل بمساعدتك وعونك .

ويجب أن أبين هنا ان على الأمير أن يتجنب الارتباط في قضية مشتركة مع أمير آخر أقوى منه ، لإلحاق الضرر بامير ثالث ، إلا إذا أجبرته الضرورة على ذلك ، كما سبق واسلفت إذ ان انتصاره يعني وقوعك تحت رحمته . وعلى الأمراء أن يتجنبوا بقدر طاقتهم، الوقوع تحت رحمة غيرهم وارادتهم وأهوائهم . ولقد تحالف البنادقة مع فرنسا ضد دوق ميلان ، مع أنه كان في امكانهم أن يتجنبوا هذا التحالف ، الذي أدى إلى دمارهم . أما إذا لم يكن هناك من مناص ، كما وقع للفلورنسيين مثلاً ، عندما اشترك البابا وملك اسبانيا في الهجوم بجيوشهما على لومبارديا ، فإن على الامير أن يشترك في القتال للاسباب التي شرحتها آنفاً . وعلى كل دولة ، أن لا تبالغ في الاطمئنان إلى سياستها ، بل عليها أن تضع الشكوك دائماً نصب أعينها . فمن طبيعة الأمور مثلاً أن لا يحاول إنسان تجنب إحدى المصاعب ، إلا ويقع في صعوبة ثانية ، ولكن الفطانة تحتم عليك أن تستطيع تمييز طبيعة الصعاب ، وأن تقحم نفسك في أقلها ضرراً وأذى .

وعلى الأمير أن يظهر نفسه دائماً ميالاً ، إلى ذوي الكفاءة والجدارة وان يفضل المقتدرين ، ويكرم النابغين في كل فن وعليه أن يشجع ،

بالاضافة إلى ذلك ، مواطنيه على المضي في أعمالهم ، سواء في حقول التجارة أو الزراعة أو أية مهنة أخرى يمتهنها الناس . وبهذه الطريقة لا يتوانى الفرد عن تحسين ما يملك مخافة أن يفقده . ولا يتقاعس آخر عن البدء بتجارة خشية الضرائب . وعليه أن يقدم المكافآت لكل من يعمل في هذه الحقول، ولكل من يسعى بمختلف السبل لتحسين مدينته أو دولته . وبالاضافة الى كل ذلك عليه في الفصول المناسبة من السنة ، أن يشغل الشعب بالأعياد ، ومختلف العروض المسرحية وغيرها . ولما كانت المدينة مجزأة اما الى نقابات أو طبقات ، فعليه أن يهتم بجميع هذه المجموعات وان يختلط بأفرادها من وقت الى آخر ، وان يقدم لهم مثلاً على إنسانية وجوده ، محتفظاً دائماً بجلال منصبه ووقار مكانته ، وهما ما يجب أن لا يسمح قط بتأثرهما أو زوالهما مهما كانت الأسباب .

وزراء الأمراء

ليس اختيار وزراء الأمير ، بالمسالة القليلة الأهمية ، فهم إما أن يكونوا لائقين ، أو لا يتفقون مع فطـــانة الأمير وحسن تبصره بالأمور . والانطباع الأول الذي يتولد لدى الانسان عن الأمير وعن تفكيره ، يكون في رؤية أولئك الذين يحيطون به . فعندما يكونون من الأكفاء والمخلصين ، يتأكد الانسان من حكمة الأمير ، لأنه استطاع تمييز هذه الكفاءة ، والاحتفـــاظ بهذا الاخلاص . أما إذا كانوا على النقيض من ذلك ، فعي وسع الانسان دائماً ، أن ياخذ فكرة سيئة عن الأمير نفسه ، إذ أن الخطيئة الأولى التي يقترفهـــا تكون في إساءة اختياره .

ولا ريب في أن كل من عرف السيد انطونيو دي فينافرد ، وزير باندولفو بيتروش امير سينيا ، قد حكم فورا بأن باندولفو كان رجلا

حكيماً عادلاً ، لأنه اختار هذا الوزير. وهناك ثلاثة أنواع من العقول، أولها يدرك الأمور دون عون ومساعدة ، وثانيها يدركها بمساعدة الآخرين وارشادهم ، وثالثها لا يدركها لا بالمساعدة ولا بدونها . والنوع الأول ممتاز ، أما الثاني فجيد ، وأما الثالث فلا جدوى منه . ومن هنا يتضح أن باندولفو ، لو لم يكن من أصحاب النوع الأول ، فإنه حتماً من أصحاب النوع الثاني . وعندما يتوفر للأمير الحكم على معرفة الخير من الشر ، في ما يفعله الآخرون أو يقولونه ، فإنه حتى ولو افتقر إلى الابتكارية والذكاء، يستطيع أن يميز بين أعمال وزيره الطيبة وأعماله السيئة ، وأن يصلح الأخيرة منها ويشجع الأولى ، وآنذاك ، لا يامل الوزير في خداعه ، فيظل أميناً طيباً .

وهناك طريقة تمكن الأمير من معرفة وزيره واختباره ، وهي طريقة لا تخطىء أبداً . فعندما يفكر الوزير بنفسه أكثر من تفكيره بك ، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه ، فإن مثل هذا الرجل لا يصلح لأن يكون وزيراً نافعاً ، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه ، إذ أن من تعهد اليه مهام دولة الآخرين ، يجب أن لا يفكر قط بنفسه وانما بالأمير ، وأن لا يكترث باي شيء سوى ما يتعلق بالأمير . وعلى الأمير بدوره ، لكي يحتفظ بولاء وزيره وإخلاصه ، أن يفكر به ، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم ، مبدياً له العطف ، ومانحاً إياه الشرف ، وعاهداً اليه بالمناصب ذات المسؤولية ، بحيث تكون هذه الأموال ومظاهر التكريم ، المغدقة عليه

كافية ، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقـــاب جديدة ، وبحيث تكون المناصب التي يشغلها مهمة إلى الحد الذي يخشى منه على ضياعها. وعندما تسود مثل هذه العلاقة بين الأمراء ووزرائهم ، فإن في وسع كل فريق منهم أن يعتمد على الفريق الآخر ، أما إذا كان الوضع على النقيض من ذلك فإن النتيجة تكون دائماً ، مضرة لهذا الجـــانب أو ذاك

* * *

٢٣

كيفية الاعراض عن المنافقين

لن أتجاهل موضوعاً مهماً ، وذكر خطيئة لا يستطيع الأمراء تجنبها إلا ببالغ الصعوبة ، إذا لم يكونوا من العقلاء والحكماء ، أو إذا لم يكونوا يحسنون الاختيار . وهذا الموضوع الذي اعنيه ، يتعلق بالمنافقين المداهنين الذين تعص بهم بلاطات الملوك والأمراء . فمن عادة الناس أن يسروا ويعتزوا بما يملكون ، وأن يخدعوا أنفسهم بذلك وهذا يجعل من المتعذر عليهم وقاية أنفسهم من هذا الوباء ، حتى انهم إذا حاولوا هذه الوقاية تعرضوا لخطر الزراية . وليست هناك من طريقة أفضل في وقاية نفسك من النفاق، من أن تجعل الجميع يدركون أنهم لن يسيئوا إليك ، إذا ما جابهوك بالحقيقة . ولكن عندما يجرؤ كل إنسان على مجابهتك بالحقيقة فإنك تفقد احترامهم . والأمير العاقل

هو من يتبع سبيلاً ثالثاً ، فيختار لمجلسه حكماء الرجال ، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية في الحديث إليه ومجابهته بالحقائق ، على أن تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها ، ولا تتعداها . ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء وان يستمع إلى آرائهم في كل شيء ، وأن يفكر في الموضوع بعد ذلك بطريقته الخاصة . وعليه أن يتصرف في هذه المجالس ، ومع كل من مستشاريه ، بشكل يجعله واثقـــاً من أنه كلما تكلم بصراحة واخلاص ، كلما كان الأمير راضياً عنه . وعليه بعد ذلك أن لا يستمع إلى أي إنسان ، بل يدرس الموضوع بنفسه على ضوء آراء مستشاريه ، ويتخذ قراراته التي لا يتراجع عنها . أما الأمير الذي يسير على طريقة مغايرة ، فيتهور متأثراً بآراء المداهنين والمنافقين ، أو يبدل قراراته وفقاً للآراء المتعددة التي تطرح عليـــه ، فإنه يفقد الاحترام والتقدير .

وسآتي بمثال حديث على الموضوع . فقد قال بري لوكا أحـد أتباع مكسيمليان الامبراطور الحـــالي ، ان جلالته لم يستشر أحداً قط في حياته ، ومع ذلك فانه لم يعمل شيئاً قط وفق مشيئته وهواه ، لأنـه يتبع دائماً عكس الطريقة التي سبق ان شرحت ، إذ لما كان الامبراطور رجلاً خفياً ، محوطاً بالأسرار ، فانه لا يفصح عن نواياه للنـــاس ولا يقبل النصيحة من أحد . ولكن عندما يشرع في تنفيذ هذه النوايا ، تأخذ في الاتضاح وتنكشف للناس ، فيعترض عليهـــا من حوله من

الأتباع ، وسرعان ما يتحول عن تنفيذهـا ويبدل نواياه . وينجم عن هذا أنـــه يناقض اليوم ما عمله بالأمس ، فلا يفهم إنسان ما يرغب في عمله أو ينويه ، وتنعدم الثقة في مشورته وتفكيره .

ولهذا على الأمير أن يقبل النصيحة دائماً ، ولكن عندما يريد هو ، لا عندما يريد الآخرون، بل عليه أن لا يشجع مطلقاً المحاولات لإسداء النصيحة إليه ، إلا إذا طلبها . ولكن عليه أن يكثر من سؤالهـا وأن يحسن الإصغاء إلى الحقائق التي تسرد عليه عندما يسأل عنهـا . وعليه في الحقيقـة أن يغضب إذا رأى أحـد مستشاريه يتردد في قول الحقيقة له . ولما كان من رأي بعض الناس أن الأمير الذي يشتهر أمره بالتبصر والحكمة ، لا تعزى شهرته إلى طبيعته ، بل إلى خبرة المستشارين الذين يلتفون حوله ، فإنني أقول ان الرأي خاطىء تماماً . فالقاعدة العامة التي لا شواذ لها ، ان الأمير الذي لا يتصف بالحكمة لا يمكن أنـ يشار عليه بطريقة صالحة ، إلا إذا ترك نفسه عرضاً ، وبصورة كلية ، بين يدي شخص واحد يتحكم فيه تحكماً كلياً ، وكان هـذا الشخص عاقلاً متبصراً . وفي هذه الحالة قد يحكم الأمير حكماً صالحاً ، ولكن هـــذا الأمر لن يدوم طويلاً إذ أن الحاكم بأمره سرعان ما ينتزع منه سلطانه ودولته . أما إذا استشار هذا الأمير البعيد عن الحكمة الكثيرين ، فلن تتوفر له المشورة الجماعية المتحدة ، ولن يكون في مكنته أن يوحد بين الآراء التي تشار عليه ، لتكتسب صفة الإجماع . وسيلجا المستشارون إلى التفكير بمصـــالحهم ، بينما يعجز هو عن ردهم إلى السبيل

السوي ، أو حتى عن فهمهم . وليس هناك من مناص مما ذكرت ، إذ أن من شيمة الناس أن يخادعوك ، إلا إذا أرغموا بطريق الحاجة الماسة على أن يكونوا صادقين . ولهذا فإن النتيجة التي أصل إليها هي أن المشورة الحكيمة حيثما جاءت ، يجب أن تكون خاضعة لحكمة الأمير وتبصره ، وأن لا يخضع تبصر الأمير للمشورات التي تقدم إليه ، مهما كانت صادقة .



٢٤

لماذا فقد أمراء ايطاليا دولهم ؟

إذا اتبع الأمير الحديث العهـــد ، الأمور التي سبق لي ذكرها ، بحكمة وتبصر ، فإنه يبدو عريقاً في امارتــه ، ويصبح آمناً مطمئناً في دولته أكثر مما لو كان ذا جذور عميقة وقديمة فيها . فقد جرت العادة على مراقبـــة الأمراء المحدثين ، أكثر من الأمراء الوارثين . وعندما يعترف الناس بفضائلهم فانهم يكسبون من الناس حولهم ، أكثر بكثير مما لو كانوا من ذوي الدم الملكي العريق . فالنـــاس تستهويهم شؤون الحاضر أكثر من شؤون الماضي، وعندما يشعرون بالرفاهية في حاضرهم تطيب نفوسهم فلا يعودون يبحثون عن أي شيء آخر ، بل على النقيض من ذلك ، يبذلون غاية ما في وسعهم للدفاع عن أميرهم ، طالما هذا الأمير لا يبرهن عن عجزه في أمور أخرى . وهكذا فإن الأمير المحدث يحرز مجداً مزدوجاً من إقامة دولة جديدة وبعث الازدهار فيها،

وتحصينها بالقوانين الصالحة والأسلحة القوية والأصدقاء الطيبين ، والمثل الخيرة ، بينما يكون عار الأمير الوارث مزدوجاً ، لأنه ولد أميراً ، وأضاع عرشه من جراء افتقاره إلى التبصر والحكمة .

ولو درس المرء أوضاع أولئك الحكام الذين فقدوا مراكزهم في ايطاليا ، في أيامنا هذه ، كملك نابولي ، ودوق ميلان وغيرهما ، لتبين له فيهم جميعاً عيب مشترك ، يتعلق بقوتهم العسكرية ، على ضوء العوامل التي أفضت في شرحها ، ثم لرأى بعد ذلك ان البعض منهم ، اكتسب عداء شعبه وان البعض الآخر ، رغم حب الشعب له ، لم يستطع الاعتماد على حب النبلاء وولائهم . وبدون هذه العيوب لا تضيع الدول ، لاسيما إذا كانت لديها القوة الكافية لتمكينها من الإبقاء على جيش في الميدان . ففيليب المقدوني ، ولا أعني به والد الاسكندر الكبير ، بل الأمير الذي أخضعه تيتس كونيتيوس ، لم يكن يملك دولة كبيرة تقارن بعظمة روما واليونان اللتين هاجمتاه ، ولكنه كان رجلاً عسكرياً ، وكان يدرك الطريقة المثلى في تحبيب نفسه إلى الشعب والاطمئنان إلى الكبراء ، فتمكن من احتمال أعباء الحرب ضد الدولتين الكبيرتين سنوات طويلة . وإذا كان في النهاية قد فقد سيطرته على بعض المدن ، فانه ظل قادراً على الاحتفاظ بمملكته .

ولذا على أمرائنا ، الذين احتفظوا بممتلكاتهم مدة طويلة ، أن لا يلوموا الحظ لأنهم أضاعوها ، بل عليهم أن يلوموا تواكلهم لأنهم لم يفكروا في أيام الرخاء والسلام بأن الأمور قد تتبدل (لا سيا وان

خطأ الناس الشائع أن لا يحسبوا حساب العواصف عندما تكون الرياح رخية هنية) . وعندما حلت ساعات المحنة لم يفكروا إلا بالفرار بدلاً من الدفاع عن بلادهم واماراتهم ، واضعين أملهم في أن الشعب الذي قد تستفزه حماقات الغزاة سيدعوهم يوماً ما ، وقد يكون هذا الإجراء عندما لا يوجد غيره أمراً طيباً . ولكن كان من الحماقة إهمال العلاجات الأخرى والركون إلى هذا العلاج وحده ، إذ لا يوجد من يود أن يسقط لأنه يعتقد ان إنساناً آخر سينقذه من سقطته وينتشله . وقد لا يقع هذا الانقاذ أو قد يقع ، ولكنه ان وقع فإنه لن يأتي بالطمانينة والسلامة. لأنك فشلت في انقاذ نفسك، واعتمدت كالجبان على الآخرين في انقاذك . ولا تجدي وسائل دفاعك ، وتكون موثوقة ودائمة ، إلا إذا كانت معتمدة عليك وحدك وعلى مقدرتك الشخصية .

●

٢٥

أثر القدر في الشؤون الانسانية
وطرق مقاومته

لا أجهل أن كثيرين كانوا ، وما زالوا يعتقدون بأن الأحداث الدنيوية يسيطر عليها القضاء والقدر ، ويتحكم فيها الله ، وان ليس في وسع البشر عن طريق الحكمة والتبصر تغييرها أو تبديلها ، وان لا علاج لذلك مطلقاً . ولذا فإن من الجهد غير المجدي ان يعمل الانسان شيئاً لرد ما حكم به القضاء ، وان عليه أن يدع الأمور تجري في أعنتها وفقاً لمشيئة الحظ وقد كثر القائلون بهذا الرأي في أيامنا بسبب التبدلات العظيمة التي رأيناها ، والتي ما زلنا نراها في كل يوم والتي تفوق كل تصور بشري . وعندما أفكر في هذه التبديلات أميل أحياناً إلى مشاركة أولئك الناس رأيهم ، ولكني مع ذلك اعتقد أن ليس في وسعنا تجاهل إرادتنا تمام التجاهل . وفي رأيي ، أن من الحق أن يعزو

الإنسان إلى القدر التحكم في نصف أعمالنا ، وأنه ترك النصف الآخر ، أو ما يقرب منه لنا لنتحكم فيه بأنفسنا . وأود أن أشبه القدر بالنهر العنيف المندفع الذي يغرق عند هيجانه واضطرابه السهول ويقتلع الأشجار والأبنية ، ويجتث الأرض من هذه الناحية ليقذف بها إلى تلك ، فيفر الناس من أمامه ويذعن كل شيء لثورته العارمة دون أن يتمكن أحد من مقاومته . ولكنه على الرغم من هذه الطبيعة تكون له طبيعة أخرى يعود فيها إلى الهدوء . وفي وسع الناس آنذاك أن يتخذوا الاحتياطات اللازمة بإقامة السدود والحواجز والأرصفة، حتى إذا ما ارتفع ثانية انسابت مياهه إلى أحد الأقنية ، أو كان اندفاعه لا ينطوي على تلك الخطورة وذلك الجنون . وهذه هي الحالة مع القدر الذي يبسط قوته عندما تنعدم الاجراءات لمقاومته ، ويوجه ثورته إلى حيث لا توجد حواجز ولا سدود أقيمت في طريقه لكبح جماحه . وإذا ما تطلعت إلى ايطاليا التي كانت مسرحاً لهذه التبدلات العظيمة ، والتي دفعت الناس إلى الإيمان بذلك الرأي ، وجدت انها بلاد لا تضم شيئاً من الحواجز والسدود مهما كان نوعه . ولو قدرت لها الحماية بالوسائل الصحيحة كالمانيا واسبانيا وفرنسا ، فإن هذا الفيضان ما كان ليحدث تلك التبدلات العظيمة التي أحدثها ، أو لما وقع الفيضان على الاطلاق .

واعتقد ان في ما قلته الكفاية عن طرق مقاومة القدر بصورة عامة ، أما إذا أردت تقييد نفسي في قضايا معينة ففي وسعي أن

أشير إلى أننا نرى اليوم أميراً معيناً يكلل السعد هامته ، ثم نراه غداً وقد تحطم دون أن نرى فيه تبدلاً في طبيعته أو في أي شيء آخر . انني لأعتقد جازماً ان هذا التبدل نجم من الناحية الأولى من الأسباب التي سبق لي شرحها بإسهاب وتفصيل ، او بكلمة أخرى ، لأن هذا الأمير قد أركن كلية إلى القدر، فحطمه القدر ، عندما دارت عجلته . واني لأعتقد أيضاً بسعادة ذلك الانسان الذي تتفق طريقة اجراءاته مع مقتضيات الزمن ، وبتعاسة من يعارض في اجراءاته تلك المقتضيات . واننا لنرى النـــاس يختلفون في الطرق التي يتبعونها للوصول إلى ما يستهدفونه دائماً من مجد وثراء . فمنهم من يلجأ إلى الحذر ومنهم من يختـــار التهور ومنهم من يتبع العنف ، وآخرون يتبعون الحيلة والمكر ومنهم من يصبر ويصابر ، وآخرون يتسرعون، ولكنهم جميعاً قد يصلون إلى اهدافهم . وقد نرى شخصين حذرين ينجح أحدهما في مشاريعه ، بينما يفشل الآخر . وقـــد نجد من ناحية أخرى شخصين يصلان إلى هدف واحد ، بطريقين مختلفين ، أحدهما ينطوي على الحذر والاناة ، والآخر على التسرع والمجازفة . وكل هـذا ينجم عن اختلاف طبيعة الزمن التي قد تتفق أو لا تتفق مع طريقة الاجراء . وينتج عن هذا كما قلت، ان رجلين يعملان بطريقتين متباينتين، يصلان إلى نفس النتيجة ، بينما هناك رجلان آخران ، يعملان بنفس الأسلوب فينجح الأول ، من حيث يفشل الثاني . وعلى هـــذا تتوقف أيضاً التبدلات في النجاح والازدهار ، فقد يحدث ان تكون عوامل الزمن والظروف

ملائمة لرجل يعمل بحذر وحسن تبصر ، فيلقى النجاح ، ثم لا تلبث أن تختلف عوامل الزمن والظروف فيتحطم ، لأنه لم يغير طريقته في العمل . ولم يحدث قط أن وجد انسان على هذا القدر من التعقل والروية ، بحيث يكيف نفسه لجميع هذه العوامل ، أما لأنه لا يستطيع الانصراف عما تميل اليه طبيعته ، أو لأنه ، وقد ألف النجاح في السير على طريق واحدة ، لا يستطيع إقناع نفسه ، بان من الخير له أن يتركها . ولذا فإن الرجل المتعود على الأناة يرى نفسه عاجزاً عن تكييف أعمال عندما تقتضي الضرورة السرعة ، فيلحق به الخراب والدمار . وإذا كان باستطاعة الانسان أن يغير طبيعته وفقاً لتغير الأزمنة والظروف ، فإن القدر لا يتغير أبداً

وكان البابا يوليوس الثاني متهوراً في كل ما عمله ، وقد رأى الأوقات والأوضاع ، متفقة مع طريقته في العمل ، بحيث تمكن دائماً من الحصول على نتائج مثمرة .

ولندرس الآن الحرب الأولى التي شنها على بولونا عندما كان السيد جيوفاني بنتفوغلي لا يزال على قيد الحياة ، ولم يكن البنادقة راضين عن هذه الحرب ، وكذلك ملك اسبانيا . وكانت فرنسا لا تزال تتشاور معه حول هذا المشروع ، ومع ذلك ، فنتيجة لميوله العنيفة والمتهورة، أقدم شخصياً على حملته . وقد أدت حركته إلى أن يقف البنادقة ، واسبانيا موقف المتردد ، وذلك بسبب خوف البنادقه من ناحية ،

ورغبة اسبانيا في استعادة مملكة نابولي بكاملها . وتمكن من الناحية الثانية من أن يجر إلى جانبه ملك فرنسا ، إذ أن هذا ، وقد رآه يقدم على حركته ، ورغبة منه في صداقته ليخضع عن طريقها البنادقة ، قرر أن ليس باستطاعته أن يضن عليه بإرسال قوات لمساعدته دون أن يسبب له رفضه إساءة بالغة . وهكذا تمكن يوليوس عن طريق تهوره ، من تحقيق ما عجز غيره من الباباوات ، عن تحقيقه عن طريق التحكم والعقل ، ولو تمهل حتى يتم اتخاذ الترتيبات ، وتمهيد كل شيء قبل أن يغادر رومة ، في طريقه لتحقيق مشروعه ، وهو ما كان يعمله حتماً أي بابا آخر ، لما نجح في الحصول على هدفه . إذ أن ملك فرنسا ، كان سيجد حتماً ألف مبرر ، لإقناعه بالتريث ، وكان الآخرون سيوحون اليه بالوف المخاوف التي تساورهم . ولن أتحدث عن أعماله الأخرى ، التي كانت جميعاً من هذا النوع ، والتي انتهت كلها إلى النجاح . ولا ريب في أن قصر حياته ، هو الذي وفر عليه تجربة الفشل ، إذ لو طالت حياته وجاءت الأوقات التي تتطلب منه أن يعمل بحذر وتعقل ، فإن مصيره كان الدمار حتماً ،إذ أنه أعجز من أن يتحول عن تلك الأساليب التي تميل اليها طبيعته .

وإني لأختتم حديثي قائلاً ، بان الحظ يتبدل ، أما الناس فيبقون ثابتين على أساليبهم ، وهم ينجحون ، طالما أن أساليبهم تتوافق مع الظروف ، أما عندما تتعارض فإن الفشل سيكون من نصيبهم . وإني

لأعتقد أن التهور خير من الحذر ، ذلك لأن الحظ كالمرأة ، فإن أردت السيطرة عليها ، فعليك أن تغتصبها بالقوة . وهي بدورها تسمح بامتلاكها للرجل الشجاع ، لا لذلك الذي يسير بتمهل وأناة . والحظ شأنه في ذلك شأن المرأة ، يميل دائماً إلى الشباب ، لأنهم أقل حذراً وأكثر ضراوة ، ويمتلكونه بقحة وجرأة .

●

٢٦

الحض على تحرير ايطاليا من البرابرة

والآن ، وبعد أن درسنا جميع هذه الأمور التي تحدثت عنها ، وبعد أن فكرت طويلاً فيما إذا لم يكن الوقت الحاضر مناسباً في ايطاليا لظهور أمير جديد ، وما إذا لم تكن الأوضاع قد أتاحت الفرصة لظهور رجل قدير ورصين ، يدخل نظاماً جديداً ، يضفي عليه الفخار ، وعلى جماهير الشعب الخير والسعادة ، بدا لي ثمة عوامل عدة تتفق على تأييد قيام حاكم جديد ، بشكل لا مثيل له في الماضي من حيث الصلاح لمثل هذا المشروع . وإذا كان من الضروري كما سبق لي أن قلت، لظهور قوة موسى، أن يكون الاسرائيليون عبيداً في مصر، وأن يضطهد الماديون أبناء فارس حتى تبدو شجاعة كورش وعظمته ، وأن يكون الاثينيون ممزقين ، متفرقين ، لتتجلى عبقرية تيسيوس وبروزه . فإن من الضروري في الوقت الحاضر للإعتراف بقوة عبقري

ايطالي ، أن تكون ايطاليا على ما هي عليه من أوضاع راهنة ، وأن يكون أهلها مستبعدين أكثر من اليهود ، ومضطهدين أكثر من الفرس ، وممزقين أكثر من اليونانيين ، لا زعيم لهم ، ولا نظام ، مغلوبين على أمرهم ، ومسلوبة أموالهم ، وممزقين ، وأذلاء ، وأن تكون بلادهم قد احتملت من الدمار والخراب كل شكل ونوع .

وعلى الرغم من ظهور إشراقة من الأمل ، أوحت بأن الله قد اختار انساناً لإنقاذها ، إلا أن هذا الانسان ، عندما بلغ ذروة مجده ، طوح به الحظ جانباً . وهكذا ، غدت البلاد بلا حياة تقريباً ، تتطلع إلى ذلك الانسان الذي يمكن له أن يداوي جراحها ، وأن يضع نهاية لدمار لومبارديا ونهبها ، والجشع والاغتصاب البارزين في مملكة نابولي وفي تسكانيا ، وأن يشفي بثورها المتقيحة منذ أمد طويل . وها هي ايطاليا تبتهل إلى الله في كل يوم أن يبعث اليها بمن ينقذهـا من هذه الفظاظة البربرية والحمق الأعمى . إنها على استعداد ، وتواقة إلى اللحاق بكل راية ، شريطة أن يكون هناك من يحملها ويرفعها . وليس ما ترجوه الآن ، وتأمل فيه ، إلا أن ترى أسرتك المشهورة تتولى دور القيادة في حركة الإنقاذ ، لا سيما وإن القوة تمجدها ، والحظ حليفها والله والكنيسة معها ، إذ أن أسرتك الآن ، هي التي تحكم الكنيسة ، ولن يكون هذا شاقاً أو صعباً ، إذا تذكرت دائماً حياة الرجال المشهورين الذين ذكرتهم وأعمالهم المجيدة . وعلى الرغم من ندرة هؤلاء الرجال وعظمتهم ، إلا أنهم كانوا على كل حال من الرجال ، ولم تتح

لأي منهم الفرص المتاحة الآن . إذ أن مشاريعهم لم تكن أكثر عدالة ولا سهولة من مشروعك . ولم يكن الله معهم بقدر ما هو معك ، فهنا قضية عادلة ، ويتمتع الشيء العادل دائماً بالجمال ، ويكون ضرورياً ، وليس في وسع أية قوة ، مهما كانت وحيثما جاءت أن تدمره أو أن تقضي عليه ، وهذا الإرادة العظمى ، وحيث توجد الارادة تنعدم المصاعب ، شريطة أن تتبع الاجراءات التي سردتها عليك كأمثلة . يضاف إلى هذا ، ان الله قد حقق معجزات لا مثيل لها ، فالبحار قد مهدت وفتحت طرقها، والسحب قد أرشدتك إلى الطريق، والماء قد انطلق نابعاً من الصخر ، وأمطرت السماء المن والسلوى ، وساهم كل شيء في الإعداد لعظمتك ، شريطة أن تقوم أنت بإنجاز ما تبقى . ولا يقوم الخالق بعمل كل شيء ، ليترك لنا المجال لارادتنا الحرة لتعمل ، وليسمح لنا بجزء من المجد ، يكون من حقنا ونصيبنا .

وليس من الغريب ، أن لا يقوم أيّ من الايطاليين الذين سبق لي ذكرهم . بإنجاز ما يتوقع من بيتك المجيد القيام به . وإذا كانت الكفاءة العسكرية لم تظهر في هذا العدد الجم من الثورات التي وقعت في ايطاليا ، وفي هذه العمليات الشبيهة بالعسكرية ، فإن السبب في ذلك أن الأساليب القديمة لم تكن مجدية ، ولم يظهر أحد كان قادراً على اكتشاف أساليب جديدة . وليس ثمة أكرم على الانسان البارز حديثاً من إدخال قوانين وإجراءات حديثة . وعندما تقوم مثل هذه الأمور على أسس سليمة ، وتنطوي على العظمة ، فإن مبتدعها ، يقابل

بالاحترام والإعجاب . والمجال متسع في ايطاليا لإدخال أي نوع من التنظيمات الجديدة . والفضيلة متوفرة إلى حد عظيم في الأعضاء ، إذا لم يكن الرؤوس والقادة مفتقرين اليها . وانظر إلى المبارزات وأعمال الصراع التي تقتصر على القـــلة من المتبارزين والمتصارعين ، تجد أن الايطاليين يتفوقون في القوة والمهارة والذكاء . أما عندما نصل إلى موضوع الجيوش ، فإننا نرى الايطاليين فاشلين فيهـــا ، وهذا ناجم بالطبع عن ضعف القادة ، ذلك لأن الذين يعرفون لا يطاعون . وكل انسان يتوهم نفسه عارفاً عالماً ، لا سيما وهم يفتقرون إلى ذلك القائد الذي ارتقى سلم العظمة عن طريق الشجـــاعة والحظ ، وفرض على الآخرين إطاعته . وهكذا يبدو إنه لأمد طويل ، وفي خلال الحروب التي نشبت إبان العشرين سنة الماضية ، وحيثما وجد جيش ايطـــالي خالص ، برهن هذا الجيش عن فشله ، كما وقع في تارو والاسكندرية وكابوا وجنوا وفاييلا وبولونا وميستري .

وإذا أراد بيتك النبيل ، تبعـاً لذلك ، أن يحذو حـذو أولئك الرجال العظام الذين أنقذوا بلادهم ، فعليك قبل كل شيء ، كأساس لأي مشروع من مشاريعك ، أن تحيط نفسك بقواتك الخاصة ، إذ لا جيش أكثر إخلاصاً وصدقاً ، وقدرة على القتال من مثل هذا الجيش . وعلى الرغم من أن كل جندي منهم قد كان باسلاً محارباً ، فإنهم إذا ما اتحدوا ، أضحوا أفضل وأحسن ، بعد أن يروا أنفسهم ، وقد قادهم أميرهم وأكرمهم بعطفه ورعايته . ولذا فمن الضروري أن تعد مثل

هذه القوات لتتمكن بقوة ايطاليا وحدها من الدفاع عن البلاد ضد الأجانب . وعلى الرغم من اعتبار السويسريين والاسبان من المحاربين الأشداء ، إلا أن لكل منهم عيوبه ، ولذا فإن اختيار طريقة ثالثة من التنظيم ، لا تمكنك من مقاومتهم فحسب ، بل تجعلك واثقاً من التغلب عليهم . فليس في وسع الاسبانيين احتمال هجمات الفرسان . كما ان السويسريين يخشون مقابلة المشاة الذين يقابلونهم بعزيمة وتصميم . وقد أدى هذا ، كما أثبتت التجارب ، إلى أن الاسبانيين لا يستطيعون مواجهة هجمات الفرنسيين ، وإن السويسريين لا يصمدون أمام المشاة الاسبان . وعلى الرغم من عدم توفر مثل كامل على الحقيقة الأخيرة ، إلا أن بعض الدلائل قد ظهرت في معركة رافينا ، عندما هجم المشاة الاسبان على الألوية الألمانية المنظمة على غرار الجيوش السويسرية . وقد تمكن الاسبانيون بفضل سرعة حركتهم الجسمانية وما يلقونه من عون درقاتهم وتروسهم، من التوغل في صفوف الألمان الذين أضحوا في وضع لا يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم ، ولو لم يشن الفرسان هجوماً على السويسريين ، لتمكن هؤلاء من تحطيم الألوية الألمانية بكاملها . ولما كنا نعرف عيوب هذين النوعين من المشاة ، فإن في وسعنا أن نحقق طرازاً ثالثاً ، يكون في وسعه أن يصمد للفرسان ، وأن لا يخشى المشاة . وهذا الطراز يمكن إعداده عن طريق حسن الاختيار والتنظيم السليم . وهذه هي الأمور التي إذا أدخلها الأمير المحدث مجدداً فيها ، حصل على العظمة وذيوع الصيت .

ومن الواجب أن لا تضيع هذه الفرصة ، فتتمكن ايطاليـــا في النهاية من العثور على محررها . وليس في وسعي أن أصف ما سيلقاه هذا المحرر المنقذ من حب في جميع المقاطعات التي عانت الولايات تحت نير الغزوات الأجنبية ، ولا ما سيجده من تعطش للثأر ، وإيمان ثابت ، وولاء أكيد ، ودموع الشكر والعرفان . إن الأبواب ستفتح جميعها على مصاريعها أمامه ، وإن الشعب بأسره سيقابله بالطاعة والولاء ، ولن يجد من يحسده ، ولن يتأخر ايطـــالي واحد عن الانضواء تحت لوائه . فهذه السيطرة البربرية تزكم أنف كل انسان . فهل يتاح لبيتك العظيم ، أن يتولى هذه المهمة ، متسلحاً بالشجاعة وبالآمـــال ، التي تلهمها قضيتنا العادلة ، حتى يتاح لنا تحت رايتكم الخفاقة ، أن نرتفع بوطننا ، وحتى يتحقق تحت اشرافكم ما قاله بترارك :

« إن الشجاعة ستثور أخيراً ضد الغضب الأعمى .
فتعجل من موعد المعركة .
إذ من المؤكد أن القيم العريقة
التي كانت تستفز قلوب الايطاليين ، لم تمت بعد » .

– انتهى –

تراث الفكر السياسي
قبل "الأمير" وبعده

(عرض عام)



تعقيب

فاروق سعد

مدخل

« .. في الزمن القديم كانت توجـــد آلهة
فحسب ، ولم تكن توجـد مخلوقات فانية ،
ولكن حينما حان أوان خلقها ، شكلها الآلهة
من التراب والنار وأخلاط متنوعة من كلا
العنصرين في الأجزاء الباطنيـة من الأرض ،
وحينما كان عليهم أن يخرجوها إلى ضوء النهار
أمروا برومثيوس وأبيمثيوس أن يجهزوهـــا
ويوزعوا عليها صفاتهم الخاصة ، وقال أبيمثيوس
لبرومثيوس : دعني أقوم بالتوزيع وتقوم أنت
بالمراقبة . وتم الاتفاق على ذلك وقام أبيمثيوس
بالتوزيع ، فكان من المخلوقـات من أعطاها
القوة دون السرعة ، بيـنما زوّد الضعيف
بالسرعة ، وسلّح بعضها وترك أخرى عزلاء
ابتكر لها وسائل أخرى للمحافظة على البقاء ،
فصنع بعضهم ضخامـــاً تحميهم ضخامتهم ،

وبعضهم ضئالاً تتيح لهم ضآلتهم أن يطيروا أو يتخذوا في الأرض جحوراً تكون وسيلتهم في الهرب. وبذلك جعل لهم عوضاً بقصد منع أي جنس من الانقراض ، وحينما زودها بما يمنع تدمير جنس منهم لجنس آخر ، تحايل كذلك على تجهيزهم بوسيلة تحميهم من تقلبات الطبيعة ، فكساهم بشعر كث وجلد غليظ ، من شأنه أن يحميهم من برد الشتاء وحر الصيف بحيث يكون لهم من ذاتهم فراش طبيعي حين يطلبون الراحة . وزودهم كذلك بحوافر وشعر وجلود خشنة سميكة في أقدامهم ، ثم هيأ لهم أنواع الطعام المختلفة ، فهيأ للبعض حشائش الأرض وللبعض ثمار الشجر وللبعض جذورها وأعطى للبعض الحيوانات كغذاء وهيأ البعض لإنجاب عدد قليل من الذرية بينما جعل آخرين كثيري الإنجاب ، وبهذه الطريقة كان يحافظ على الجنس .

هذا ما فعله ابيمثيوس الذي نسي – ولم يكن يتمتع بحكمة كبيرة – انه وزع بين الحيوانات المتوحشة كل الصفات التي كان عليه أن يمنحها لها ، وحينما جاء دور الانسان – الذي لم يكن مزوداً بشيء – وقع في حيرة شديدة ، وبينما هو في هذه الحيرة ، جاء بروميثيوس ليراقب التوزيع ، فوجد أن الحيوانات الأخرى قد زودت بما يناسبها ، بينما

ترك الانسان عاري الجسم والقدم لا يملك مأوى ولا أسلحة للدفـاع . وحانت الساعة المحددة التي كان على الانسان أن يخرج فيها بدوره إلى ضوء النهـــار . وسرق بروميثيوس الذي لم يعرف كيف يبتكر للانسان وسيلة لحمايته ، — سرق الفنون الآليـــة الخاصة بهفايستوس وأثينا ومعها سرق النار (ومـا كانت هذه الفنون لتستخدم أو يستعان بها بغير النـار) وأعطاهـا للانسان ، ولذلك كان للانسان من الحكمة ما يساعده على الحياة ، ولكنه لم يتزود بشيء من الحكمة السياسية لأنها كانت في حوزة زيوس. ولم تستطل قوة بروميثيوس حتى تدخل معراج السماء حيث يقوم زيوس ، وحـــوله حراس أشداء ، ولكنه دخل مستخفياً مصنع اثينا وهفايستوس حيث اعتـــادا أن يحتفظا بفنيهما المفضلين ، فأخذ فن هفايستوس ، وهو استخدام النار ، وكذلك فن أثينـا وأعطاهما للانسـان ، وبهذه الطريقة زود الانسان بوسائل الحياة . ولكن قيل بعد ذلك أن بروميثيوس حوكم على السرقة بسبب هفوة من ابيميثيوس . والآن وقد تزود الانسان بنصيب من الصفات الإلهيـــة ، انفرد في البدء من بين الحيوانات باتخاذ أرباب ، لأنه كان الوحيـد الذي تزود بصفاتها ، فأنشأ لها الهياكل والصور ، ولم يمض وقت طويل حتى اخترع اللغـــة والأسماء

وعرف تشييد المساكن وصنع الملابس والأحذية والفرش ، وأقام من الارض دعامة . وإذ زود الانسان على هذا النحو عاش بنو الانسان أول الأمر مشتتين إذ لم يكن هناك مدن . وكانت النتيجة أن هددتهم الحيوانات المفترسة بالتدمير ولأنهم كانوا — إذا قيسوا بهـا — في غاية الضعف . ولم يسعفهم فنهم إلا في تزويـدهم بوسائل الحياة دون أن يمكنهم من شن الحرب على الحيوانات ، فكان لهم طعام ولم يكن لهم فن حكومة تكون الحرب جانباً منه ، وبعد مدة كانت الرغبة في حفظ الذات داعياً لهم ليتجمعوا في مدن ، بل انهم حين تجمعوا معاً لم تكن لهم دراية بفن الحكومة ، كان بعضهم يسيء معاملة البعض ، وتعرضوا بعـد ذلك لعوامل التشتت والدمار ، وخشي زيوس أن ينقرض النوع البشري ، ولذلك أرسل هرمس إليهم يحمل الوقـار والعدالة لتكون هي المبادىء النظامية التي تتبعها المدن والمجموعات التي تسودها الصداقة والسلام . وسأل هرمس زيوس كيف ينشر العدالة والوقار بين الرجال؟ وهل يوزعها كما توزع الفنون ، بمعنى أن توزع بين قلة مفضلة فقط ، فيأخذ الرجـل الماهر الكفاية من علم الطب أو من أي فن آخر مثل أي رجل غير ماهر ؟ أتكون تلك الطريقة هي التي أوزع بها العدالة والوقار بين الناس ؟

أم أمنحها للجميع ؟ فقال زيوس : للجميع ، فأنا أفضل أن يأخذ كلّ بنصيب ، ولا يمكن أن توجد المدن إذا حظي عدد قليل من الناس فقط بنصيب من الفضائل ، كما هو الحال في الفنون ، وأبعد من ذلك عليك أن تصدر قانوناً بأمري بأن من لا يملك نصيباً من الوقار والعدالة سوف يحكم عليه بالموت كالمنبوذ في الدولة .

وهذا هو السبب يا سقراط في أن الأثينيين والجنس البشري عامة إذا ما أثير سؤال حول النجارة أو أي فن ميكانيكي آخر لا يسمحون إلا للقليل منهم بالاشتراك في مشاوراتهم وحينما يقحم أي فرد آخر نفسه عليه ، فإنهم – كما تقول – يعترضون إذا لم يكن من القلة المفضلين، وهذا أمر طبيعي فيما أرى . ولكن حينما يتناولون موضوع الفضيلة السياسية التي تتطلب نوعاً من العدالة والحكمة فإنهم يتقبلون بدرجة كافية أي شخص يتكلم عنها ، وهذا أمر طبيعي ، ذلك لأنهم يعتقدون أن كل انسان ينبغي أن يحظى بنصيب في هذا النوع من الفضيلة ، وأن الدول لا يمكنها أن توجد إذا كان الأمر على النقيض من ذلك »[1] .

---

(١) بروتاجوراس ، محاورة لأفلاطون ، ترجمة محمد كمال الدين علي يوسف. سلسلة مذاهب وشخصيات . دار الكاتب العربي – القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٥٥ – ٥٨

تلك هي اسطورة ولادة الفكر السياسي كما رواها افلاطون في محاورة « بروتاجوارس » وذلك في معرض محاولته الخروج بقواعد عامة للديمقراطية والعدالة والدولة .

وما يعنينا من اسطورة افلاطون في هذه الأيام أمران : الأمر الأول هو ارتباط نشأة الفكر السياسي بالمعرفة الاسطورية ، والأمر الثاني هو أن الفكر السياسي كان انعكاساً لانتظام الإنسان في المجموعة البشرية الذي أطلق عليه أول الأمر اسم (المدينة) ثم أصبح (المدينة – الدولة) ، ثم (الدولة) . وأصبح اسمه (العالم) ليضحي (الكون) مجاله في المستقبل ، وذلك بفضل التقدم التكنولوجي الهائل وما يستتبعه من تبدل حضاري جذري شامل .

والواقع ان الفكر السياسي في نشأته وتطوره كان ولا يزال قريناً لنشوء وتطـــور المعرفة الإنسانية ، منطلقاً من المعرفة الاسطورة ليصل إلى المعرفة العلمية المنهجية ، مواكباً الأطوار التي مرت بها المعرفة عبر التاريخ الحضاري للانسانية . تلك الأطوار التي هي على حد سلسلة أوغست كونت : الطور التيولوجي ، الطور الميتافيزيقي ، الطور العقلاني الإيجابي .

١ـ الفكر السياسي قبل الأمير

الأسطورة :

إذا لا بـد لتأريخ الفكر السياسي من الاستهلال بالمعرفة الاسطورية التاريخية ، ذلك ان الأفكار السياسية للشعوب القديمـة أمثـال السومريين والبابليين والأشوريين والفينقيين والفراعنة والصينيين والهنود والاغريق (في بداية عهدهم) تمتزج بأساطيرها القديمة وتتمثل بهـا بحيث انه لا يمكن العثور على مفاهيمها في الحكم والسلطة والعدالة والدولة والحرب والسلام ، إلا ضمن

الأساطير حيناً منطوية في سياق بنائهـــا الروائي ، وحيناً آخر في مرامي مغازيها . وهذا لم يمنع في أن يكون للحضارات القديمة في الشرقين الأدنى والأقصى بصورة خاصة دور في تكوين معطيات ومقومات التفكير السياسي والاجتماعي حيث يتجلى ذلك فيما رواه أفلاطون في محـــاورتي طيماوس وكريتياس [١] عن نظام الحكم الذي ســـاد أطلنتس ، القارة المفقودة ، قبل أكثر من اثني عشر ألف سنة [٢] وما حملته ألواح سومر من محضر جلسة لبرلمان آرك انعقدت قبل حوالي خمسة آلاف سنة وقوانين بيلا لاما وأورك عجينا وأورنمو [٣] وما انطوت عليه أوراق البردى من وصايا وتنبؤات في الحـــكم والدولة لأيبو ور وبتاح حوتب ونفر روهو وتشريع حور محب [٤]

---

(١) Platon : Sophiste, Politique, Philélbe, Timée, Critias, Trad. et Notes Par E. Chambry, coll. G. F. (Garnier - Flammarion) Paris 1969

(٢) A. Bessmerty : L'Atlantide . Payot, Paris 1949

D. Saurat : L'Atlantide. Flammarion, Coll. J'ai lu, No. A-187 . Paris 1969

(٣) صمويل كريمر : من ألواح سومر ، ترجمة طه باقر . مكتبة المثنى – الخـــانجي بغداد-القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٨١ – ٨٨ و ١٠٥ – ١٢٣

د. أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم . مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٣ ، ص ٣٥ – ٣٦

موسكاتي : الحضارات السامية القديمة . ترجمة الدكتور سيد يعقوب بكر . دار الكاتب العربي . القاهرة ص ٣٥ و ٩٥ – ٩٦ و ٢٦٩ – ٢٧٠ (رقم ٥١)

(٤) ويل ديورانت : قصة الحضارة في العـــالم . لجنة التأليف والترجمـــة والنشر . القاهرة ، ١٩٦١ . المجلد الأول ، الجزء الثاني . ترجمة محمد بدران وزكي نجيب محمود ص ٦٧ – ٧١

محمد العزب موسى : أول ثورة على الاقطـــاع . كتاب الهلال . دار الهلال . القاهرة . العدد ١٨٢ ، مايو ١٩٦٦ . ص ٤٧ – ٥١ ، ٦٧ – ٧١ ، ٨٢ – ٨٤ .

تشريع حور محب : ترجمة وتعليق باهور لبيب وصوفي أبو طالب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢

انطوت عليه مدونات شريعة مانو [٧] ووثائق دوق تشو [٨] .

ولكن إذا كان الإغريق قد تلقوا معارف شعوب الشرق القديمة وشابت تفكيرهم السياسي المعرفة الاسطورية في وقت من الأوقات ، فهذا لم يكن ليحول دون تأكيد الواقع في انه كان لهم الفضل في الارتفاع بالتفكير السياسي إلى المستوى المنهجي للمعرفة . وكانت تباشير ذلك ، يوم استشرف افلاطون رؤيا المدينة الفاضلة .

٢ - الرحلة إلى المدينة الفاضلة :

أ - الحكماء السبعة : ولكن للوصول إلى المدينة الفاضلة ، تلك التي استشرف رؤيتها افلاطون ، كان لا بد للفكر السياسي من رحلة طويلة ، وكان لا بدّ أن يوجد من يسهم في تلك الرحلة . وكان « الحكماء السبعة » الذين لم يعرفنا التاريخ إلى أسمائهم ، باستثناء سولون ، أول من أسهم في تلك الرحلة . وجاءت افكار هؤلاء الحكماء في قالب أمثال ، يقول عنها افلاطون أنها تتضمن بعض النتائج الصادقة ، وصلوا إليها عن طريق التجربة أو كشفوها بعيونهم الفاحصة . ويعطينا بلوتارك بعض معالم تلك النتائج ، في صورة لهؤلاء الحكماء وهم يناقشون الشروط التي يجب توافرها لتحصل الدولة على أعظم سعادة .

---

(٥) برستد : انتصار الحضارة ، ترجمة د. أحمد فخري مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢ .
د. محمد الأمين : قوانين حورابي والقوانين البابلية - مجلة كلية الآداب ، منشورات جامعة بغداد . عدد كانون الثاني ١٩٦٢ ، ص ١٨٨
سليم حتي : منهل الشرائع ، دار الفارس - بيروت
ديورانت : المرجع الآنف الذكر - ٢٠٧ - ٢١١

(٦) سيد مظفر نادفي : التاريخ الجغرافي للقرآن . ترجمة د. عبد الشافي عبد القادر . نشر لجنة البيان العربي . القاهرة ، ص ١٧٩ - ١٨٦
د. أنيس فريحة : أحيقار . الجامعة الأميركية . بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٨٣ - ١٩٦

(٧) ديورانت : المرجع الآنف الذكر : ٣ ، (الهند وجيرانها) ١٩٦٨ ، ص ١٦١ - ١٨٤

(٨) هـ. ج. كريل : الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونغ ، ترجمة عبد الحميد سليم . الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧١ ، ص ٤٣ - ١٣٨

وكان ما وصلنا عـــن سولون ، أحد هؤلاء الحكماء ، هو الذي أعطـانا صورة شبه كاملة عن افكاره وافكار رفاقه .

عاش سولون في اثينا في القرن السابع قبـل الميلاد . ويحدثنا هيسيود في اشعاره [1] عن أزمة اقتصادية عمت البــلاد زمن شباب سولون ، كان من نتائجها ان ذهبت أراضي آلاف الفلاحين بالرهونات الجارية عليهـا وأصبحت بتملك الأثرياء ، فأدى ذلك إلى اضطرابات في كل مكان . وكان لا بـــد من عقلية جديدة ، وكان لا بد من قوانين حديثة ، لمعالجـــة الأوضاع المتردية . وكانت دروس موحى دلفي التي رددتها اشعار بندار هي التي كونت العقلية الجديدة وكانت تشريعات سولون هي القوانين الحديثة .

وفي الظاهر كانت تشريعات سولون [2]، التي أطلق عليها اسم قانون اتيكا ، بمثابة قواعد لإرشاد موظفي الدولة لضبط اعمالهم الإدراية . ولكن هـــذه القواعد كانت تنطوي على مضامين ذات أبعاد تتجاوز النطـاق الضيق الذي أعدت له أصلاً ، فلقــد سعى سولون إلى إدخال المثـــل الأعلى للمساواة الاجتماعية في دولة مزقتها المنازعات بين الأغنياء والفقراء ، فقضى بإلغـــاء الديون وبالحد من الملكية الفردية للأراضي وتمليك الفلاحين عن طريق توزيـع الأراضي عليهم على النحو الذي يشبه ما هو معروف اليوم تحت اسم «الاصلاح الزراعي » ، ووضـــع سولون أنظمة لتنشيط الحرف والاستعانة بخـبرات الأجانب المتقدمين ، وكان سولون يرمي بذلك إلى إحداث قطـاع جديد في الحياة الاقتصادية يعمل على تأمين وخلق مجالات جديـدة لمعيشة المواطنين ، ونعني به القطاع الصناعي ، بحيث يسير جنباً إلى جنب مع القطاع الزراعي الذي لم يكن وحده كافياً لسد حاجات البلاد ومجالات العمـل . ولم يكتف

---

(1) Hesiode et les poétes Elégiaques et Moralistes de la Grèce Trad . E . Bergougnan . Paris . librairie Garnier 1940, Classiques Garnier

(2) طه حسين : نظام الأثينيين ، دار المعارف بمصر ۱۹۲۱ ، ص ٥١ – ٦٥

سولون بذلك بل سن نصوصاً تحد من ترف الأثرياء وبذخهم المثير للأحقاد .

وكان علاج سولون الأوضاع عن طريق التشريعات انعكاساً لايمانه بسيادة القانون وبضرورة تكريس هذه السيادة .

وإيمان سولون بسيادة القـــانون وبضرورة تكريسها ، هي التي جعلتـه يصوغ مبدأ حق « الجماعة » التي لها « عبادة مشتركة » في أن تضع لنفسها قوانينا تعترف الدولة بصلاحيتها وشرعيتها بالنسبة لاعضاء الجماعة ما دامت لا تتعارض مع قوانينها . والجماعة التي خولها سولون هـذا الحق هي التي اتخذت صوراً متعددة تعرف اليـــوم باسم الأحزاب أو النقابات والجمعيات والشركات .

والمحاكم الشعبية والمجالس التأديبية ومجلس الشورى كانت لها معالم أولية في تشريعات سولون. ففي تنظيم وأصول محاكمات محكمة هيدلياپا التي وضعها سولون نجد من صلاحياتها ما يتناول مراجعة أعمال الادارة وسلوك الموظفين، كما نجد أن من حق أي مواطن (غني أو فقير) أن يأخذ مكانه كقاض فيها[1].

ب – العدد المربع

وكان لا بدّ لرحـلة الفكر من المرور بالفيثاغوريين[2] والمكوث معهم فترة من الزمن . فقد وجد هؤلاء في نظريات معلمهم[3] المادية في تفسير الطبيعة والعلم حلولاً تنطبق على حياة الانسان ، واكتشفوا في العلاقات المتبادلة بين العناصر في الطبيعة صورة مماثلة للعلاقات الأخلاقية للانسان . وليست فكرة العدالة لديهم سوى انعكاساً لنظرية العدد الفيثاغورية ، فهي تترجم الى عدد من الأعداد مضروب في نفسه . وبصورة أخرى هي عدد مربع، وهو العدد الذي يشكل انسجاماً كاملاً لتشكله من أجزاء متساوية عددها يساوي القيمة

---

(١) سير أرنست باركر : النظرية السياسية عند اليونان ، ترجمة لويس اسكندر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٦٦ ، الجزء الأول ص ٨٥ – ٩٢

(٢) نسبة الى فيثاغوراس (نحو ٥٨٨ – ٥٠٣ ق. م.)

(٣) فيثاغورس ، طبعاً .

العددية لكل جزء على حدة . وانطلاقاً من هذا التعريف للعدالة بكونها عدد مربع ، نصل الى نتيجة وهي أن الدولة تتكون من أجزاء متساوية. والعدالة هي المحافظة على هذه المساواة ، وبالتالي فإن الدولة تظل عادلة طالما أن المساواة قائمة بين أجزائها [1]

ولكن الفكر السياسي ما لبث أن ابتعد عن الفيثاغوريين لينعطف عند مدينة ايليا حيث ظهرت معالم الثورة ضد الفلسفة الطبيعية ، وحيث كان بارمينيدس (نحو ٥٤٠ – ٤٨٠ ق. م) يسن تشريعات للمدينـــة . والتقى الفكر السياسي في طريقه بسترابون وهو يتحدث عن دفاع زينون (نحو ٤٨٠ – ٤٣٠ ق. م) عن الحرية فكرياً وعملياً ضد أحد الطغـاة . وتمهل الفكر السياسي قليلاً عند امبادوقليس الشاعر والفيلسوف والبيولوجي والسياسي ، وهو يهاجم لجنة الألف في مدينة اجريكتم ويرفض أن يرتقي عرش الملك الذي عرضه عليه أحد المواطنين. وهنا لا بد من الاشارة الى هيراقليطس(نحو٥٣٥ – ٤٧٥ ق.م) وهو يؤكد عظمة القانون الانساني على أساس تفسيره لثبوت « المادة المشتركة » .

حتى اذا وصل الفكر السياسي الى اثينا كان ارخيلاوس تلميذ أناكساغوراس زمن بركليس يعلن الفرقة بين الطبيعة والقانون فى دنيا المسائل الانسانية

٢ – كونفوشيوس

وفي ذلك الحـين كان كونج – فو – دزه الملقب بكونفوشيوس (٥٥١ ق.م) يزود تراث الفكر السياسي في الصين والعالم بمؤلفات منها: كتاب « التعليم الأكبر » ، كتاب « الأغاني » ، كتاب « عقيدة الوسط » .

---

(١) سير ارنست باركر : المرجـــع الآنف الذكر ص ٩٢ - ١٠٠ .
– الدكتور عمر فروخ : العرب والفلسفة اليونانية . المكتب التجاري - بيروت ١٩٦٠

أ – التعليم الأكبر

في هذا الكتاب عرض كونفوشيوس لأسباب الحروب فردها إلى فساد الحكم معتبراً ان الشرائع الوضعية التي يقوم عليها نظام الحكم لا تستطيع، مهما كثرت وتنوعت، أن تحل محل النظام الأجتماعي الطبيعي المفترض ان تهيئه الأسرة. ولكن الأسرة مختلة وعاجزة عن تهيئة النظام الأجتماعي الطبيعي. ذلك ان البشر يغفلون تقويم نفوسهم الذي هو السبيل لتنظيم امرهم. ثم أن تقويم النفوس لايكون إلا بتطهير القلوب، وهذا لا نتحقق إلا بالأخلاص في التفكير، وتقدير الحقائق قدرها، وكشف الطبائع، والأخلاص في التفكير والتوسع في المعرفة إلى أقصى حد مستطاع وذلك ببحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء. وبذلك تتطهر القلوب من الشهوات الفاسدة وبذلك تستصلح النفوس ومن ثم أحوال الأسر. فإصلاح الأسرة لا يكون عن طريق المواعظ التي تحث على الفضيلة تحت طائلة العقاب الشديد الرادع بل ان الذي يصلحها هو ما للقدوة الحسنة من قوة حياتية. أما تنظيم شؤون الأسرة فهو يتم عن طريق المعرفة والأخلاص والقدوة الصالحة وبذلك يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسها نظام اجتماعي يتيسر معه قيام حكم صالح. وإنه بمحافظة الدولة على الهدوء في أرضها وتمسكها بالعدالة في ارجائها يسود السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من يعيشون فيه.

ب – الأغاني

ويسجل كونفوشيوس في كتاب الأغاني حواراً بينه وبين «تزه–كونج» عن المجتمع والحكم.

ويحدد كونفوشيوس في بداية الحوار مهمة الحكومة أية حكومة، ودورها في تحقيق ثلاث أمور : أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام، وكفايتهم من العتاد الحربي، والثقة بحكامهم.

ويسأل « تزه – كونج » كونفوشيوس عن الأمر الذي يمكن التخلي عنه أولاً فيما إذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الأمور التي على كل حكومة تحقيقهـــا . ويجيب كونفوشيوس أن الأمر الأول الذي يمكن التخلي عنه هو العتاد الحربي .

ثم يسأل «تزه – تونج» عن أي من الأمرين الباقيين يمكن التخلي عنه أولاً فيجيب كونفوشيوس قائلاً : فلنتخل عن الطعام ، ذلك ان الموت منذ الأزل قضاءً محتوماً على البشر . أما إذا لم يكن للناس من ثقة بحكامهم فلا بقاء للدولة .

جـ – عقيدة الوسط والجمهورية العالمية الواحدة

وفي كتاب عقيدة الوسط يعرض كونفوشيوس لممارسة الحكم . فهو يرى ان تصريف شؤون الحكم يقتضي أن يناط بالأشخاص الصالحين ولا سبيل إلى ذلك إلاّ إذا كان الحاكم صالحاً .

والوزارة الصالحة مهمتها الأولى هي السعي لتأمين الأكتفاء الذاتي وتوزيع الثروات على الناس على اوسع نطاق ذلك ان تركيز الثروة يؤدي إلى تشتت الشعب وتوزيع الثروة هو السبيل لجمع شتاته

والمهمة الثانية للوزارة هي « تخفيف العقاب » وبمعنى آخر أن تكون العقوبات نصوصاً وتنفيذاً معتدلة غير قاسية .

ثم تأتي المهمة الثالثة للوزارة وهي مهمة هامة وأساسية وهي نشر التعليم لأن التعليم إذا انتشر أدى إلى رفع مستوى المواطنين .

ويتلو التعليم في مهام الوزارة وجوب أن تعنى الحكومة بغرس الأخلاق الطيبة والسلوك القويم بين افراد الشعب لأن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها .

ومما يلفت النظر في كتاب « عقيدة الوسط » تلك الدعوة إلى المبدأ الذي يسميه كونفوشيوس « التماثل الأعظم » وهو المبدأ الذي ان ساد اصبح العالم كأنه جمهورية واحدة يختار فيها الناس لحكمهم اصحاب « الفضائل والمواهب والكفاءات »[1]

٣ - أكاديمية السفسطائيين

وكانت للفكر السياسي وقفة تطلع الى السفسطائيين الذين جاؤوا الى اثينا في عهد بركليس يلقون الدروس في الفصاحة والقدرة العمليـــة ، ولم يكن تلامذتهم من طبقة واحدة، لقد اجتذب التلامذة إليهم ما في تعاليمهم من اعتبار القانون شيئاً مناقضاً للطبيعة وان الحق والقوة شيء واحد !. فلقد قصدهم الأثرياء ليتعلموا الفصاحة كي يستخدموها في قضاياهم الخاصة وسيما للدفاع عن

---

(١) للاطلاع على فكر كونفوشيوس السياسي :

- ويل ديورانت : قصة الحضارة المرجع الآنف الذكر (الصين والشرق الأقصى)
- هـ . ج كريل : الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي كونغ المرجع الآنف الذكر ص ٤٣ ٧٠

D. Leslie : Confucius. Coll. Philosophes de tous les temps. Edit. Séghers. Paris.

H. G. Creel: Confucius. The Man and The Myth. London, New-York. 1957

أنفسهم فيما إذا اتهموا أمام محاكم الشعب ، ويحيطون بفنون القدرة العملية كي يؤهلوا أنفسهم لخوض الانتخابات والتحكم في نتائجهـــا ، حتى إذا حققوا غايتهم في الوصول الى السلطة ، عمدوا الى تعديل الدستور . وكان ذوو التفكير الديمقراطي يتلقون الفصاحة كي تكون وسيلتهم في تأليب الشعب على قلب الأوضاع . وبالفعل لم تمض مدة حتى كان أحـــد هؤلاء وهو الخطيب انتيفون يدبر محاولة انقلابية سنة ٤١١ ق. م .

ولكن تاريخ الفكر السياسي عرف عبر رحلته سمياً معاصراً لانتيفون (القرن الخامس قبل الميلاد) عرف من آثاره مقالاً عن « الحقيقة » تعرض فيه لمسائل فيزيائية وميتافيزيقية وأخلاقية وسياسية يعنينا منها تنويهه بالصلة بين التفكير الفيزيائي والتفكير الأخلاقي ، وكون النظرة الطبيعيـة للكون أوجدت نظاماً طبيعياً في الأخلاق والسياسة . والمهم في مقـــال انتيفون تجريده للقانون التقليدي من قيمته وإلغاؤه فكرة التمييز العنصري بين اليوناني وغير اليوناني معتمـداً تلك النظرة التي اصطلح على تسميتها اليوم بالنظرة الانتروبولوجية. والأهم لدى انتيفون هو تلك البراعم للتفكير المكيافللي، إذ نجد انتيفون يبحث في مقالة عن الحقيقة الفعـالة للأشياء (Verita effetuale) وهي موجودة بالشؤون الانسانية ، لا في أفكار الناس ، بـــل في حالتهم الواقعة ، وهم ينشدون الحياة واللذة لأن ذلك هو القانون الحقيقي لحياتهم [١].

وتعرف الفكر السياسي معرفة أوسع إلى التفكير المعقـد في تعـــاليم السفسطائيين عن طريق جلاوكون غير المنتمي اليهم ، وهو أحد الشخصيات التي اشتركت في الحوار في جمهورية افلاطون . وما نقـله جلاوكون يعطينا فكرة عن سبب نشوء القوانـين بنظره ، فهو سبب وضعي مرده ما يعتبره الناس قانونياً وعادلاً ، وبمعنى آخر هو نتاج اتفاق الناس على الوسيلة الـــتي

---

(١) ارنست باركر : المرجع السالف الذكر ص ١٢٦ – ١٣٠

تحول دون ارتكاب الظلم أو يعرضوا أنفسهم لهم . وبذلك تعاقد الناس على التنازل عن الممارسة الحرة لإرادتهم ، مقابــل حماية أرواحهم ومصائرهم . وهذه هي الصورة الأولى لمـا أطلق عليه فيما بعـد « العقد الاجتماعي » .
والتفكير السفسطائي المتطرف ساقه افلاطون في محاورة جورجياس ناسباً إياه إلى كاليكايس وليس إلى جورجياس ، حيث نجد التنكر الكلي للعدالة التعقيدية التي يعلنها العقد الاجتماعي آخذاً بمبدأ الحق الطبيعي للقوة . والقوة هنا ليست القوة الجسدية والعقلية فحسب ، بل تشمل قوة الشخصية المشتملة على قوة الارادة المستندة الى القدرة الذهنية. وهي التي سماها مكيافللي بالفضيلة ونسبها الى سيزار بورجيا ، وصاحب الفضيلة ليس إلا صورة أولية للسوبرمان لدى النيتشويين [١] .

وإذا كان السفسطائيون قد انقسموا إلى فئتين : المتطرفين والمعتدلين. فقد اتفقوا على عزل الانسان عن الطبيعة . فجورجياس أثبت استحالة التطبيق العملي للأفكار الفيزيائية القديمـة على الانسان . وبروتاجوراس أكد قيمة المقاييس الانسانية وسلامتها [٢] .

٤ — الاوليجاركي المجهول

وكانت وقفة للفكر السياسي في القرن الخامس أمام رسالة كتبها سنة ٤٢٥ ق.م عضو « مجهول الهوية اليوم » في الحزب الاوليجاركي ، بيّن فيها خصائص الديمقراطيـة الاثينية وانبعاثها من حرية اثينا ، وفصل فيهـا اقدم انموذج للطريقة الاستقرائية وتطبيقها على المجتمع والسياسة .

---

(١) ارنست باركر : المرجع السالف الذكر ص ١٣٠ .

(٢) Les Penseurs Grecs avant Socrate, de Talés de Milet à Prodicos de Céos, Garnier, Flammarian. Coll. G. F. No. 31.

٥ - هيا كل المدن الفاضلة :

بدأت معـــالم المدن الفاضلة تظهر في الفكر السياسي في ملهـاة الشاعر المسرحي كراتينس المسماة « الثراة » .

ولكن المعالم أخذت تتضح لدى مفكرين عاشا في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد همـــا « فالياس » و « هيبوداماس » . وقد اعتبر فالياس أن سبب المنازعات الداخلية يعود إلى المتاعب الاقتصادية ، وعلى هـذا اقترح المساواة في ملكية الأرض والمساواة في اعطاء فرص التعلم لجميع المواطنين ، إنمـــا اعتبر أن جميـع الصناع يجب أن يكونوا أرقـاء في خدمة الدولة منعاً للمنافسة على الثراء بين هؤلاء عن طريق الصناعة ، وبين الفلاحين الذين يتساوون في الملكية !. أما هيبوداماس، فقد قسم كيان الدولة إلى ثلاث طبقات : طبقة الصناع، طبقة الفلاحين، طبقة المحاربين. كما قسم الارض الى ثلاثة أقسام: قسم مقدس للأغراض الدينية وقسم لطبقـة الفلاحين وقسم للمحاربين ويعتبر هذا القسم الأخير من الأملاك العامة [١] .

ولكن المدينة الفاضلة لم تتخذ كياناً متكاملاً إلا في جمهورية« افلاطون ».

٦ - المدينة الفاضلة وأفلاطون

وفكرة المدينة الفاضلة لدى افلاطون (نحو ٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م) [٢] ،

---

(١) ارنست باركر : المرجع السالف الذكر ص ٨ : ١ - ١٥١

(٢) مراجع ومصادر دراسة فكر افلاطون السياسي :

Georges Meantis : Platon vivant. ed. Albin Michel Paris 1950 -

- جمهورية أفلاطون : ترجمة حنا خباز - دار الكاتب العربي - بيروت

Platon — Coll. Essais sup. «Philosophes» P. U. F. Paris.

- الدكتور عبد الرحمن بدوي : أفلاطون - سلسلة خلاصـــة الفكر الأوروبي ، =

ينطوي ظاهرها على مثالية خيالية تلح على تذكيرنا بالمصدر الاسطوري للتفكير السياسي .

والبحث عن المدينة الفاضلة ، فكرة راودت أفلاطون يوم أخفق في ممارسة السياسة عملياً ، وقد عاقتها نفيه لما شهد وشهدته أثينا من أحداث الثورة والثورة المضادة ، فانصرف الى الاكاديمية لإعداد جيل من السياسيين «أصحاب المعرفة الحقيقية» مهمتهم كمهمة «أرباب الأمر» إذ ما تولوا السلطة السياسية« يتبعون الفلسفة عن حق وحقيقة » أو« يصبحوا فلاسفة حقيقيين».

ومن هنا انطلق افلاطون يشيد الدعامة الأولى في التمهيد لنشأة علم السياسة بروائعه السياسية الثلاث « الجمهورية » «القوانين » « السياسي ».

وفي الواقع كانت مدينة « كاليبوس » وهي المدينة الفاضلة التي ابتكرها فكر افلاطون ، قياساً للمدينة النموذج من جهة ، ومن جهة ثانية رداً ان لم تكن نقداً لسياسة الدولة ـ المدينة التي كانت في اثينا زمن افلاطون .

وكان انطلاق افلاطون في جمهوريته من فكرة أساسية مصدرها سقراط الفيلسوف - لا سقراط شخصية حوار « الجمهورية » - تلخصها عبارة « الفضيلة هي المعرفة » وتعني ان المجتمع السياسي لا يقوم بدون فضيلة . والفضيلة لا يوفرها إلا اصحاب المعرفة وهم الفلاسفة والعلماء . وبالتالي فليس لغير هؤلاء سلطة ادارة الحكم . وكان هذا المنى - المعادلة ، ينطوي على

= دار النهضة ـ القاهرة .

- جورج سباين : تطور الفكر السياسي . ترجمة حسن جلال العروسي ، نشر دار المعارف بمصر . الكتاب الأول .

- الدكتور فؤاد زكريا : دراسة لجمهورية أفلاطون ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة.

- فؤاد محمد شبل : المدينة الفاضلة ، بحث في النظام الاقتصادي عند الكتاب المثاليين مكتبة النهضة المصرية .

- موريس كرانستون : أعلام الفكر السياسي « أفلاطون : بقلم انطوني فلو » دار النهار للنشر ـ بيروت : ١٩٧٠

تجاهل الديمقراطية واعلان عدم صلاحياتها ، وهذا تأسس على اعتبار افلاطون ان الشعب لا يصلح لحكم نفسه بنفسه، وانالساسة جهال ضعفاء، وانه على عاتق النظام الديمقراطي تقع مسؤولية ذلك لما استلزمه هذا النظام من تعدد الأحزاب ذات المصالح المتضاربة ! ...

ولكن كان لتفكير افلاطون محتوى آخر ... فهو يعتبر ان نشوء الجماعة كان وليد حاجة التعاون البشرية ونشوء المجتمع كان نتاجاً لتبادل الخدمات والانتاج ، وكان لا بد للمجتمع من تأمين وجود واستمرار وتنظيم وحماية هذا التبادل فكانت الدولة .

والدولة تقوم بوظيفتها على أساس تحقيق العدالة . وتتحقق العدالة من جهة ، بوضع المواطنين في مراكزهم الاجتماعية . وحتى يتوفر ذلك لا بد من إزالة العوائق التي تعترض الطريق إلى بلوغ مرتبة المواطن الصالح وذلك بتحقيق تكافؤ الفرص بين المواطنين وتأمين هذه النتيجة يكون بفرض قيود على الطبقة الحاكمة لحرمانها من الملكية الخاصة ، ومن الزواج ، وتحديد دخلها بمرتب ثابت. وهذا ما أطلق عليه تسمية «الشيوعية» في حين هذه الشيوعية لا ترمي في الواقع إلى تحقيق تكافؤ الفرص أو تساوي المدخول بالمعنى الشيوعي العلمي الحديث وكان الأحرى أن يطلق عليها تمييزاً «الشيوعية الافلاطونية». ومن جهة ثانية ، فان العدالة تتحقق بالارتفاع بعقلية المواطن ورغباته نحو الكمال .

وإذا كان لا بدّ للدولة من أساس – العدالة – فلا بد لها أيضاً من معيار.. وجاء أفلاطون في كتاب « القوانين » يعتبر القانون هو المعيار ، ذلك انه يشتمل على قوة تقدمية دافعة ، وبدونه ينحط الانسان الى مرتبة الحيوان . وبالتالي فإنه يقتضي أن يعمل ويتقيد به الحاكم والمواطن على السواء .

وحدد أفلاطون أنظمة الحكم فتباينت بين « الجمهورية » و « السياسة » و « القوانين » .

ففي كتاب « الجمهورية » يأتي نظام كاليبوس (مدينة افلاطون الفاضلة) في الدرجة الأولى في الكمال ، ثم يليه النظام التيمقراطي وهو صورة عن نظامه المثالي حين انحلاله . ثم يتلو ذلك النظام الاوليجاركي أو نظام حكم الأغنياء وهو يتمثل في النظام التيمقراطي حين فساده ، ثم يتطور النظام الاوليجاركي الى النظام الديمقراطي فإذا انحط هذا النظام الأخير كان نظام الطغيان وهو أسوأ الأنظمة ..

وفي كتاب « السياسة » نجد تقسيماً آخر : هناك الدولة ذات النظام المثالي يرأسها الحاكم الفيلسوف وتتمتع بالمعرفة الكاملة ، فلا تحتاج الى القوانين، ولكن هذه الدولة لا يتيسر وجودها في الدنيا . ثم تأتي طائفة الدول الزمنية وهي ستة ، ثلاث منها تتقيد بالقوانين : حكم الفرد المستنير ، حكم الأقلية الارستقراطية ، حكم الديمقراطية المعتدلة . أما التي لا تتقيد بالقوانين فهي حكم الفرد الاستبدادي ، حكم الاقلية الاوليجاركية ، حكم الديمقراطية المتطرفة . وحبذ أفلاطون الدول التي تتقيد بالقوانين .

ويقترح افلاطون في كتاب « القوانين » الدولة المختلطة ، وهي تجمع بين حكمة النظام الملكي وحرية النظام الديمقراطي .

٧ — معلم الاسكندر الكبير

وجاء أرسطو (نحو ٣٦٧ — ٣٢٢ ق. م) [١] معلم الاسكندر الكبير ،

---

(١) مراجع ومصادر دراسة فكر أرسطو السياسي :

Aristote : Ethique et Nicomaque - coll. G. F. Edit. Garnier Flammarian, Paris.

— السياسات : ترجمة الأب أوغسطينس بربارة البولسي ـ اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية (الاونيسكو) ـ بيروت ١٩٥٧

Aristote : Coll. Essais Sup. Philosophes P. U. F. Paris.

— جورج سباين : المرجع الآنف الذكر ص ١١١ — ١٢٨

— الدكتور طه حسين : نظام الاثينيين ـ دار المعارف ـ القاهرة =

ليتجه بالفكر السياسي نحو آفــاق جديدة ليست مدناً فاضلة . فهو لم يكن يستشرف المستقبل ، بل يستلهم الماضي . ومن هنــــا كان التحول في منهج التفكير . فبعد أن كان قياسياً عند افلاطون أصبح استقرائياً لدى أرسطو . أما مرد ذلك فهو أن أفلاطون كان يعتمد الرياضيات كمقياس للمعرفة ، فجـــاءت تصوراته كالرياضيات ، تجريدات كلية . أما أرسطو فقــد كان علم الحيــاة والفيزياء سبيله ، فبلغ تجريدات افلاطونعبر الجزئيات الحسية المحسوسة .

ولكن الذي يعنينا لدى أرسطو ، فضلاً عــن المنهج ، هو مفهومه للدولة المثالية . ان الدولة الدستورية هي المثل الأعلى عنــده ، فهو لا يؤمن ولا يثق بالحكم المطلق مهما كانت صفات الحاكم حتى ولو كان ذلك الحاكم الفيلسوف . ولكن أرسطو يعود ليتفق مع استاذه افلاطون في ان الدولة المثاليــة سواء كانت دولته أم دولة افلاطون مستحيلة التحقيق والتنفيذ . وفي دولة أرسطو الدستورية، نجد أنعلاقة الحاكم بالمواطنين هي علاقة بين احرار وليست علاقة طبقية أو عائلية ، وبالتالي فليست سلطة الحاكم هي سلطة السيد على عبيده، وليست هيسلطة رب العائلة تجاه أفراد عائلته .

لقد كانت الدولة عند أرسطو نتاج تطــور تاريخي ، مرّت بعدة مراحل اجتماعية قبل أن تصل إلى مرحلة الدولة ونصبح عبارة عـــن إتحاد أفراد

= – ارنست باركر : المرجع الآنف الذكر ٢
– الدكتور عبـــد الرحمن بدوي : أرسطو سلسلة خلاصة الفكر الأوروبي . دار النهضة ـ القاهرة .
– الدكتور عمر فروخ : العرب والفلسفة اليونانية . المكتب التجاري ـ بيروت ١٩٧٠
– الدكتور ماجد فخري: أرسطوطاليس المعلم الأول.المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت١٩٥٨
– الدكتور حسن صعب : علم السياسة . دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٦
– ويل ديورانت : قصـــة الفلسفة من سقراط إلى جون ديوي ـــ ترجمة أحمد الشيباني المكتبة الأهلية ـــ بيروت .

مختلفين يستطيعون بحكم ما بينهم من فوارق ، سد حاجاتهم عن طريق تبادل السلع والخدمات .

والضمان الوحيد للحكم الصالح هو القانون ، وهو البديل الثابت الموثوق به للحاكم الفيلسوف . ومن هنا اعتمد الحكم الدستوري على القانون ، وتميز باستهدافه الصالح العالم ، وبارتكاز ادارته على قواعد عامة لا على أوامر وتأدية حكومته معنى المواطنين الراضين عن الحكم لا المرغمين عليه

ويعود أرسطو ليتفق مع افلاطون في تبني الهدف الاخلاقي للدولة .

ويبحث أرسطو عن أفضل شكل عملي للحكومة ، فيجد انه الشكل الذي يجمع بين العناصر الصالحة في كل من الديمقراطية والاليجاركية دون تطرف في أي منهما ، وأطلق عليه اسم الحكومة الدستورية ، ويتوفر هذا الشكل بوجود طبقة متوسطة قوية تتألف من متوسطي الحال المالي ، وهي الطبقة التي يمكن أن تتسع لتجعل للدولة قاعدة شعبية . ومن هنا نخرج إلى أن ما يرمي اليه أرسطو هو التوازن .

ولأرسطو فضل آخر على التفكير السياسي ، فهو الذي صنف السياسة ضمن العلوم ، ولكن يقتضي التنبيه إلى أن أرسطو لم يتردد أحياناً في دمج علم الاقتصاد بعلم السياسة . وهنا يلاحظ أيضاً ربط أرسطو للسياسة بالأخلاق ربطاً محكماً يؤكده لنا ذلك الترابط بين كتابيه « الأخلاق النيقوماخية » و « السياسات » . إن ك.ب. سميلي ، يرى أن تفكير أرسطو ليس غريباً عن مشاكل العالم المعاصر . ذلك أن التحليل الأرسطوطاليسي لمعضلات الوظائف والبنى التي تتفرع عن عملية التعاون الانساني هو التحليل السليم ، سواء ما يتعلق بتركيب أدنى المتحدات كالعائلة ، والمتحدات المنظمة الأوسع على مستويات القارة أو الأمة ، أو ما يختص بالآفاق التي قد يستشرفها العلم الحديث في اختصاصات علم الحياة والنسل ، أو في علم السياسة والانتخاب ، فإن تكوّن الانسان الصالح في ضوء ماهيتنا البشرية حصيلة توازن بين العقل

والمشاعر . فالحقيقة لا ينقصها تقدم التكنولوجيا ، الذي أتاح لفئات أكبر مما اعتقد أرسطو ، أن تدخل في شراكة الهدف والمتحد . وإن التطورات الواسعة الحاصلة في نطـــاق الرياضيات بصورة خاصة والتي أعطت الأفراد والجماعات طاقات كانت وقفـــاً في اليونان القديمة على الآلهة – لجهة قدرة التدخل أو تغيير الشؤون الانسانيـة ، بحيث باتت آلهة الأولمب تبدو أمام عملقة الانسان المعاصر متقزمة كأنها صبية صغيرة – إن هذه التطورات تزيد في قيمة التحليل الذي أعطاه أرسطو للمشاكل الناجمة عن التعاون الانساني »[1].

٨ – الانسان السعيد :

كان نتيجة قيام حلف كورنثيا وامبراطورية الاسكنـدر اضمحلال دولة المدينة ، مما أدى إلى ضعف الشعور القومي الذي كان يميّز دولة المدينة ، وانفصال الفرد عن الدولة . ومن هنا كان لا بد أن تحل أوجه للنشاط غير النشاط السياسي ، وكان ان انتقلت الفلسفة إلى البحث عن وسائل لاسعاد الانسان بمعزل عن الدولة . وهكذا غابت الفلسفة التي كانت تبحث في سعادة الفرد باعتباره مواطناً . ولكن كان لهذه الفلسفة أثراً اجتماعياً هاماً فقد نشأ عنها تسليم ان لم تكن دعوة الى المساواة التامة بين الأفراد ، بما فيهم العبيد والبرابرة وأصحاب الحرف اليدوية .

أ – جماعة ابيقور

بما ان الغاية الأسمى للحياة ، تحقيق سعاده الفرد ، بتوفير اشباع الرغبات الروحية والثقافية والمادية لكل فرد وبما ان الدولة هي نتـــاج الانسانية ، ذلك ان الفرد ما اشترك في تحقيقها إلا لتأمـين مصالحه الشخصية البحتة .

---

(١) موريس كرانستون : المرجع السالف الذكر
ك. ب سميلي : أرسطو ص ٣١ .

وبما ان القانون هو اتفاق نفعي أوجده الأفراد لتحقيق الطمأنينة في معيشتهم وبما ان الفرد الساعي إلى السعادة لا يشترك في الحياة العامة .

لذلك فلا بأس من خضوع الأفراد خضوعاً تاماً لأية حكومة تعمل على تحقيق السلام والنظام سواء كان النظام استبدادياً أو ديمقراطياً[1] . هذا هو موجز مقومات وكيان تفكير الابيقوريين السياسي .

ب - العصر الذهبي و « مدينة العالم » :

ويختلف الرواقيون عن الأبيقوريين في تعريف السعادة ، فيرون انها كبت الانفعالات العاطفية وإخضاع الرغبات اللاأخلاقية لحكم العقل. وبذلك فصل الرواقيون الأخلاق عن السياسة فصلاً تاماً ليؤكدوا مبدأ المساواة التامة. ولكنهم لا يغفلون ما بين الأفراد من تباين ، لذلك فقد ابتكروا فكرة «العصر الذهبي» لاثبات ان الأصل في الأفراد هو التشابه .

وفكرة «العصر الذهبي» تعني ان الأفراد، قبل اندماجهم في مجتمع الدولة، كانوا يعيشون في مجتمع مثالي لا فوارق فيه ، ومعيشة الأفراد في الدولة هي التي أوجدت هذه الفوارق . والعصر الذهبي هو ذلك الزمن الذي وجد فيه المجتمع المثالي الخالي من الفوارق .

ويرتبط العصر الذهبي بمدينة العالم ، حيث القانون الطبيعي ، الذي يعمل على اتحاد جميع الأفراد فيها ، يعيشون المساواة ويحاول كل منهم تنسيق حياته الخاصة تنسيقاً يساير القانون الطبيعي الذي هو أسمى من رغبات الانسان وحيث الاخاء العالمي[2] .

---

(١) الدكتور بطرس غالي والدكتور محمود خيري عيسى : المدخل في علم السياسة . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦١ ص ٧٤ - ٧٧

(٢) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر . ص ٧٥ - ٧٧

٩ - ثروة الشعب :

أ - والواقع ان مصادر التفكير السياسي لدى الرومان، تكمن في تشريعاتهم ، حيث اكتسب التفكير السياسي مقوّمات جديدة ، لم يعد الفرد مندمجاً بالدولة أو الدولة قليلة الأهمية ، ولكن هناك فصل بين الدولة والفرد ، لكل منهما حقوقه وواجباته ، والدولة هي تطور طبيعي لحياة الأفراد في المجتمع ، والفكرةالسياسية الجديدة التي جاء بها الرومان هي فكرة السيادة وهيالعلامة المميزة للمجتمع . وأطلقوا على فكرة السيادة المطلقة تسمية Imperium [1].

وكوّن الرومان نظرية عقد حكومي ، بموجبه أحال الشعب سلطته إلى الحاكم ، دون أن يكون للشعب حق انتزاع هذه السلطة منه .

وجاء شيشرون ١٠٦-٤١ق.م.مؤلف كتابي«الجمهورية»و«القوانين» ليعرض نظرية القانون الطبيعي عرضاً واضحاً . وفكرة شيشرون في القانون الطبيعي تقوم على وجود قانون طبيعي عام ، يستدلّ عليه بالحقيقة الواضحة ، وهي ان الكون ليس له سوى خالق واحد هو الإله ، وليس لهذا الإله سوى قانون واحد يسري على الجميع وكل تشريع يخالفه لا يستحق تسمية قانون . والقانون الطبيعي هو دستور العالم أجمع ، يتساوى في ظله جميع الأفراد . وبذلك كانت الدولة مجتمعاً أخلاقياً ، أي مجموعة من الناس تملك فيما بينها الدولة ، وقوانين رابطها الحقيقي الأخلاق ويطلق على الدولة تسمية « ثروة الشعب» والسلطة السياسية لا تتصف بالشرعية ما لم ترتكز على إرادة الشعب في « ثروة الشعب » [2] .

---

(١) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر صفحة ٨١

Ciceron. : la Republique. Des Lois; Trad. et Notes par Charles(٢)
Appulm. Ed. G. F. Coll.G.FNo. 38

ب - الديجست :

وفي سنة ٥٣٣ قام الامبراطور جستنيان بنشر مجموعة تشريعات المشترعين الرومان تحت اسم «الديجست» وهي التي تنطوي على فلسفتهم القانونية السياسية، حيث فرقوا بين القانون المدني وقانون الشعب والقانون الطبيعي، وطوروا نظرية شيشرون السياسية كما لخصها اولبيان بقوله: ان لارادة الامبراطور قوة القانون لأن الشعب تنازل له ووضع في يده جميع قواته واختصاصاته. وبذلك كرس المشروعان كون القانون هو الوسيلة التي يتمكن بها الأفراد من المحافظة على حقوقهم وحرياتهم.

١٠ - عودة العصر الذهبي :

ويعود سنيكا، الذي كان يعيش في عهد نيرون، إلى العصر الذهبي السابق لعصر المدينة والدولة، وهو عصر المجتمع المثالي الذي كان يعيش أفراده سعداء وأطهاراً يحيون حياة ساذجة لا أثر فيها لترف ومظاهر الحياة المدنية الحديثة. وكان وجود الحكومة والقوانين لعلاج الفساد في الأفراد. ومن رأي سنيكا ان السياسة لم تعد تصلح لأن تكون وظيفة الرجل الفاضل لأن المجتمع صار فاسداً[1]. ويتفق سنيكا مع شيشرون في مساواة الأفراد جميعاً واخوتهم وانتمائهم إلى دولة واحدة هي دولة العالم.

١١ - مدينة الله ومملكة الشيطان :

« مدينة الله » عنوان كتاب وضعه القديس أوغستينوس (٣٥٤ - ٤٣٠م) أراد به الدعوة إلى الدفاع عن المسيحية ضد الوثنيين الذين زعموا أن الدين

---

(١) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ٩٠ - ٩١ .

Pierre Grimal: Séneque P. U. F. 1957

J. M. André et P. Aubenque : Seneque Coll. Philosophes de tous les tempes . Edit. Séghers, Paris.

المسيحي كان السبب في انهيار الامبراطورية الرومانية ، ومن رأي القديس أوغستين ، ان الانسان مكون من عنصرين : عنصر الروح وعنصر الجسد ، لذلك فهو ينتمي إلى وطنين ، أولهما الأرض والآخر السماء . وتاريخ البشرية هو وليد الصراع بين المجتمع الدنيوي المسيطرة عليه قوى الشر الناتجة عن غرائز الانسان الجسدية البحتة ، ومن مظاهرها الطمع وحب التملك (مملكة الشيطان) ، والمجتمع الثاني وتسيطر عليه قوى الخير ومظاهره حب السلام (مدينة الله) . ولا بد في النهاية من انتصار مدينة الله لأنها هي الخالدة ، وما سقوط الامبراطورية الرومانية إلا لكونها مجرد مملكة دنيوية .

وبرأي القديس أوغستينوس أن الروح تبقى طليقة ولو أن صاحبها عبداً. والحكومة شيئاً لا بد منه ، والحكم يستمد سلطته من الله فطاعته واجبة .

وان بروز المجتمعات السياسية إلى حيّز الوجود هو حصيلة سقوط الانسان ، وهي مظهر اصطناعي عن خطاياه. فالإنسان ليس الحيوان السياسي والاجتماعي بحكم الطبيعة حسب تعريف أرسطو [1] .

١٢ ـ اخوان الصفا وخلاّن الوفا :

وكما كانت انطلاقة التفكير السياسي المسيحي وليدة انتشار الدين المسيحي حتى أصبح دين الدولة (الامبراطورية الرومانية) ، فقد ارتبطت انطلاقة التفكير السياسي الاسلامي بتكون الدولة الاسلامية حيث ظهرت معالم هذا التفكير في خطب يوم السقيفة والحجيج وسيما خطبة الخليفة أبو بكر الصديق

---

(1) Henri I. Massou :ı. Saint Augustin et l' augustinisme . Edit du Seuil coll . Maitres spirituels

غالي وعيسى : المرجع السالف الذكر ، ص ١٠١ – ١٠٣ .

Saint Augustin : Confessions, Coll. G. F. No. 21

التي بحثت في أحقية إناطة الرئاسة ـ الخلافة ـ (ما إذا كانت تعود إلى المهاجرين أم إلى الأنصار) وذلك على أسس دينية تاريخية وجغرافية !.

وبنشوء علم الكلام انتظم التفكير السياسي بشكل رئيسي في موضوعات علمي الفقه والكلام . ونجد اخوان الصفا يعتبرون السياسة علماً مستقلاً بذاته ويصنفونه ضمن العلوم التطبيقية التعليمية ويجعلونه في خمسة أقسام : السياسة النبوية ، السياسة الملوكية ، السياسة العامية ، السياسة الخاصية ، السياسة الذاتية . والأولى تتعلق « بوضع النواميس والسنن الزكية وتطهير النفوس من شوائب العقائد والآراء الخبيثة ، والثانية هي معرفة حفظ الشريعة على الأمة وإحياء السنة في الملة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، باقامة الحدود وانفاذ الأحكام التي رسمها صاحب الشريعة ، ورد المظالم وقمع الأعداء وكف الأشرار ومضرة الأخيار » . وأما السياسة العامية (الرئاسة على الجماعة كرياسة الأمراء على البلدان والمدن ، ورئاسة قائد الجيوش على الجنود) فهي « معرفة طبقات المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم ، وترتيب مراتبهم ومراعاة امورهم » . وأما السياسة الخاصية فهي « معرفة كل انسان تدبير منزله وأمر معيشته » . وأما السياسة الذاتية فهي « معرفة الانسان لنفسه وأخلاقه » . كما يتناول اخوان الصفا في رسائلهم الغرض من الملك وأنواع الرئاسة والإمامة وشروطها وأحكامها[1] .

---

(١) مراجع ومصادر دراسة فكر اخوان الصفا السياسي :

ـ رسائل اخوان الصفا ـ نشر دار صادر ـ دار بيروت (٤ مجلدات) ـ بيروت .

ـ الدكتور عمر فروخ : اخوان الصفا . مكتبة منيمنة ـ بيروت ١٩٥٣ .

ـ الأب يوحنا قمير : اخوان الصفا . المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت سنة ١٩٥٤ .

١٣ - تحصيل السعادة وآراء أهل المدينة الفاضلة

وكان للفكر السياسي وقفة عند الفارابي أعادت ذكرى فلسفة أفلاطون وأرسطو السياسية ، حيث نجد الفارابي ينهج نهج الفيلسوف اليوناني في تصنيف السياسة بين العلوم ، ولكنه لا يلبث أن يجمع بين السياسة والأخلاق . ذلك ان الفارابي رغم فصله بين « الفلسفة الخلقية » و « الفلسفة السياسية » في تقسيم الفلسفة المدنية ، يعرّف الفلسفة السياسية بانها ذلك الصنف الذي يحصل به علم الأفعال الجميلة والقدرة على استيعابها وبه تصير الأشياء الجميلة لأهل المدن والقدرة على تحصيلها لهم وحفظها عليهم . والعلم المدني لدى الفارابي هو الذي يتناول من جملة ما يتناوله ، السير الفاضلة في المدن والامم والرياسة المدنية ، والشرائط التي ينبغي أن تتوفر في المدن لكي تدرم فاضلة ولا تستحيل إلى غير فاضلة .

تناول الفارابي الفلسفة السياسية في عدة مؤلفات منها « رسالات تحصيل السعادة » « السياسات المدنية » « رسالة السياسة » ، وكتابي « آراء أهل المدينة الفاضلة » و « الفصول المدنية » .

وفي كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » يتناول الفارابي حاجة الانسان إلى الاجتماع والتعاون ونشأة القرى والمدن ، كما يبحث في دور الانسان ومكانته في المجتمع وصفات (خصال) رئيس المدينة الفاضلة وسيما الحكمة التي هي من صفاته ، وما لا يناسب المدينة الفاضلة والفرق بين أهلها وأهل المدن الضالة ، ثم الصناعات وأقسامها . أما كتاب « الفصول المدنية » فهو أول مؤلف في علم الاقتصاد السياسي ، ومن آرائه أن الفرق بين الانسان والحيوان يتمثل في غريزة الانسان في العمل المشترك وما فيه من عقل فعال وعقل مستفاد [1] .

---

(١) مصادر ومراجع دراسة الفارابي : =

١٤ - عيون الأخبار :

وتلاشت النزعة الفلسفية الميتافيزيقية في التفكير الاسلامي السياسي عندما أخذ هذا التفكير يتناول أبعاداً اجتماعية وأخلاقية انضمت إليهـــا فيما بعد النظريات والمبادىء الفقهية البحتة ، وقد تجلى هذا الاتجـاه في كتابي « عيون الأخبار » لابن قتيبة و « الأحكام السلطانية » للماوردي .

وفي « عيون الأخبار » يخص ابن قتيبة الحاكم بكتاب سمـاه « كتاب السلطان » . تناول فيه الأخلاق التي يقتضي أن يتحلى بهـا السلطان وأصول محبته ومعاملاته ومشاوراته وواجباته نحو الولاة والحكام. ويرجع ابن قتيبة في آرائـــه إلى أقوال ونوادر مأثورة عن حكماء الفرس والهنود ، وهذا ما يذكر بابن المقفع في « كليلة ودمنة » و « الأدب الكبير » و« الأدب الصغير» و « رسالة الصحابة » ، حيث وردت آراء عديدة في السياسة والحكم حيناً بشكل نوادر عن الحيوان وحيناً بالمخاطبة المباشرة . كما عرض ابن قتيبة في « كتاب الحرب » من « عيون الأخبار » للشؤون العسكرية والحرب وسياسة الدولة بشأنها وكان محل بحث السلطة والسيادة في كتاب « السؤدد »[١]

= - كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة : قدم له وحققه الدكتور البير نصري نادر. المطبعة الكاثوليكية - بيروت .

- كتاب السياسة المدنية : قدم له وحققه الدكتور فوزي متري النجـــار ، المطبعة الكاثوليكية - بيروت .

- رسالة في العقل - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٣٨

- إحصاء العلوم - مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٣١

- الدكتور عمر فروخ : الفارابيان ، مكتبة منيمنه - بيروت ١٩٥٠

- الأب يوحنـــا قمير : الفارابي « جزئين » المطبعة الكاثوليكية - بيروت - سلسلة فلاسفة العرب .

(١) تضمن المجلد الأول من « عيون الأخبار » كتب « السلطان » و « الحرب » و « السؤدد » . طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - نسخة مصورة عن طبعـــة دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٣

١٥ ــ الأحكام السلطانية :

وعالج الماوردي المتوفي سنة ١٠٥٨ م (٤٥٠ هـ) في كتابه الأحكام السلطانية ، السياسة من الناحية الفقهية المحضة ، حيث تناول صفة تعريف الإمامة وشروطها ، وصفات الإمام وواجبات الأمة نحوه، ثم عرض للوزارة وأنواعها والإمارة وأنواعها والقضاء وشروطه ،والغنائم والجزية والخراج والفيء وأحكامها ، والاقطاع والدواوين والحدود .

ثم عاد الماوردي وخص الوزارة وأنواعها وشروطها واختصاصاتها وموجباتها وحقوقها بالنسبة للسلطان، وذلك برسالة عنوانها «الوزارة وسياسة الملك » [١]

١٦ ــ التبر المسبوك في نصائح الملوك :

وعاصر الماوردي فيلسوف له مكانة في تاريخ الفلسفة الاسلامية هو أبو حامد الغزالي (١٠٥٨ – ١١١١ م) ومن مؤلفاته : «المنقذ من الضلال»، وقدبحث فيه أهداف العلوم وأحوالها وأنواعها، ومنها«علم السياسة»الذي عرفه بانه العلم الذي يتناول الطريقة المثلى لتنظيم شؤون الدولة . و« سر العالمين وكشف ما في الدارين » ويبحث فيه نظام الحاكم. و« التبر المسبوك في نصائح الملوك » ويتضمن نصائح وملاحظات تقدم بها الى السلطان محمد بن ملكشاه تناول فيها موضوع السلطة التنفيذية ووظائفها ووظائف الحاكم . ومما عرض له الغزالي في مؤلفاته ايرادات الدولة والضرائب مقومات الحكم الصالح.وقبل ترك الغزالي لا بد من التنويه ببحثه للدولة – المدينة على أساس بيولوجي

---

(١) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون ١ـ٢ (دراسة ومنتخبات) المكتبة التجارية ١٩٥٣ – ص ١٢٢ .

مقارن بجسم الانسان أي على نحو يكاد يشابه النحو الذي تناوله هربرت سبنسر بعد عدة قرون[١] .

١٧ – سراج الملوك :

وينوه تاريخ الفكر السياسي الاسلامي بكتاب «سراج الملوك» الذي ألفه أبو بكر الطرطوشي الاندلسي المتوفي سنة ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ) ، تناول فيه السياسة من الناحية الأخلاقية والفلسفية ولكن بصيغة دينية وعظية ، وعرض لخصال السلطان الواجبة والعيوب التي تؤدي إلى ضياع الملك ويقتضي تجنبها . ثم تناول كل صفة وكل عيب بالتفصيل على حدة ، وبحث في سلوك السلطان نحو جيشه ورعيته ، وسياسته بالنسبة لمالية الدولة والجزية وشروط العمال والدواوين ، وعن الطغيان ونتائجه الوخيمة ، والحروب وتدبيرها[٢] .

١٨ – سلوك المالك في تدبير المهالك :

ولا بد في معرض عرض الفكر السياسي الاسلامي من الاشارة إلى مؤلف أحمد بن أبي الربيع ، من رجال القرن التاسع الميلادي ، المسمى « سلوك المالك في تدبير المهالك » حيث عرض فيه للمقارنة بين الانسان والكائنات الحية الأخرى ، وسيما الحيوان . وبحث في أقسام العلوم وصنف علم السياسة ضمنها ، وتناول صفات القاضي والتوارث وأسباب التوتر في أوضاع

---

(١) الأب يوحنا قمير : الغزالي. الطبعة الكاثوليكية ، بيروت . سلسلة فلاسفة العرب .

(٢) جمال الدين الشيال : أبو بكر الطرطوشي . سلسلة أعلام العرب ، عدد ٧٤ . دار الكاتب العربي . القاهرة ١٩٦٨ .

الطرطوشي : سراج الملوك ؛ القاهرة ، ١٩٣٥ .

محمد عبد الله عنان : المرجع الآنف الذكر ص ١٣٠ .

محمد عبد الله عنان : أبو بكر الطرطوشي . مجلة العربي – الكويت . آب ١٩٧٠

البلاد وسيما الأزمات الاقتصادية ويصل بذلك الى بحث الثورات وأسبابها وظروفها (١) .

١٩ – انتيغون وكريون :

واتباعنا للتسلسل التاريخي يجعلنا نعود الى متابعة التفكير السياسي المسيحي فنتناول على التوالي أعمال القديس توما الأكويني وأليجيري دانتي ومارسيليودي بادو. ولا عجب إذا كان منطلقنا مسرحية انتيغون لسوفوكلس. في هذه المسرحية يدور صراع بين الملك كريون وبين انتيغون. كريون يتبنى القانون الوضعي وينادي بوجوب الخضوع له باستمرار . وانتيغون تعارضه على أساس أن القانون الوضعي لا يمكن الأخذ به واعتباره سارياً عندما يتناقض مع حقوق الانسانية أو قوانين السماء (القانون الطبيعي) والتي مثلتها بحق شقيقها المتوفي في أن يُدفن (٢) .

هذه الفكرة التي عرضت لها المسرحية الاغريقية للتمييز بين القانون الوضعي والقانون الطبيعي وعرفها التفكير اليوناني، قد تبناها بتوسع وبتجديد القديس توما الاكويني ليخرج إلى القول أن القانون الوضعي الصحيح هو المستمد من القانون الطبيعي . ولكن وسائل تطبيق القانون الوضعي هي التي تختلف باختلاف الزمان والمكان . والحاكم هو المسؤول عن جعل القانون الوضعي يساير القانون الطبيعي العام والتشريع هو جعل القانون الطبيعي يلائم المكان والزمان الذي يستمد فيه القانون الوضعي منه . والحاكم الذي لا يطبق ذلك يكون متمرداً وعلى الشعب مفاوضته وتنحيته . ولا يجوز للحاكم أن يضع يده على الملكيات الخاصة إلا بالقدر الذي تتطلبه المصلحة

---

(١) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ، ص ١٣٧ .
ميخايل خوري : نظرية نشوء الدولة والمجتمع عند ابن أبي الربيع (من تاريخ الفكر السياسي عند العرب) مجلة الفكر الجديد – بيروت .
العدد الأول ، نيسان ١٩٦٨ ، ص ٥٢ – ٥٥

(٢) Sophocle: Théatre Complet Edit. Garnier Flammarian G. F. No. 18

العامة أو أن يسلب المواطنين حريتهم التي هي من حقوقهم الطبيعية. ومقاومة الاستبداد ليست حقاً فحسب وإنما هي واجب [١].

٢٠ – الحكومة العالمية

كان اليجيري دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١ م) على النقيض من القديس توما الاكويني ، يرى السلطة الزمنية وبالتحديد سلطة الامبراطور هي فوق سلطة البابا ، وإقرار السلام في أوروبا لا يكون إلا بتوحيد السلطة ووضعها في يد الامبراطور (الحكومة العالمية) ، ولا يمكن على الارض الجمع بين السلطتين الزمنية والدينية . والهدف السامي للبشرية في تحقيق حياة راشدة تتحسس مع ما منح الانسان من عقل وحكمة ، لا تكون إلا في ظل الامبراطورية . إن إرادة الله ممثلة في تكون الدولة وفتوحاتها بغاية تحقيق الحكومة العالمية [٢]

٢١ – الدفاع عن السلم :

هو اسم كتاب ، كتبه المفكر مارسيليو دي بادو (١٢٨٠ – ١٣٤٣) . والحياة الفاضلة برأيه حياة فاضلة في الدنيا وحياة فاضلة في الآخرة . والعقل والفلسفة هما سبيل تحقيق الحيـــاة الفاضلة في الدنيا ، والدين هو سبيلها في الآخرة. والديانة المسيحية هي ظاهرة اجتماعية واجب تقديس معتقداتها وهي

---

(١) M. D. Chenu : Saint Thomas d'Aquin et la théologie. Edit. du Seuil . Paris. coll. Maitres spirituels

– الدكتور حسن صعب : علم السياسة ، دار العلم للملايين ١٩٦٦ ص ٩٣ – ٩٤

– غالي وعيسى : المرجع السالف الذكر ص ١١٠ – ١٢٠

– كرانستون : المرجع السالف الذكر ص ٣٢ – ٤٠

(٢) غالي وعيسى : المرجع السالف الذكر ص ١٢٠ – ١٢٢

فوق مستوى كل عقل فيها. والقانون قانون بشري صادر عن هيئة دستورية وقانون مقدس منبثق من أوامر الله المباشرة ، ومن يمارس السلطة يمارسها باسم الشعب ، والهيئة التنفيذية تنتخب من السلطة التشريعية [1] .

٢٢ - جوامع سياسة افلاطون :

وكان لمدينة افلاطون الفاضلة عودة في كتاب « جوامع سياسة افلاطون » وهو المشتمل على الملخص والشروح التي وضعها ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) لكتاب الجمهورية لأفلاطون حيث تناول في ثلاث مقالات العشرة كتب التي يتألف منها كتاب الجمهورية . وفي المقال الأول يحاول ابن رشد التوفيق بين الشريعة والحكمة السياسية والقوانين الانسانية والقوانين الطبيعية ، ثم يحلل ويشرح في المقالة الثانية صفات الفيلسوف الحكيم في المدينة الفاضلة ، منصرفاً إلى أفكار الفارابي وأرسطو في الحكم والحاكم ، ثم يقارن بين أحوال دول بلاده وآراء أفلاطون في الدول غير المثالية ، ويعود إلى التاريخ العربي ، فيجد في حكم الرسول والخلفاء الراشدين نموذجاً للدولة المثالية . ويمثل دولة الامويين بالدولة التيمقراطية الأفلاطونية وهي الدولة التي تزول منها الفضائل العقلية والخلقية وتقتصر على الفضائل العسكرية المثالية ، ثم تتحول الدولة التيمقراطية إلى الدولة البلوتوقراسية (دولة المال) مما يسهل على أعدائها التغلب عليها ، ويستشهد بدولة المرابطين التي مرت بهذه الأطوار ، ثم يتوسع ابن رشد في شرح كيفية هذه التحولات ، وكيفية تحول الدولة الديمقراطية إلى دولة استبدادية .

وإذا كانت أفكار ابن رشد السياسية قد توزعت في مؤلفاته وبدت غير

(١) غالي وعيسى : المرجع السالف الذكر ص ١٢٣ - ١٣٠ .

مكتملة المعالم ، فانه يكفيه في معرض دراسة تطور الفكر السياسي التنويه بما كان لمنهجه المقابل بين الاستقرائية والقياسية من أثر حاسم في نشأة العقلانية الأوروبية وترجيح النظر العقلي في النظريات المتعلقة بالدولة والسياسة [1].

٢٣ – مقدمة ابن خلدون :

وأخذت مسائل البحث الاقتصادي والتحليل الاجتماعي والتطبيق التاريخي تشغل جانباً هاماً في التفكير السياسي بفضل المقدمة التي وضعها ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦)، وهي تؤلف القسم الأول من كتابه المسمى «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » . أما القسمين الآخرين من كتاب ابن خلدون فقد عرضا لتاريخ العرب ومن عاصرهم من الأمم وإلى البربر ودولهم وأحوالها.

وقد تناول ابن خلدون في هذه المقدمة « العمران وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش ، والصنائع والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب » .

والأفكار السياسية التي طلع بها ابن خلدون احتوتها القوانين الطبيعية لقيام الدول وزوالها(طبائع العمران) التي استخرجها من دراسته للظواهر التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية للدول في التاريخ والحاضر والتي شكلت منهجاً ومحتوى ما اصطلح على تسميته بعلم « الاجتماع السياسي » .

---

(١) الأب يوحنا قمير : ابن رشد « دراسة ومنتخبات »، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت . سلسلة فلاسفة العرب .

– الدكتور حسن صعب : المفهوم الحديث لرجل الدولة . المكتب التجاري ـ بيروت ١٩٥٩ ص ٦١ – ٧٥

وقد أكد ابن خلدون على ضرورة الاجتماع البشري لحياة الانسان وهو ما أدّى إلى وجود المجتمع . ولكن استقرار هذا المجتمع يتعرض للزوال نتيجة للنزعة العدوانية في النفس البشرية . لذلك كان لا بدّ من حاكم يقوم بتنظيم هذا المجتمع ، وإذ توفر هذا التنظيم في المجتمع أطلق عليه اسم الدولة.

ولكن الدولة لا تظل على حالها ، بل تنطلق في حركة تطور ذات خمس مراحل تشكل بمجموعها حياة الدولة . في المرحلة الأولى ، تنشأ الدولة على أنقاض دولة سابقة لها ؛ وفي المرحلة الثانية ينفرد صاحب السلطان بالحكم بعد أن يكون قد تخلص ممّن اشتركوا معه في تأسيس دولته ؛ وفي المرحلة الثالثة تسود الراحة والطمأنينة؛ وفي المرحلة الرابعة تتحول الراحةوالطمانينة إلى قناعة ومسالمة؛ وتأتي المرحلة الخامسة نتيجة للمرحلة الرابعة حيث تنحلل الدولة وتزول .

وفي نظام الحكم للدولة ، يعرض ابن خلدون أنواعاً مختلفة من الحكومات أهمها الحكومة الطبيعية وهي التي يتولاها رئيس واحد والحكومة الدينية وهي التي تستند إلى القوانين الإلهية وهي بنظر ابن خلدون أفضل أنواع الحكومات . ومن الطبيعي أن تختلف المناصب من حيث تسلسلها وصلاحياتها في كل نظام من أنظمة الحكومة بحيث تنسجم مع محتواه ومقوّماته .

ومما يجدر ذكره من أفكار ابن خلدون السياسية استنتاجه ان أهل المدن يتجنبون الجهر بالتحزب معللاً ذلك إلى استقرار حياتهم في المدن وارتباط مصالحهم . وبالتالي فهم لا يستطيعون الفرار من المدن في حال تغلب فئة على فئة يناصرونها . وهكذا يتظاهرون بالخضوع تجاه السلطة . في حين أن البدو على العكس يستطيعون بالفرار الافلات من نتائج الهزيمة !

ويقرر ابن خلدون انه بصدد وضع نواة لعلوم لا يمكن أن تستوي أصولها

ومقوماتها إلا بعد قرون[١] ولعله بذلك يرى أن استواء هذه العلوم رهن بتحقيق الانسان لانجازات حضارية في شتى مناحي الحياة . ولقد صح ما قدّره ابن خلدون وبفضل ما وضعه من نواة عرفت الانسانية علم الاجتماع السياسي . ولا نبالغ إذا قلنا أن علم الاقتصاد السياسي يدين له بجانب كبير من مصادره ومقوماته ومناهجه[٢] .

---

(١) « فأنشأت في التاريخ كتاباً ، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً .. وابديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً واسباباً .. واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً ، وطريقة مبتدعة واسلوباً ، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن ، وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بملل الكوائن وأسبابها ، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ؛ حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك » . « ابن خلدون – المقدمة ».

(٢) بعض مصادر ومراجع فكر ابن خلدون السياسي :

– ابن خلدون : المقدمة .

H. A. N. Schmidt : Ibn Khaldoun , Historian . Sociologist . Philosopher . New York 1930 .

Dr. Sobhi Mahmassani : Les Ideés economiques d' Ibn Khaldoun - Edit . Box Fréres , M. et L. Rion - Lyon 1932

ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون . بيروت ١٩٤٤ .

– د. عمر فروخ : كلمة في ابن خلدون ومقدمته . بيروت ١٩٥١ .

– محمد عبدالله عنان : ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكري . المكتبة التجارية – القاهرة ١٩٥٤ .

– غاستون بوتول : ابن خلدون ، فلسفته الاجتماعية . ترجمة عادل زعيتر – عيسى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٥٥ .

– الأب يوحنا قمير : ابن خلدون، سلسلة فلاسفة العرب. المطبعة الكاثوليكية . بيروت .

– د. علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن ابن خلدون ، سلسلة أعلام العرب – وزارة الثقافة – القاهرة .

M. A. Lababi : Ibn Khaldoun. Goll. Philosophes de tous les temps. Edition Séghers. Paris.

٢٤- وهنا وقبل الانتقال إلى مكيافللي مؤلف كتاب « الأمير » ، وما كان لأفكاره من أثر كبير في الفكر السياسي ، لا بد من وقفة عند المفكرين المثاليين في عصر النهضة ، ممن عاصروا مكيافللي وتأثروا بفلاسفة الاغريق وسيما أفلاطون مؤلف « الجمهورية » .

أ - جزيرة أوتوبيا :

«أوتوبيا» هي المكان المنشود لهناء البشر ، وتعني باليونانية «ليس في مكان ما» جعلها توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) عنواناً لكتابه الذي صور فيه دولة مثلى تحقق السعادة للناس وتمحو الشرور . وهي جزيرة خيالية عثر عليها روفائيل هتلوداى الاستاذ البرتغالي - شخصية خيالية - وأمريكو فيسبوتشي - شخصية تاريخية ، أول من وطأ أرض العالم الجديد وأطلق اسمه عليها - وتنقسم قصة مور إلى كتابين : الكتاب الأول ، ويشتمل على عرض لأحوال انجلترا في أوائل القرن السادس عشر . والكتاب الثاني ، يحتوي على قصة اليوتوبيا .

وجزيرة أوتوبيا هي عبارة عن اتحاد من المدن والأراضي المحيطة بها . يمثل كل مدينة ثلاث من عقلاء شيوخها ، ينتخبون وينتدبون سنوياً للذهاب إلى عاصمة البلاد حيث يتشاورون في المصالح المشتركة للجزيرة . وينتخب مواطنو المدينة قضاة يدعونهم Syhogrant ينتخب كل عشرة منهم سنوياً قاضياً أعظم يسمونه Tranibore . وهؤلاء القضاة يؤلفون مجلس الشيوخ الذي ينتخب أمير الجزيرة من بين أربعة مرشحين ينتخبهم الشعب . ويحكم الأمير الجزيرة مدى الحياة طالما يحكم بالعدل وإلا وجب عزله . ويعاون الأمير الحاكم مجلس مكوّن من عشرة قضاة عظام يجتمع كل عشرة أيام للتشاور في شؤون الدولة . والعائلة في « الأوتوبيا » ليست وحدة اجتماعية واقتصادية فحسب ، بل وحدة سياسية أيضاً . وللعائلات مجالس هي التي تتولى الانتخاب والتمثيل .

وفي « أوتوبيا » لا توجد ملكية خاصة ولا تزاوج في الزراعة والصناعة . والقوانين السارية هي قليلة للغاية ، وبمعنى آخر هي القوانين الضرورية جداً .

ب – أطلانطيس الجديدة

وتعود أطلانطيس التي روى أفلاطون قصتها في محـاورتي « طيماوس » وكريتياس[1] بحلة جديدة عند فرنسيس بيكون حيث تباح الملكية الخاصة والتعامل النقدي والامتيازات .

وفي «أطلانطيس الجديدة» إشارات عابرة إلى النظم الاجتماعية والسياسية السائدة في « بنسالم » بلد أطلانطيس الجديدة المثالي ، فنظام الحكم هو النظام الملكي ، والقوانين السارية هي المثالية وأساس المجتمع العائلة .

ويرى بيكون أن خلاص البشرية ليس في إصـلاح الملكية بل في زيادة الطاقة الانتاجية عن طريق العلم وتطبيق تقنياته المستحدثة . وعلى هـذا ، فإن حركة البحث العلمي في أطلانطيس الجديدة يديرها اثنا عشر عالماً هم قوام الطبقة الارستقراطية فيها .

ج – كريستيانو بولس :

وهناك أيضاً مدينة فاضلة اخرى كتب عنها المفكر الالماني فالنتين أندريا، حيث تخيل رجـلاً قد ضاق ذرعاً برذائل مجتمعه ، فهجر راكباً البحر وإذ بعواصف وأعاصير تهب فتحطم السفينة حيث تغرق في البحر الأثيوبي،ويلقي الموج بحطام فوقه بطل القصة على جزيرة اسمها (كافار سلامه) عاصمتهـا « كريستيانوبولس » يحكمها ثمانية رجال يتبع كل منهم ثمانية آخرين ويساعدهم في الحكم مجلس استشاري مؤلف من أربع وعشرين عضواً لا اعتبـار للثروة وللطبقة في اختيارهم. وفي هذه الجزيرة يسود الانتاج المنظم ولكن لا ملكية خاصة فيها .

---

(١) افلاطون : طيماوس . ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة . دمشق . منشورات وزارة الثقافة . سنة ١٩٦٨ .

د – مدينة الشمس :

هدف المفكر الاسباني تومازو كامبانلا (١٥٦٨ – ١٦٣٩) إلى إيجـــاد نظام يعمل على تحسين أحوال الشعب اجتماعياً وتوحيد العالم تحت لواء اسبانيا سياسياً ، فتخيل ربان سفينة قد اضطر للرسو في جزيرة بعيدة تتصدرهـــا مدينة اسمها مدينة الشمس على ربوة عالية، يحكمها أمير يساعده ثلاثة امراء : أحدهم يتولى « القوة » فيدير شؤون الحرب والتموين والاقتصاد . والثـــاني يتولى « المعرفة » ويدير شؤون الثقافة . والثالث يتولى « الحسب » ويدير شؤون الزواج والصحة . وتسود في الجزيرة الاشتراكية المطلقة ، ولا فروق طبقية فيها إطلاقاً .

هـ – الكشف الجديد لأرض أستراليا .

وفي سنة ١٦٧٦ ، نشر كتاب بعنوان « الكشف الجديد لأرض أستراليا» وصف فيه مؤلفه « جبريل دي فوايني » رحلة خيالية لشخص اسمه جيمس سادور إلى قارة أستراليا حيث صادف شعباً يعيش حياة سعيدة . ولاحظ سادور ، بطل القصة الخيالية ، أن السكان يعيشون الحياة الطبيعية الخالصة ، لا يطبخون أطعمتهم ، بل يتغذون بالخضار والفواكه الطازجة ، ويتمتعون بفرص متساوية للحصول على الثقـــافة الكاملة ولا يرتدون ملابس وليس في بيوتهم أثاث .

وفضلاً عن ذلك فإن الحياة الاقتصادية بالمعنى المستحدث مفقودة تماماً . فلا ملكية خاصة ، ولا صناعات ولا قيمة نقدية للمعادن الثمينة ، ذلك أن السكان يقضون أوقاتهم في العناية بحدائقهم والتثقف . كما انه لا توجد قوانين إطلاقـــاً ، ولا حكومة . ذلك ان الانسان بنظر دي فوايني خيّر بطبيعته وليس شريراً بأصله حتى يحتاج إلى رادع .

٢ ـ الأمير

« حبي لروحي دون حبي لبلادي » .

مكيافللي – من رسالة تاريخ ١٦ نيسان ١٥٢٧

إذا كان لأرسطو الفضل في منهجة المعرفة التي قامت عليها منهجة التفكير السياسي بوجه عام ، واعتماد المنهج الاستقرائي بوجه خاص .

وإذا كان أفلاطون قد أمدّ التفكير السياسي بطاقة الخيال الخلاقة البنائية .

وإذا كان ابن خلدون قد زوّد الفكر السياسي بالمادة الموضوعية وربطه ربطاً محكماً بالاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ .

فقد حقق مكيافللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧) إنفصال التفكير السياسي عن الأخلاق انفصالاً بيّناً واكتشف اتساق السياسة في قوانين ثابتة لا تتغير معتمداً في ذلك المنهج الموضوعي مستمداً مادته من تحليل ومراجعة التاريخ الروماني (كتاب المطارحات) ومن ملاحظات سياسات الدول المعاصرة له (كتاب الأمير) .

والواقع ان كتاب « الأمير » يمثل الجانب الإيجابي والعملي في تفكير مكيافللي السياسي ويمكن اعتماده وحده كمرجع لفهم تفكيره السياسي .

ويرى أرنستو لاندي في دراسة له[1] ان مكيافللي « كان دون ريب واقعياً بمعنى أنه شدّد دومـــاً على ما اعتبره حقائق عن الطبيعة الانسانية والمجتمعات السياسية مهما ابتعدت هــذه الحقائق عن الخلق . وان ميوله الجمهورية لم تكن محاكاة لذلك المجتمع السياسي المركانتلي الذي كان يراه في البندقية ، على نقيض ذلك كانت ميوله تنبع من رغبة في إحياء نمط جمهوري استهواه عند قراءته كتب التاريخ لا سيما تاريخ روما القديم . وكان مكيافللي مفكراً سياسياً مبكراً ، وقد قام اعتقاده على ان قواعد السلوك الانساني يمكن استنباطها من الاختبار مؤملاً استخدام هــذه العبر لأغراض نبيلة مثل خلق جمهورية في ايطاليا المعاصرة تحاكي روما القديمة في مجدهــا » . ولكن مكيافللي مع هذا لم يكن متحمساً لتطبيق نظـــام الحكم الشعبي الروماني بحذافيره لاستحالة تطبيقه على ايطاليا في عهده .

وانطلاقاً من اعتبار مكيافللي ان غـــاية السياسة هي المحافظة على قوة الدولة والعمل على ازديادها فقد عني في كتاباته بالوسائل التي تحقق قوة الدولة وتمكنها من توسيع سلطانها في الخارج . والوسائل التي قصدهــا مكيافللي لم تكن تقوم على المقاييس المسلم بها وسيما المقاييس الأخلاقية . ذلك ان المهم والأولى هو تحقيق الغاية المنشودة ولا عبرة في الوسيلة الموصلة إليهـــا ! ومن هنا تبرير مدح مكيافللي للحكام الذين يحققون تركيز سلطتهم وقوة دولهم دون الأخذ بعين الاعتبار الوسائل التي لجأوا إليها لتأمين ذلك ودون مراعاة عدم ارتباط هذه الوسائل بالقيم والمسلّمات الأخلاقية . وهـــذا ما حمل دوفرجيه عند مقارنته مكيافللي بارسطو إلى القول : « لقـد أوجد ارسطو الركن الأول في علم السياسة وهو اعتماد منهج الملاحظـــة واوجد مكيافللي

---

(١) موريس كرانستون : أعلام الفكر السياسي – دار النهار للنشر – بـيروت ١٩٧٠، ص ٤١.

العنصر الثاني ، وهو المنهج الموضوعي المتجرد من الاهتمامات الخلقية »[١] .

ولكن يقتضي التنبيه إلى أن مكيافللي عندما حبذ استخدام الحاكم للوسائل المنافية للأخلاق لتحقيق أغراضه في الحكم فإنه من جهة ثانية أكد ان الدولة القوية لا يمكن أن تقوم وتحافظ على كيانها إلا على أساس أخلاقي . وربط مكيافللي أخلاقية المواطن بأخلاقية الدولة فأكد وجوب تمسك المواطن بالأخلاق معتبراً معيار مواطنيته مقدار خدماته للمجتمع . ومن هنا كان استشهاد مكيافللي بالفضائل الخلقية الشعبية الرومانية القديمة والسويسرية الحديثة والتي ردها إلى صفاء الحياة العائلية واخلاص الأفراد في القيام بواجباتهم .

ورغم هذا فإن مكيافللي ظل مصراً على اعتقاده بسوء طوية البشر ، فاعتبر طبيعة البشر متميزة بالأنانية وحب الذات وما رغبة المواطن في تأمين حياته والمحافظة على ممتلكاته وسعي الحاكم إلى تقوية وتوسيع سلطته إلا نتيجة لتلك الأنانية وما قيام الحكومات إلا لتحقيق تلك الرغبات المتولدة أصلاً عن الأنانية . وانطلاقاً من الاعتقاد نفسه — سوء طوية البشر — اعتبر مكيافللي ان نشأة القوانين هي للحد من ميل وسعي الانسان للنزاع والتملك والسلطة . ولكن مكيافللي يعود من جهة ثانية ، ليؤكد ان القوانين هي التي تحفظ أخلاق الشعب وتنمّي فضائله . ومن هنا تأكيده على ضرورة وجود مشترعين بصورة مستمرة . ولكن وجود المشترع يفقد مبرره عندما يتخلى الشعب عن الأخلاق الفاضلة ، وبذلك يكون لا بدّ في هذه الحال من الحكم الاستبدادي لتحقيق الأخلاق الشعبية !

---

(١) M. Duverger : Methode de la science politique - Introduction à la politique. Paris - Gallimard p. 93

في الترجمة العربية للدكتور جمال الأتاسي والدكتور سامي الدروبي ـ دار دمشق ـ دمشق .

وكان مكيافللي يعجب بالحكم الجمهوري الروماني ويؤمن بنظام الحكم الاستبدادي ، ولكنه كان يعتبر الحكم الديمقراطي أصلح الأنظمة شرط أن يكون الشعب مستنيراً ومتمسكاً بالأخلاق الفاضـــلة ، والدولة مستقرة الأوضاع. أما إذا كانت الدولة ناشئة أو فاسدة فهي بحاجة إلى الحكم المطلق.

وفضلاً عن هذا فقد كان مكيافللي يؤمن بضرورة اشتراك الشعب بالحكم معتبراً هذا الاستقرار يؤدي إلى الاستقرار الحكومي . وبرأي مكيافللي انه على الرغم من ان الشعب غير قادر على فهم السياسات الدقيقة للدولة فإنه أصلح من الأمير في الحكم على فساد ادارة الولاة العموميين الفاسدين .

وقد وصل مكيافللي إلى حد إعلان عدم ثقته بنظام الحكم الارستقراطي وبطبقة النبلاء لا بل انه نادى بضرورة إلغاء هذه الطبقة إن لم يكن في الواقع قد دعى إلى القضاء عليها لتحقيق استقرار الحكم .

هذه هي بعض ما امكننا استخلاصه من أفكار مكيافللي السياسية وهي أفكار كما يظهر لا تجعلنا نسلم بتلك « السمعة السيئة » التي وصمت بها أفكاره السياسية ليس في القرون الماضية بل في القرن العشرين عندمـــا استغلت وحوّرت من بعض الدكتاتوريين ومفكريهم تبريراً لسلوكهم وأنظمتهم . بل على العكس تذكرنا بتفسير بيكون لفكر مكيافللي في انه عالج البشر كما هم لا كما ينبغي أن يكونوا . وهذا لا يعني تسليمنا بتشاؤم مكيافللي المطلق في تعميم حكمه على نفسية البشر أجمعين .

والجدير بالذكر أن « السمعة السيئة » لم تلحق بفكر مكيافللي في حياته بل لحقته بعد وفاته يوم نشر كتاب « الأمير » للمرة الأولى .

وكان الكاردينال الانجليزي بولس (Polus) أول من كتب مؤلفـــاً في مهاجمة كتاب « الأمير » . وكان لهذا الكتاب أثر كبير أدى إلى الحظر على كتب مكيافللي وتحريم نشرها .

كما انتقد غانتيه (Gantillet) وهو أحد الكالفينيين في مؤلف ضخم ، أفكار مكيافللي في الحكم .

ولكن ما أن بدأت النهضة تترسخ في القرن السادس عشر حتى انبرى من يدافع عن مكيافللي ويترجم كتبه ، أو من يتخذ موقفاً حيادياً كما فعل مونتين (Montaigne) عندما حصر انتقاده لكتاب « الأمير » بمسألة انكار مكيافللي إنكاراً تاماً استحالة نجاح الاخلاص والاستقامة في المجال السياسي .

والطريف أن عبارة المكيافللية أصبحت تعتمد كصفة في كل استشهاد أو وصف للخبث والدهاء والغدر والفساد في السلوك والأخلاق . ولعل الأدب الانجليزي في العهد الاليزابيتي هو الذي مهّد وكرّس هذا الأستشهاد . وفي مسرحية «يهودي مالطه» (The Richiew of Malta) لكريستوفر مارلو[1]

---

(١) في هذه المسرحية يجعل مارلو مكيافللي يقوم بتقديم المسرحية ، حيث يبدو في « الدخل » يصرح قائلاً : « لئن كان العالم يحسب أن مكيافللي ميت ، فإن روحه قد طارت إلى ما وراء جبال الألب . والآن ، وقد فني جسده فإن هذه الروح تأتي من فرنسا لتشهد هذه الأراضي البريطانية وتلهو مع أصدقائه . وقد يكون اسمي ممقوتاً عند بعض الناس ، لكن الذين يحبونني يحمونني من ألسنتهم ويعرفون بأنني مكيافللي ، وأنني لا أقيم وزناً للناس ولذلك لا أقيم وزناً لكلامهم . انني موضع الاعجاب عند أولئك الذين يضمرون لي أشد الكره ، إن بعض الناس يهاجمون كتبي بصرامة ، ولكنهم مع ذلك يقرأونها . وعندما يذمون كتبي فإن أتباعي الصاعدين في طريق المجد يقتلونهم باسمي . ثمة كثيرون يتحدثون عما لبعض الناس من حق في تاج من التيجان ، فأي حق كان لقيصر في تنصيب الأمبراطور ؟ إن القوة هي التي نصبت الملوك أولاً ، وبعدئذ أكدت القوانين حقوقهم إلى أبعد الحدود ، وخاصة عندما كانت تكتب بالدم ، كقانون دراكو . ومن هنا كانت القلعة المنيعة فيا تشيعه من جو حولها أقوى بكثير مما تستطيع أن تعبر عنه الكلمات . لو أن فالارس وعى هذا المبدأ ما كان يخار في قلب ثور من نحاس . أما عن الحسد الذي يصوب إلى كبار القوم من صغار البشر الحالكين فإني لأفضل أن يحف بي الحسد لا العطف » .

(The Merry wives « ومسرحية « نساء وندسور (Christopher Marlow) (of windsor - لشكسبير [1] مقاطعاً تظهر ذلك بوضوح .

ولكن تفكير مكيافللي لم ينل التقدير ولم يسترجع اعتباره الكلي إلا منذ القرن الثامن عشر فترجمت آثار مكيافللي إلى العديد من اللغات . ويثني روسو (Rousseau) عليه . ويحلل « فيخته » (Fichte) كتاب الأمير، في خطابه للشعب الألماني . ويشهد له هيجل بالعبقرية . ويعتبر « رانكه » (Ranke) مكيافللي مؤسس المنهج التاريخي الحديث ، وأحد مؤسسي التحليل التاريخي الحديث . ويشيد « ترايتشكه » (Treitschke) بفضل مكيافللي في دراسة الدولة . ويعتبر كافور وزعماء الريزور جيمنتو (Risor gimento) مكيافللي رسول الوحدة الايطالية .

وأخذت الدراسات والشروح المفصلة لأفكار مكيافللي تتوالى ، فيكتب فيها « سانكتس » (Sanctis) و« توماريني » (Tomarini) و « فيلاري » (Villari) و« فرنشيشكو أروكلي » (Francesco Ercole) و « فريدريكو كابود » (Fredrico Cabod) في ايطاليا و« ماكوولي » (Maccauly) و« لورد أكتون » (Lord Acton) في انجلترا .

ويرى لاندي في دراسته عن مكيافللي الآنف ذكرها ؛ ان مكيافللي وان لم يكن يعتقد أن بإمكانه التنبؤ بتاريخ البشرية المقبل كما تنبأ غاليليو بحركات الكواكب السيارة المقبلة ، فإن مقصده لم يكن بعيداً عما قصد إليه ماركس بعد قرون ثلث : السيطرة على المستقبل وتسييره ، وكسب قوى

---

(١) يتساءل شكسبير هنا على لسان احدى الشخصيات قائلا : هل أنا أريب ؟ هل أنا مكيافللي ؟

(٢) موريس كرانستون : المرجع الآنف الذكر ص ٤٦

جديدة في السياسة نتيجة المعرفة بقوانين التاريخ . إلا أن ماركس ، خلافاً لأسلوب مكيافللي الأقرب إلى أسلوب مزارع ، يسيطر على الطبيعة بمعرفة طرقها ، أضفى على عمله عظمة تاريخية مميزة[1] .

---

(١) بعض مراجع ومصادر دراسة فكر مكيافللي السياسي :

- Charles Benoist : le Machiavélisme, 3 vol. Plon. Paris 1907, 1915, 1935

Machiavel : Oeuvres complétes - texte présenté et annoté par Edmond Barincou. Introduction par Jean Giono. Gallimard. Paris 1952, De la pléïade.

Augustin Renaudet : Machiavel. Gallimard, Paris 1955.

- Marcel Brion : Génie et destinée de Machiavel Albin Michel. - Paris 1948.

- Edmond Barincou : Machiavel par lui-même. Coll. Ecrivains de Toujours, aus éditions du seuil. Paris 1957.

- Machiavel : Coll. Les Géants. Périodique Paris-Match Edit. Pierre Charron Paris 1970.

- مكيافللي : الأمير - تعريب خيري حماد - المكتب التجاري - بيروت .

- مكيافللي : المطارحات - تعريب خيري حماد - المكتب التجاري - بيروت ١٩٦٢ .

- محمد مختار الزقزوقي : نيقولا مكيافللي (دراسة تحليلية ونص كتاب الأمير وقاموس مكيافللي) - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة .

- غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ١٥٤ - ١٦٦ .

- د . حسن صعب : علم السياسة . المرجع الآنف الذكر ص ٩٤ - ٩٧ .

٣ ـ الفكر السياسي بعد الأمير

١ - السلطة المطلقة :

كانت فكرة « السيادة » التي شغلت جانباً هاماً في تفكير مكيافللي هي التي حازت اهتمام عدد كبير من المفكرين السياسيين الذين تلوه وكانت موضع تحليلهم ودراستهم ، أولهم المحامي جان بودان (١٥٣٠ - ١٥٩٦) الذي ضمّن أفكاره السياسية كتابه المسمى « عن الجمهورية » De la Republique الذي نشره سنة ١٥٧٦ مقدماً قيام النظرية السياسية على قواعد تاريخية وعلى ملاحظة الواقع ودراسة المؤسسات السياسية والقانونية ضمن نطاق ما يطرأ عليها من تطورات وظروف وعلى أساس تاريخي مقارن . وقيمة بودان هو انه كان لطريقته التحليلية تأثيراً على هوبز الذي سنعرض له فيما بعد حيث انه تبناها في دراسته السياسية. ويعتبر جان بودان انه سبق إلى البحث التاريخي المقارن الذي نهجه واعتمده مونتسكيو في « روح الشرائع » فيما بعد .

ولا بد من الملاحظة ان جان بودان كان من انصار الحكم الملكي المطلق . ويبرّر ذلك بأن الدولة التي تتبنى النظام الديمقراطي هي دائماً عرضة للثورات ولكنه على كل لم ينكر امكان قيام نظام حكم مختلط . وعلى هذا لم يكن بودان يؤيد الحريات الفردية ولا يأخذ بالعقد الاجتماعي اطلاقاً وبنظره انميزة

المواطن هي في خضوعه المطلق لسيادة الدولة وميزة الدولة هي وجود السلطة السياسية العليا فيها . إنما الدولة رغم هذا تظل مقيدة بالموجبات الأخلاقية المنبثقة عن القوانين الطبيعية والإلهية .

ولكن مما يثير الانتباه في تفكير بودان هو اعتباره ضرورة انسجام التنظيم السياسي وشكل الحكومة ونوعية القوانين مع طبيعة الشعب وظروف حياته الميكانية الجغرافية .

وفضلاً عن هذا نجد بودان ينبه إلى ما يؤدي إليه التفاوت في الثروات من مشاكل اجتماعية وسياسية وفي الوقت نفسه يعارض في تدخل الدولة في الملكية الخاصة والنشاط الاقتصادي الفردي .

٢ – العقد السياسي والعقد الاجتماعي :

ولكن التوسياس يرى انه لا يمكن أن يوجد عقد اجتماعي دون عقد سياسي، كما انه في الوقت نفسه لا يقوم العقد السياسي دون العقد الاجتماعي ، ذلك ان كلا من العقدين يكمل الآخر. وما من مجتمع إلا ويقتضي أن يكون له قانونين أساسيين:القانون الأول، وهو نتيجةالعقد السياسي بين الحكم والمواطنين، فيحدد العلاقات بينهما وينظمها ويبين حقوق وموجبات كل منهما تجاه الآخر . والقانون الثاني،وهو يعكس العقد الاجتماعي،وهو الذي بموجبه يتعايش الأفراد معاً في المجتمع يتحملون الواجبات ويتمتعون بالحقوق تجاه بعضهم البعض .

وترتبط بهذه النظرية نظرية فرعية كان لها دستوراً هاماً استأنست به أنظمة الدول المركبة . لقد اعتبر التوسياس مجتمع الدولة لا يتكون من الأفراد فحسب بل من المقاطعات أيضاً وانضمام المقاطعة إلى الدولة لا يعني تنازلها عن حقوقها بكاملها للدولة الأم بل يعني فقط افقادها بعض الحقوق التي تتعارض مع تحقيق غرض انضمامها إلى الدولة أو الغاية من قيام هذه الدولة .

ويربط التوسياس فكرة السيادة بالدولة ذلك ان المجتمع بدون دولة يخلو من السيادة ، والسيادة مصدرها الشعب فإذا تخلى عنها الشعب زالت وزالت مع زوالها الدولة . والسلطة التي تمارس هذه السيادة تمارسها باسم قانون الدولة نتيجة العقد السياسي !

٣ – إعادة النظر في القانون الطبيعي :

ويذهب جروشس (١٥٨٣ – ١٦٤٥) في دراسة مصادر القانون الطبيعي ومقوّماته إلى تعريف تعميمي معتبراً ان القانون الطبيعي هو ما يمليه العقل وينسجم مع القيم الاخلاقية . وهو بذلك يشكل مصدراً للقانون الوضعي . ولا يكتفي جروشس بنظرية العقد في قيام المجتمع ونشأة الدولة ، بل يضيف الدافع وهو المصلحة المشتركة بين الأفراد . ويربط جروشس السيادة بالشعب ويعتبر الشعب هو مالك حق اختيار نظام الحكم الصالح له . وإذا ما مارس الشعب هذا الاختيار فليس له أن يرجع عنه بعد ذلك ولا يستطيع تغييره ! .

٤ – اللوياثان والبهيموث :

اللوياثان (Levithan)تمساح هائل متسلط على جميع الوحوش البحرية . وقد أشار اليه العهد القديم حيث ذكر ان بعض الوحوش البحرية قد طمح في اغتصاب سلطته ، لكنها قابلت مناعة منه حالت دونها وتحقيق غايتها . وقد استعار توماس هوبز (١٥٨٨–١٦٧٩) اسم اللوياثان عنواناً لكتابه الذي عرض فيه جوانب من تفكيره السياسي وبصورة خاصة نظريته في السيادة . لقد رأى بعض من تناول فكر هوبز السياسي ودرسوا هوبز ومنهم وتكنز ، ان هوبز قد أراد باللوياثان أن يظهر « ان الطموح المتعجرف هدام فضلاً عن اصطدامه بالواقع . وعلى هذا الأساس فان البشر العقلاء يتناورون وقد وعوا

ليس حاجتهم إلى الحماية لان يحكموا من دولة تكون على نمط اللوياثان صلدة منبثقة تغدو محاولة تقويضها ضرباً من الجنون[1] » . ويرى آخرون ان هوبز قد أراد أن يمثل الدولة باللوياثان يرهبها الأفراد ولا يحترمونها، وإذا كانوا قد ارتضوا بها وسكتوا عن وجودها فذلك لتأمين منفعتهم الشخصية[2] . ومنطلق هذا المبدأ هو ان المجتمع بنظر هوبز كيان مصطنع أوجده الأفراد تحقيقاً لمنفعة تفوق نفع العيش الفطري الطبيعي وذلك على أساس ان في المجتمع يتم تبادل الخدمات والأفراد . ومن هنا كان منطلق تفكير هوبز الفردي .

واستعار هوبز تسمية وحش بحري آخر هو « البهيموث » ليطلقها على البرلمان المعمر الذي عايشه كرومويل ثم أزاله . وهو البرلمان الذي أصبح قوة مستقلة بموافقة الملك على قانون عدم حله، الأمر الذي أدّى إلى تجزئة السيادة وبالنتيجة القضاء عليها .

وبرأي هوبز انه بالنظر لكون الانسان غير اجتماعي بفطرته فلا بد أن تكون الدولة تحت سيادة حكومة متسلطة تكبح جموحه وأطماعه، ولا بدّ في أية دولة من تركيز السلطة في أيدي السلطان السيد . وليس من الضروري أن يكون صاحب السلطة ملكاً ، بل يمكن أن يكون مجلساً أم هيئة يكون لها قرار واحد . وانطلاقاً من اعتقاده بالعدالة الأصيلة في القانون فقد اعتبر أن القوانين التي تصدرها السلطة لا يمكن إلا أن تكون عادلة .

---

(١) موريس كرانستون : المرجع الآنف الذكر .
مقال ك.و.ن. وتكنز عن هوبز ص ٤٩ .

(٢) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ١٩٩ .

والجدير بالذكر أن هوبز وهو يعتمد المنهج الاستقرائي في بحثه قد تجنب اعتماد المقاييس الوطنية أو الاخلاقية أو الدينية في استخراج قواعده خشية أن يدخل في معترك التنازع الايديولوجي الذي كان يصطرع فيه التفكير السياسي في انكلترا في زمنه . وعلى هذا كان لا بـد لهوبز ، الذي هو في الوقت نفسه معجب بمعاصره الدكتور وليم هارفي مكتشف الدورة الدموية ، من أن يرسي مقاييسه على الميول البيولوجيـة والنفسانية ، على اعتبار أن القلب هو العضو الذي يتحكم بحياة ورغبات الانسان . وهنـا نلمس إلى أثر تفاعل دراسة العلوم الاجتماعية والانسانية مـع الثورة المنهجية التي حدثت في دراسة العلوم الطبيعية وعكوف الفلاسفة على دراسة القوانين الطبيعية الانسانيـة فردية واجتماعية على أسس معطيات دراسة أنظمة القوانين الطبيعية التي كشفتها أبحاث كوبرنيكوس (١٤٢٨ – ١٥٤٣) وغاليـله (١٥١٤ – ١٦٤٢) ونيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧) وغيرهم .

والجدير بالذكر أن هوبز يبرّر سيادة القوة ، فهو يتبنى نظرية العقـد ، فالدولة كالمجتمع نتيجة عقد مبرم بين المواطنين ، يتضمن تنازلاً عن حقوقهم ، وتعهداً بالخضوع لسلطة حكم هي بمثابة الشخص الثالث ليس طرفاً بالعقد.

ولم يكن هوبز يهتم بكون الدولة ذات السيادة تتخـذ شكل الديمقراطية أو الأوليجاركية أو الملكية المقيدة ، مـا دامت تؤكد سيادتها في علاقتها بالدول الأخرى وتحتفظ بسلطتها بالنسبة إلى مواطنيها [١] .

---

(١) هربرت ماركيوز : العقل والثورة ، ترجمـة فؤاد زكريا ، دار الكتاب العربي القاهرة ، ١٩٧٠ ص ١٧٧ .

٥ — الطور الطبيعي وحقوق الانسان الطبيعية

اتّسم تفكير جان لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) كما اتسم تفكير هوبز بروح الفردية . فهو يرى أن المجتمع لم ينشأ إلا لحماية الحقوق الطبيعية للفرد والمصالح الشخصية التي برّرت وجود المجتمع .

واعتبر لوك أنّ القانون تكرّس مصلحة الفرد وبواسطته تحمى حقوق الملكية الخاصة الحريات الشخصية والقانون يقتضي أن تمنع الدولة من التعرض لهذه الحقوق .

والدولة هي نتيجة « الإيجاب consent » الذي هو بمثابة عقد . وهذا العقد هو الذي يؤدي إلى قيـــام السلطة التي لا تنشأ إلا بإيجاب المواطنين . وتتولى الهيئتان التشريعية والتنفيذية حماية الملكية والحريات. وغيرها من حقوق الانسان الطبيعية مبني على تنازل الفرد للسلطة عنها . يبرّر هذا التنازل ضمان تكريس هذه الحماية واستمرارها دون تعرّض . وهذا مـا يطلق عليه العقد الأول(The original compact)وهو الذي أدّى إلى تكوين الأفراد للمجتمع الذي مثل الشخصية المعنوية التي فصل لها التنازل ، ذلك انـه يقتضي أن يكون للمتنازل له كيان حتى يكون قانونياً .

وبفضل هذا العقد ينشأ إلزام الفرد بالخضوع لرأي الأغلبية .

والسلطة التشريعية هي أعلى سلطة في الحكومة . ولكن لجهة القوانين التي تتقيد بها السلطتان التشريعية والتنفيذية يعتبر لوك أن للسلطة التنفيذية الحق في الاشتراك في سنّها .

ويعطي لوك للمجتمع حق تغيير الهيئة التي تتولى السلطة التشريعية عندما تفقد الثقة التي منحها لها . ويربط زوال الحكومة بتلك الثقة الممنوحة للهيئة التشريعية .

أما السلطة التنفيذية فهي مسؤولة تجاه السلطة التشريعية .

وبالنتيجة فإن محور فلسفة لوك السياسية هو أن الحكومة بما فيها الملك والبرلمان مسؤولة تجاه الشعب ، وسلطتها مقيدة بالتزام واجباتها والتقاليد الدستورية والتعهدات التاريخية .

ذلك هو ما أمكن عرضه من نظريات لوك السياسية في الحكم ، وهي على حدّ رأي بيترز عبارة عن « خيوط مفككة جميعها من مصادر متنوعة ، وحاكها حول مجموعة من المطالب السياسية التي كانت تتفاقم في وجه نوازع آل ستيوارت الأوتوقراطية واكتسبت نظرياته هذه تلك الشهرة الواسعة لا لعمقها الفلسفي وسعة أفقها ، بل لكونها عبّرت بشكل نظري عن مشاعر الناس في كل مكان بوجوب لجم السلطة المطلقة »[1] .

ومن المسلم به أنه كان لآراء لوك السياسية ، الأثر الكبير في تطور الفكر السياسي والاقتصادي اللاحق . فمذهبه في « الطور الطبيعي » وفي العقد الاجتماعي « يحكي من نواح عدة مذهب روسو الذي تأثر به ولا شك» ويختلف عن مذهب توماس هوبس (هوبز) الذي يصف الطور الطبيعي بأنه طور من التناحر والخصام الدائمين (The war of all against all) يحفّ به الخوف من جميع جوانبه . كذلك بسطه لنظرية تمييز السلطات الحكومية وانفصالها (separation of powers) يعتبر تمهيداً لمذهب مونتسكيو في هذا المضمار ، وأساساً من الأسس التي يرتكز عليها الدستور الاميركي وأقواله في العمل والملكية هي من دعائم الاقتصاد الحديث . أما في مضمار الحياة السياسية الفعلية فقد كان أثر جون بالغاً جداً . فنظريته في حقوق الانسان الطبيعية هي من أهم الأسس الفلسفية التي ترتكز عليها الوثائق الدستورية المعروفة باسم

---

(١) موريس كرانسون : المرجع الآنف الذكر ، ريتشارد بيترز : لوك ص ٥٨ .

شرعة حقوق الانسان ، والتي جرت العادة منذ الثورة الاميركية سنة ١٧٧٦ والثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ على إدراجها في الدساتير الحديثة [١] .

٦ - روح الشرائع :

وكان لمونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) دوراً هاماً في الثورة المنهجية التي كان يتمخض بها الفكر السياسي . فقد خرج بحقل استقراء التاريخ من الأبعاد المكانية والاقليمية والزمانيـة المحددة (بالمطالعة والرحلات) دارساً بشمول التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في كل زمان ومكان ، ومن هنـا كانت قيمة كتابه « روح الشرائع » فمونتسكيو على حدّ وصف « دالامبير » لم ينهج فيهذا الكتاب الهام نهج أسلافه ، ولم يسترسل في جدليات ميتافيزيقية على النحو الذي انصرف إليه أولئك الذينيتصورون الانسان تصوراً تجريدياً ، ولم يقف كسواه عند حـد تناول بعض الشعوب في أحوال خاصة ، ولكنه تناول جميع سكان العالم ، وتطرق لأحوالهم الحقيقية فكل ما يقوم بينهم من علاقات [٢] .

والواقع أنـه لا يمكن الإحاطة بتفكير مونتسكيو بمعزل عن مؤثرات محيطه المتعددة وأهمها : ١ - تأثير العقلية الفرنسية بوجه عـام بالعوامل

---

(١) الدكتور ماجد فخري : جون لوك وفلسفته السياسية ، مقدمة ترجمة كتاب لوك : مقالتان في الحكم المدني - (Two treatises on civil goverment) - اللجنة الدولية لترجمة الروائع « الأونسكو » بيروت ١٩٥٩ ، ص : س .

وقد أورد الدكتور فخري في نهـاية مقدمته ص : (ف ، ص ، ق) لوائح تناولت : مؤلفات لوك الفلسفية والسياسية بحسب تاريخ صدورها ، والمؤلفات التي صدرت بعد وفـاة لوك ، وبعض المراجع لدراسة فلسفة لوك السياسية وأهم المؤلفات عن حياة لوك .

(٢) الدكتور حسن صعب : علم السياسة ، المرجع الآنف الذكر ص ١٠١ .

الطبيعية، وبالمناخ والأرض . ٢ – الحالة الصناعية والتجارية التي كانت سائدة ووسائل انتاج السلع . ٣ – الانفعالات النفسية والعقلية الناتجة عن الظروف العامة . ٤ – شكل الدستور السياسي . ٥ – التقاليد والعادات التي كانت أساس التكوين القومي للشعب »[١] .

وكان منطلق مونتسكيو نظرية القانون الطبيعي، وبرأيه أن العدالة المجردة كانت سائدة قبل ظهور القانون الوضعي الذي هو نتـــاج تكيف القانون الطبيعي مع المكان والزمان (جغرافياً وتاريخياً) . ومثل الحكومة مثل القانون نشأتها ونوعها يرتبطان بالمكان والزمان . وتصنيف مونتسكيو لأنواع الحكم هو التصنيف الذي لا زال معتمداً كقاعدة في القوانين الحديثة وهـذه الأنواع هي ثلاثة : الحكم الجمهوري ، الحكم الملكي ، الحكم الاستبدادي .

ويكفي مونتسكيو فضلاً ان نظريته في فصل السلطات هي القاعدة التي تقوم عليها الدساتير في العالم منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم[٢] .

---

(١) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ٢١٦ .

(٢) مصادر ومراجع دراسة فكر مونتسكيو السياسي :

- Montesquieux : De l'Esprit des lois. Ed. de Conzagne True. Paris - Garnier Frères 1961 الترجمة العربية : عادل زعيتر

: Considerations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur decadence. Chronologie et préface par J. Ehrard. G. F. N° 186.

- Politique de Montesqieux-Textes choisies et présentés par J. Ehrard Armin Colin, Paris 1965

- Marcel Prelot : Histoire des idées politiques. Paris 1959.

٧ – أقصى سعادة لأكبر عدد :

عاصر مونتسكيو مفكراً كثيراً ما تذكر نظريته السياسية بالفلسفة الابيقورية وان كان الفرق و نعدام الصلة بينهما شاسعين . هذا المفكر هو هلفتياس (١٧٠٥ – ١٧٧١) مؤلف كتاب (De l'esprit) .

استخلص هلفتياس من أبحاثه ان غاية الانسان في سلوكه وانجازاته الحصول على أكبر قسط من السعادة والابتعاد إلى أقصى حد عن الألم . وانطلاقاً من هذا المبدأ رأى هلفتياس وجوب أن يأخذ المشترع بعين الاعتبار الدوافع الذاتية الهادفة للسعادة . وترتبط الدوافع الذاتية ارتباطاً كلياً بالأخلاق ومن هنا كان تشديد هلفتياس على دراسة الأخلاق سيما وان الدوافع الذاتية هي المقياس الذي يعتمده الانسان في تقرير سلوكه وتصرفاته. والدوافع الذاتية لا تخلو على الاطلاق من غريزة المنفعة الذاتية وعلى هذا يقتضي ضبط المنفعة الذاتية ضمن الأبعاد الأخلاقية . ومتى ضبطت المنفعة الذاتية ضمن الأبعاد الأخلاقية زال التعارض بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة .

وهنا يظهر بوضوح الفرق بين منطلق مونتسكيو ومنطلق هلفتياس، فبينما الأول كوّن نظريته على أساس جغرافي تاريخي كوّن الثاني نظريته على أساس أخلاقي نفساني فردي .

٨ – حرية الرأي العام وفساد الحكم :

إذا كان فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨) وهولباك (١٧٢٣ – ١٧٨٩) قد اتفقا بما أثاراه من نقد للتعصب الديني فلقد تباينا في النطاق الذي وجه إليه كل منهما اهتمامه السياسي، إذ نرى فولتير قد خص باهتمامه قضية الحرية في

النظام السياسي آخذاً من النظام البريطاني نموذجاً مثالياً . بينما نجد هولباك [1] يذهب إلى انتقاد النظام الحكومي عامة والنظام الحكومي الفرنسي خاصة معتبراً ان الحكومة جاهلة مقصرة ظالمة مستغلة خارجة عن غايتها باهتمامها بالحرب والتوسيع بدلاً من الاهتمام بالشعب ومطالبه . ويذهب هولباك إلى حد اعتبار الانسان خيّر بطبعه، ولكن الحكومات هي التي تفسده وتحمله على الشر ، ولا حلّ إلا باطلاق حرية الارادة الشعبية . وضعف الدولة عائد إلى تقسيم المصالح بين الطبقات ولا علاج إلا بالتعليم والثقافة، وبنظره هو الحل الثوري . والحاكم ليس إلا مجرد وكيل عن الشعب وممارسته الصحيحة لأعباء وكالته تكون بالعمل على نشر التعليم والثقافة بين الشعب وبذلك وحده يكون حاكماً صالحاً .

٩ – العقد الاجتماعي والحب الاجتماعي

« كان روسو هو أول داعية إلى التطور الاجتماعي، وكانت محاولته في رسم التقدم التاريخي للمجتمع الانساني بصورة منسّقة ، هي الأولى من نوعها . فهو في هذا المجال يتقدم قرناً كاملاً على انجلز والآخرين الذين جعلوا مسألة تطور المجتمع الانساني موضوعاً شعبياً. وان اهتمامه بتعيين مراحل التطور الاجتماعي وعوامله الفاصلة ، هو دون ريب موضع التقدير ، لا سيما إذا ما قورن بالكتابات المعاصرة في زمنه ، فقد كان جميع معاصريه يتحدثون عن التقدم ، غير أنهم عالجوا الأمر بأسلوب متداع ينقصه التماسك ، بينما انفرد روسو عنهم جميعاً بالتفكير في التقدم على أساس أنه عملية متكاملة يتوجب اكتناهها » .

هذا مما استهل بـه برتراندالي جوفنيل دراسته عن روسو (١٧١٣ –

(١) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ٢٢٣ – ٢٢٥ .

١٧٧٨)[١] . والواقع أنه وإن كان سبق لهوبز ولوك أن تبنيا نظرية العقد الاجتماعي فقد أعطاها روسو مضموناً أجدّ وأبعاداً أوسع . فالانسان البدائي كان انساناً صالحاً والحياة الطبيعية الفطرية الأولى هي السعادة المثلى. والأفراد عندما اتفقوا على التنازل للجماعة عن حقوقهم في السيادة فذلك على أساس اشتراك إرادة الفرد مع إرادة الآخرين لتمثيل الإرادة العامة. على أن إرادة الأغلبية تمثل الإرادة العامة بعد تكوّن الدولة. وما الإرادة العامة بالواقع إلا المظهر الوحيد للسيادة . ومن حق الشعب ممارسة السيادة باستمرار ودائماً ، والقوانين مصدرها الوحيد إرادة الشعب. والحكومة هي وكيل عن الشعب تخضع لرقابته باستمرار ، وتغيير الحكومة يعود لإرادة الشعب وحده . ويورد كرامنشوف في كتابه «عرض موجز لنظريات الدولة والقانون» : أن « راديشيف » الديمقراطي الثوري الروسي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، قد أيد هذه النظرية واعتقد كذلك بأن النظرية التعاقدية عن أصل الدولة ، تعطي للشعب حق الانتفاضة ، حق الثورة . ما لم يقم الملك وهو أحد طرفي الاتفاق بجميع التزاماته . وكان راديشيف يقول أن سلطة الدولة يجب أن يضعها الشعب ، وأن يراقبها الشعب نفسه . ومن هنا يأتي الدور التقدمي لنظرية التعاقد هذه[٢] .

والحكومة بنظر روسو تكون إما ملكية أو ارستقراطية أو ديمقراطية أو مختلطة . ويتكيف نظام الحكم مع حالة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية

وقد استحسن روسو نظام الحكم الديمقراطي المباشر وفضله على النظام النيابي الذي هو بنظره دليل الفساد السياسي .

---

(١) موريس كرانستون : المرجع الآنف الذكر ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) كرامنشوف : عرض موجز لنظريات الدولة والقانون - دار التقدم ، موسكو ، ص ٣٢

وتجدر هنا ذكر فكرة الاجتماع الدوري للشعب لتجديد ثقته بالحكومة وبالموظفين العموميين أو منحها عليهم وهي الفكرة التي اقتبستها دساتير بعض الولايات الاميركية . وقبل الانتقال من عرض تفكير روسو السياسي لا بد من الاشارة إلى مفهومه في الحرية والمساواة ، ان الحرية ، الحرية البدائية ، هي المنطلق والغاية لبناء حياة اجتماعية حقة ، وان دخول الانسان الحر ، المجتمع الحر ، من شأنه فتح آفاق رحبة لتعزيز الحريــة عن طريق ممارستها من الفرد والمجتمع . أما المساواة فهي قاعدة دعم النظام السياسي وبالمساواة تحمى الحرية والعدالة في آن واحد[1] .

---

(١) بعض مراجع دراسة فكر روسو السياسي :

- J. J. Rousseau : Du contrat Social. Chronologie et introduction par P. Burgelin. Ed. Garnier - Flammarian Paris coll. G. F. N° 23.

- J. J. Rousseau : Oeuvres autobiographiques. préface de Jean Fabre. présentation et notes de Michel Lannay . Ed. du seuil. Paris.

- Oeuvre de Rousseau. présenté par P. Van Tieghem. coll. classiques France L. Hachette. Paris.

- J. J. Rousseau : Dialogue, Reverie. Gorrespendance. Classiques Larousse. Paris.

- J. J. Rousseau : Discours; Classiques Larousse, Paris.

– غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ١٢٥ – ٢٣٢

– موريس كرانستون : » » » ص ٧٠ – ٨٣ .

– د . ملحم قربان : نظرية الحقوق الطبيعية في العقد الاجتماعي (تحليل ونقد) رسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة ص ١٥٥ – ١٧٤

١٠ – تأملات :

في الزمن الذي كانت فيه قارتان تصطخبان بأكبر ثورتين ديمقراطيتين هما الثورة الاميركية والثورة الفرنسية .. في سنة ١٨٧٠ كان ادمون بيرك يصدر كتابه « تأملات في الثورة الفرنسية » يهاجم فيه الثورة الفرنسية بأسبابها وأهدافها معتبراً أن فكرة حقوق الانسان التي نادى بها روسو وحتى تلك التي حددها لوك ، فكرة مجردة لا تقوم على حقيقة. وما الحقوق الطبيعية إلا من اختلاق الانسان؛ ذلك أن العلاقات الاجتماعية بنظره وجدت مع الانسان ولم تطرأ عليه . ولكن بيرك في الوقت نفسه ، اعتبر أن العلاقات في المجتمع تتغير مع حاجات هذا المجتمع.واعترف بأهمية الرأي العام واعتبره أقوى سند للدولة . ولم يتردد بيرك في مناصرة مطاليب المستعمرات الاميركية ، والدفاع عن حقوق الهنود الحمر، والمطالبة بحمايتهم من استغلال الشركات والمؤسسات التجارية البريطانية . ولكنه من جهة ثانية ظل يعتبر أن السيادة في انكلترا ليست ملكاً للشعب باعتباره لا يستطيع أن يقوم بأعباء الحكم . ومطالب الشعب إذا توافقت مع استمرار الحكم ومبادىء العدالة والعقل تصبح بمثابة قوانين تقيد الطبقة الحاكمة ليس إلا. وعلى هذا فإن السيادة هي ملك البرلمان الذي يمثل دورالحكم في مطالب الشعب،وهذه السيادة هي نتيجة تطور تاريخي ودستور . الدولة وبعد «التقادم» أو مرور الزمن تكتسب اسم التقاليد ونوع الحكومة هو تحقيق للميل الطبيعي للشعب نحو نوع الحكم .

وكان بيرك لا يؤمن بامكانية الثورة على تطوير المجتمع . فقد رأى أن التغييرات المفاجئة لا يستسيغها الشعب بسهولة ، لذلك فإن التطور الطبيعي هو وحده وإن كان بطيئاً من شأنه أن يحسن المجتمع ويسير به نحو الكمال .

وهذا التطور وتسييره مناط بالطبقة الارستقراطية فهي وحدها التي يمكن أن تكتشفه [١] .

١١ – السعادة – المنفعة الذاتية :

« لقد وضعت الطبيعة الحرة تحت سلطة حاكمين سيدين هما الألم والمتعة ».

هذه الكلمة لجرمي بنثام تعبّر عن منطلق وأساس نظريته . ذلك أن هذه الكلمة قد خططت المبدأ الذي توصل إليه وبنى عليه نظريته . فالمبدأ الذي يتحكم في أعمال الفرد هو تجنب الألم والبحث عن السعادة . والمتعة هي تحقيق هذا المبدأ . وبمعنى آخر على حدّ قوله أيضاً مبدأ المنفعة يعني المبدأ الذي يحبذ أو يعارض أي عمل كان ، تبعاً لما يحويه من ميل نحو زيادة أو تقليل سعادة الفرد [٢] . وتزداد قيمة المتعة وتتحقق المنفعة كلما ازداد عدد الأفراد الذين يميلون إليها .

وعلى هذا الأساس فإن الأخلاق والقوانين هي نتاج سعي وعمل الانسان لانتاج أكبر طاقة من السعادة . وما عمل الحكومة إلا نشر وتحقيق هذه السعادة على أن تكون هذه السعادة وليدة توافق سعادة الفرد وسعادة المجتمع . ولا تتحقق السعادة إلا بحكومة دولة جمهورية ينص نظامها على مجلس يمثل الشعب ويقرّ القوانين التي تحقق سعادة أكبر عدد من الشعب .

---

(١) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ، ص ٢٣٢ – ٢٤٢ .

موريس كرانستون : المرجع الآنف الذكر ، مقال ج. م كاميرون عن بورك ، ص ٨٤ – ٩٤ .

(٢) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ٢٤٥ .

١٢ – الكونت الثائر :

ويشغل فكر هنري سان سيمون (١٧٦٠ – ١٨٢٥) مكاناً رحباً في تاريخ الفكر السياسي والاصلاح الاجتماعي . لقد هدف هذا الكونت الذي اشترك عسكرياً وفكرياً في الثورتين الأميركية والفرنسية إلى ايجاد نظام اجتماعي هرمي جديد، قوامه الكفاية والعمل، وذلك عن طريق تقدم المعرفة مصحوباً بحلول النظام الصناعي والعلمي محل النظام الإقطاعي والديني وتكون للطبقات الاقتصادية والمهنية السيطرة على النظام الجديد . وبذلك لا يعود من محل للفروقات الطبقية ذلك ان العمل يفرض على أفراد جميع الطبقات دون استثناء، والتقييم يقوم على المقدرة والكفاءة ليس إلا . وعلى الحكومة حماية هذا النظام .

وقد اعتبر سان سيمون التاريخ وحدة مستمرة، ودراسة الحاضر لا تكون إلا على ضوء دراسة الماضي . وآمن بالتقدم المطرد للانسانية ودعا إلى دراسة أسباب الثورات والتبديلات التي تنشأ عنها . وبذلك يكون سان سيمون قد رفض التفسيرات التقليدية للتاريخ ، وأكد السببية في تطور التاريخ ، وإمكانية التنبؤ بالمستقبل للتاريخ على ضوء الحاضر .

ومما يجدر ذكره من أفكار سان سيمون التي كان لها الأثر الكبير في الفكر السياسي ، اعتباره أن التغيير في النظام الاجتماعي يوجب إحداث تغيير في نظام الملكية . وازدواج المعرفة بالصناعة وعدم قيامه إلا في ظل السلام ، هو الذي حمل سان سيمون إلى اقتراح إنشاء برلمان أوروبي يمثل فيه زعماء الدول شعوبها . كما اقترح أيضاً إنشاء جمعية عامة تعمل على ضمان العمل للقادرين عليه . وهنا تجدر الإشارة إلى اعتبار سان سيمون في أن الدولة العتيدة يجب أن يحكمها العلماء .

أما الوسيلة لتحقيق هــذا كله فهي الاقناع لا القوة وذلك عن طريق الكتابة والحديث[1] .

وقد كتب ماركيوز في كتابه « العقل والثورة » أن مؤلفات سان سيمون تتضمن بالفعل عناصر تسير في طريق مضاد لاتجاهات الرأسمالية الصناعية . وكان يعتقد أن تقدم النظام الصناعي يفترض مقدماً أن يتحول الصراع بين الطبقات إلى صراع ضد الطبيعة ، تتضافر فيه كل الطبقات الاجتماعيــة . ولم يكن شكل الحكومة الذي استهدفه يسيطر فيــه الحكام على رعاياهم ، بل كان شكلاً تمارس فيـــه الحكومة إدارة تكنيكية على العمل الواجب اداؤه[2] .

وقد كان لأفكار سان سيمون التي عرضها في مؤلفـاته (منها : رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه. محاولات في التنظيم الاجتماعي . مقدمة للأعمال العلمية في القرن التـــاسع عشر . تاريخ الانسانية . بحث في علم الانســان . في اعادة تنظيم المجتمع الأوروبي . في النظام الصناعي . آراء أدبية وفلسفية وصناعية) تأثير كبير سيما بعد أن طوّرها وتوسع بها أتباعه حيث دعوا إلى ملكية الدولة لأدوات الانتـــاج وحصر الملكية الخاصة فيما يتصل بالسلع الاستهلاكية كما نادوا بإلغاء الميراث وتأميم الأرض ورأس المــال حتى تتمكن الدولة من تطبيق الجزاء على قدر العمل[3] .

---

(١) فؤاد شبل : المرجع الآنف الذكر ص ٧٥ – ٨١ .

(٢) الترجمـــة العربية للكتاب : د . فؤاد زكريا – دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٧٠ .

(٣) فؤاد شبل : المرجع الآنف الذكر ص ٧٥ – ٨١ .

١٣ – المساواة المطلقة :

وكما اشترك سان سيمون في الثورة الفرنسية فقد اشترك بها فرنسيس بابيف (١٧٦٤ – ١٧٩٧) فكرياً وعسكرياً . وإذا كان الأمر بالنسبة لسان سيمون قد وقف عند حد سجنه فإن الأمر بالنسبة إلى بابيف لم يصل إلى حد السجن فحسب بل أدى به إلى أن أعدم لتكوينه منظمة سرية تهدف إلى قلب نظام حكومة الادارة .

وقد آمن بابيف بفكرة المساواة المطلقة وانطلق بفلسفته السياسية من قاعدة مؤداها ان غاية الجماعة هي السعادة وتحقيق السعادة يكون بالمساواة . ولكن المساواة التي دعى إليها بابيف ليست تلك التي تكون دفعة واحدة بل تدريجياً وعلى مراحل ، تبدأ بتأميم الدولة للمؤسسات والشركات التجارية ثم تنتقل إلى مصادرة تركات المتوفين ، وبذلك تصبح جميع الملكيات التجارية والعقارية ملكاً للأمـــة . والدولة التي يقترحها بابيف هي دولة انتاج وعمل يتولى أمورها جماعة من الموظفين المنتخبين . ويتمتع المواطن المنتج وحـده بالحقوق السياسية . ويفرض نظـــام بابيف وحدة الزيّ والطعام على جميع المواطنين !.

١٤ – الاجتذاب العام !

وهنا نصل إلى السياسة الغربية التي نادى بهـــا شارل فرانسوا فورييه (١٧٧٢ – ١٨٣٧) وبسطها في أهم مؤلفاته : (نظرية الحركات الأربع . ملخص دراسة العـــالم . العالم الصناعي الجديد أو عالم الشركات . أحابيل ودجل طائفتي سان سيمون وروبرت أوين . الصناعة الكاذبة)[١] .

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية : مادة « سان سيمون » كلود هنري بالثزار . كتبها كامل زهيري . ص ٢٥٧ – ٢٦٤ . دار الهلال ١٩٦٨ . القاهرة .

آمن فوريه بأن الانسان حتى ولو كان سيئاً، يخضع لنظام طبيعي يتناسق مع نظام النجوم والكواكب وما سماه قوة الاجتذاب العام، وعنى به طاقة كائنة دائماً في العالم، تجتذب الناس فتوحدهم. وعلى هـذا دعا إلى صرف الجهود نحو إيجاد تنظيم اجتماعي يتكيف مع طبيعة الأفراد، بحيث يتيح لهم التعبير عن انفعالاتهم حتى يظلوا متجانسين متناسقين. وقـد صنف فوريه هذه الانفعالات إلى اثني عشر نوعاً هي: الحواس الخمس، الصداقة، الحب، العطف العائلي، الطموح... التخطيط، التغيير، الوحدة. وهذه الثلاثة سماها فوريه الانفعالات التوزيعية الثلاث. وتمتزج هذه الانفعالات جميعها في نضال واحد هو حب الآخرين ووحدة المجتمع.

ونظام فوريه يفترض قلة حاجة المجتمع إلى الحكومة باعتبار ان الانتاج يشرف عليه جماعة من الموظفين ينتخبهم الشعب.

والجدير بالذكر ان فوريه اعتبر ان التفاوت الطبقي ليس من شأنه أن يخل بانسجام المجتمع وذلك بفضل التناسق والتجانس بين الأفراد وليـد قوة الاجتذاب العام منطلق وأساس فلسفته.

١٥ – مفكرو الانقلاب الصناعي[1]

أ – وفي انجلترا أدى الانقلاب الصناعي في القرن التاسع عشر إلى قيـام

---

(١) فؤاد شبل: المرجع الآنف الذكر ص ١٠٣ – ١٢٦. ومن المراجع التي اعتمد عليها:

- Madg A. Hart : Utopias - Old and New.
- Lewis Mumford : The story of Utopias.
- J. O. Hertzler : The history of Utopias thought.
- Edmund Wlittaker : A history of economic ideas.
- Honey : History of economic thouhgt.

طائفة من المفكرين الاجتماعيين تدعو إلى الاشتراكية ، منهم سبنس الذي قدم سنة ١٧٧٥ اقتراحاً فكرياً إلى الجمعية الفلسفية في نيوكاستل ينادي فيه بإعادة اشتراكية الملكية في العقارات باعتبار ان ملكية الأرض كانت مشتركة في الدولة الطبيعية . واذا كانت هـذه الاشتراكية قد زالت باتفاق أعضاء هذا المجتمع فإن هذا الاتفاق لم يجدد وبالتالي فقد بُرِّر وجوده . واعتبر سبنس ان النزاع بين الأفراد لا يتعلق بأشكال الحكم إنمـا في إزالة أسباب البؤس الاقتصادي .

ب - أما أوجيلفي فقد استنتج من القانون الطبيعي ان لكل فرد نصيباً من الأرض واعتبر ان ازدياد قيمـة الأرض بفضل عمل الفرد يمنحه حق التصرف بها .

جـ - في حين ان توماس باين قد فرّق بين حقوق الفرد بالأرض والحقوق الناتجة عن تحسينها فاعتبر الأرض ملكاً للجماعة والتحسينات ملكاً للفرد . واقترح كحل لمشكلة الملكية منح من لا أرض لهم تعويضاً تستوفيه الدولة من ضرائب التركات .

د - وذهب وليم جودوين إلى اعتبار الحكومة نتاج رذائل الأفراد ، وأنه يمكن الاستغناء عنها بالعدل والانصاف والتعليم على الخير العام الذي هو قانون العقل . كما دعا جودوين إلى إزالة نظام الملكية الخاصة .

هـ - ويصنف فكر تشارلس هال كحلقة اتصال بين الفكر (القـانون الطبيعي) وبين البروليتاريا الاشتراكية . فقد انتقد في كتابه «تأثيرات المدنية» توزيع الثروات في المجتمع والاستغلال واعتبر أن الحروب مردها عوامل اقتصادية. ذلك ان هدفها زيادة حجم التجارة وكسب أراضي جديدةوصرف أذهان الفقراء عن مشاكلهم وشغلهم بأعبائها . ودعا إلى تكريس الزراعـة كحرفة أساسية للشعب .

و – وتجدر الاشارة إلى لورد أيتون الذي تنبأ في كتابه « الجنس القادم » بالتقدم التكنولوجي لعالم اليوم وانجازه القنبلة الذرية ولكنه أعطاه صورة ايتوبية !.

ز – ودعا ادوار بيلامي إلى تأميم القطاعات الاقتصادية جميعها صناعة كانت أم تجارة أم زراعة بغاية إلغاء نظام الأجور، وبالنتيجة التجارة والنقود لتمكين الأفراد من الحصول على حاجاتهم بالتساوي من انتاج الأمة !.

وفي رواية بعنوان (News from Nowhere) نشرت تباعاً خلال عام ١٨٩٠ في مجلة كومنولث التي كانت تصدرها العصبة الاشتراكية عرض فيها انتقاده لما أدّى إليه الانقلاب الصناعي من صرف الناس إلى العمل في الصناعة دون سواها من القطاعات الاقتصادية، الأمر الذي أدّى إلى استغلال العمال من جهة ومن جهة ثانية إلى ضيق مجال العمل نتيجة تضخم عدد الأيدي العاملة وفائض الحاجة إليها وانتشار البطالة بالنتيجة . وعلى هذا دعا إلى حرية الأفراد وإلى تمكينهم من التمتع بالحرية بالتساوي باعتبار ان ذلك يوفر السعادة أكثر من زيادة الانتاج .

ح – أما روبرت أوين فإنه انطلاقاً من نظرية بنثام في « السعادة غاية المجتمع » قد أكدّ أهمية المحيط في التأثير على الفرد ، وآمن بالتشريع كأداة مجدية للتقدم الاجتماعي المشهور وهدف إلى اعادة تكوين المجتمع عن طريق المشاركة والتعاون بين الأعضاء للنهوض بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية .

١٦ – ثروة الأمم

ومنذ أوائل القرن الثامن عشر ، بدأت معالم تداخل التفكير الاقتصادي بالتفكير السياسي . ذلك التداخل تبلور وتجلى بشكل واضح عند المفكرين

الماركسيين . ولا شك أن فكر آدم سميث (١٧٢٣ – ١٧٩٠) هو أول فكر سياسي يحفل بتداخل التفكير الاقتصادي فيه على نحو لم يسبق له مثيل في الفكر السياسي ، وذلك في مؤلفه « بحوث عن طبيعة وأسباب ثروة الأمم » .

وقد اعتبر سميث أن الانتاج الناجم عن استخدام العمل والموارد هو المصدر الوحيد للثروة. ويعلق ازدياد الثروة على المهارة والكفاءة في استخدام العمل ووفقاً لتلك النسبة من أعضاء المجتمع التي تشترك في العملية . وإن الوسيلة لتحقيق زيادة الانتاج هي تنظيم العمل وتقسيمه واستخدام الآلات الميكانيكية . ويتنبه سميث إلى أهمية وسائل النقل والمواصلات في تصريف الانتاج وبالتالي إمكانية تحقيق مستوى عال من التخصص، كما يتنبه إلى أهمية الزمن في صنع الانتاج ودرجة اتقان العمل ومهارة العمل .

ولكن في ظل نظام اقتصادي يستخدم النقود يربو أحياناً الطلب الفعال « أي الرغبة في الحصول على سلعة مع القدرة على أداء ثمنها » على العرض ، مما يؤدي إلى ارتفاع الثمن وإلى كسب جديد للمنتج. هذا الربح ، سرعان ما يحمل الغير على المنافسة ، كما يجتذب العمال ورأس المال من حرف أخرى . وهذا بدوره وبمرور الزمن يعمل على خفض الثمن بحيث يهبط إلى ما دون القيمة الطبيعية . وبرغم هذا يميل سعر أية سلعة إلى أن يتذبذب حول القيمة الحقيقية أو ما يقرب منها . وعند توازن العرض والطلب في حالة أي ثمن ، فهذا الأخير مثل الثمن الطبيعي ، وهكذا يستفيد الجميع من السوق الحرة . ويقول سميث أن الفرد حين يعمل على تنمية مصلحته فإنه غالباً ما ينمي - وبفعل يد خفية – مصالح المجتمع . ذلك أنه « لو أزيلت النظم كلها .. فإن نظام الحرية الطبيعية ، الواضح والبسيط يثبت وجوده بمحض إرادته » . وبرغم أن ملاحظات سميث كانت في صالح الرأسمالية ، إلا أنها كشفت

بصراحة عن عيوب خطيرة في « نظام الحرية الطبيعية » الواضح والبسيط فالعامل الأجير لا يمكن أن يحصل على القيمة الطبيعية الكاملة للمنتج ما دام يتعين تخصيص جزء من الثمن للأرباح »[1] وبرأي سميث أن التفاوت الشاسع في نسبة توزيع الثروات وكمياتها ، يظهر في المجتمعات المتأخرة حضارياً .

ويلفت سميث النظر إلى ضرورة فرض الرسوم الجمركية الضخمة على السلع المستوردة من الصنف الذي ينتجه البلد المستورد ، وذلك بغاية زيادة الدخل القومي من جهة واستعمال وسيلة للمساومة على تصدير الانتاج المحلي .

وبرأي سميث أيضاً ، أن الصناعة هي أساس قوة الدفاع القومي ، وأن الحكومة هي المطالبة بالاهتمام بهذا الجانب والتنبه لدوره الفعال في قوة الدولة . كما أن على الدولة الاهتمام بالتجارة الخارجية وحمايتها . كما يعلق سميث أهمية على الضرائب فيتناول أحكامها وتوزيعها ، ويلفت النظر إلى نسبة الضريبة بالنسبة إلى الدخل الفردي والحماية الموفرة له

١٧ – التعقيم الجنسي وزيادة عدد السكان :

وتعليقاً على مشروع الجدول التاريخي لتقدم الروح الانسانية الذي نشره وليم جودوين وكوندرسيه واستشرفا فيه رؤيا مستقبل حافل بالأخلاق والابداع في ميدان الفكر والعلم ، يكشف عن ثروات جديدة لا حصر لها ، ومجتمع منتج حر ينال فيه كل إنسان نصيبه العادل في الثروة العامة ، كتب مالثس (١٧٦٦ – ١٨٣٤) مقالاً بعنوان : عن مبادىء زيادة السكان رآثارها في تحسين المجتمع المقبل مع ملاحظات على نظريات جودوين وكوندرسيه وغيرهما من الكتاب ، دعا فيه إلى التعقيم الجنسي بغاية الحد من

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية : المرجع الآنف الذكر . مادة سميث ص ٢٧٢ . بقلم د. راشد البراوي .

زيادة عدد السكان الذي يتضاعف بنسبة تفوق ازدياد الانتاج إلى حد كبير يأساً من قيام النظم المعاصرة له – وهي برأيه نظم استغلالية ومتخلفة بأي عمل لسد حاجات الانسان .

ولكين مالثس في مقال له بعنوان « الأزمة » ، تراجع عن وجهة نظره المتشائمة حيث دعا فيه إلى زيادة عدد السكان عن طريق زيادة المساعدات الاجتماعية للأسر الكبيرة .

ولا يسع الفكر الاقتصادي تجاهل ما عرضه مالثس من شروح ومبادىء في مؤلفاته : بحث في الآثار الماضية والحاضرة للسكان على سعادة الانسانية . طبيعة الدخل وزيادته . مبادىء الاقتصاد السياسي منظوراً إليها من زاوية تطبيقها العملي . تعريف الاقتصاد السياسي ومقياس القيمة .

١٨ – الدولة المغلقة :

تقوم أفكار جوهان جوتيليب فيخته (١٧٦٢ – ١٨١٤) السياسية والاجتماعية على فلسفته الأخلاقية التي تعلق أهمية كبيرة على النشاط الفردي وشخصية الفرد ، وهي الفلسفة التي عرضها في مؤلفاته ومنها : (نظرية العلم. مصير الانسان . أساس القانون الطبيعي . مساهمة في تقديم أحكام الجمهور على الثورة الفرنسية

يرى فيخته وجوب إعطاء الفرصة لكل إنسان للتعبير عن شخصيته في العمل المشترك واختيار المهنة التي تتفق مع ميوله . ويضع على عاتق الدولة تأمين وتحقيق ذلك باعتبار أن للدولة وظيفة اقتصادية بالنظر لكونها تعبير عن الحياة واستجابة لمطالبها . ولكي تقوم الدولة بذلك ، يجب – على رأي فيخته – أن تنغلق على نفسها وتوقف تجارتها الدولية وتنقطع عن إقامة أية علاقات مع غيرها ، وبذلك يتوفر لكل فرد الامكانيات والفرص المنشودة.

ومع أن فيخته يحبذ الملكية الخاصة ويعتبرها أساس القانون المعبر عن الفردية ، فهو قد علق أهمية كبرى على التعاونيات الاجتماعية واقترح أن تقوم الدولة بإنشائها على أن تتمتع هذه التعـــاونيات باستقلال ذاتي بحيث يمكنها من تنسيق الانتاج والتبادل باتفاقيات مشتركة[1] .

١٩ – هيجل :

أ – **الديالكتيك**: «ديالكتيك» مشتقة من اللفظة اليونانية (Dialegestia) والتي تعني التقاء الناس للمحاورة . ولما كانت الغاية من الحوار هي الاقناع ، ولا إقناع بدون برهان ، لذلك اعتبر الديالكتيك فن البرهان .

وقد ظهرت معالم التفكير الديالكتيكي في الفلسفة اليونانية القديمة عند هيراقليطس ، كما بدت بعض عناصره في فلسفة ديكارت وسبينوزا وليبنتز وكانت . إلا أن الديالكتيك كمنطق وكمنهج فلسفي لدراسة الظواهر عامة بدأ بجورج هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣٨) . والواقع أن الديالكتك الهيجلي هو المنطق الذي كان يقتضي أن يحـــل محل المنطق الصوري والفلسفة الميتافيزيقية ، القائم على نفي التناقض في الفكر والوجود ، والقائل بفقدان الأشياء العلاقـــة فيما بينها . ذلك أن هناك الموضوع ، ثم هناك نقيضه أو نفيه ، وهناك نقيض النقيض أو نفي النفي . والأمر الواقـــع يثبت وجود التناقضات في كل شيء ، ذلك أن كل شيء يحتوي في داخله على جانب ايجابي

---

(١) من مراجع دراسة فكر فيخته السياسي :

– د. عبد الرحمن بدوي : المثالية الألمـــانية (الجزء المخصص لفيخته بعنوان فيشته) سلسلة خلاصة الفكر الأوروبي – دار النهضه العربية – القاهرة .

– موسوعة الهلال الاشتراكيه – المرجع الآنف الذكر – مادة « فيخته » كتبها أحمد محمد غنيم ص ٣٧١ – ٣٧٣ .

A. Arvon : La Philosophie Allémande. Coll. Philosophes de tous les temps. Edit. Séghers. Paris.

وآخر سلبي ، هناك جانب ينمو وآخر يموت .. وهذه التناقضات تفرض وجود منطق جديد غير المنطق الصوري ، يقرّ مبدأ جديداً وهو مبدأ التناقض ، وبصورة أخرى منطق الديالكتيك . فكل شيء في حالة تغيير وحركة وصيرورة .

وهكذا يبدأ الديالكتيك عند هيجل بالوجود ثم بالماهية ثم بالمركب منهما ويطلق عليه هيجل «الفكرة الكلية» وهي الفكرة التي تظهر في النهاية في صورة الفكرة المطلقة التي هي وجود الطبيعة . ومن هنا كانت الفكرة الكلية حلقة انتقال إلى فلسفة الطبيعة وما الطبيعة إلا المظهر الخارجي للفكرة الكلية تعارضها وتنافيها . والطبيعة ذاتها تتحرك فهي على النقيض من المنطق تشتمل على الزمان والمكان . والزمان ابعاده الحاضر والماضي والمستقبل وعنها يتولد معنى المكان والحركة . والتعارض قائم بين الزمان والمكان ، والوحدة بينهما تسمى المادة ومركز المادة هو ذاتها ، والتجاذب يكمن فيه . ومن هنا يبدأ الروح في الظهور والروح بدوره يتطوّر في ذاته (الفرد) ولذاته (المجتمع) وذاته ولذاته (الروح المطلق) . ومن هنا كان المطلق البداية والنهاية والمطلق معتقد (Dogme) وبذلك يكون الديالكتيك عند هيجل منهج ومذهب يجمعهما اسم الفلسفة الديالكتيكية .

لذلك فإن الفلسفة الديالكتيكية لا تقف عند حد النهائي والمطلق والمسلم به ، بل تكشف عن الطابع التطوري لكل شيء وفي كل شيء ولا يصمد أمامها إلا تلك العملية التي لا تهدأ ولا تقطع عملية الصيرورة والزوال والارتقاء اللانهائي من الأدنى إلى الأعلى .

ب – الفلسفة الديالكتيكية والتاريخ :

والفلسفة الديالكتيكية عند هيجل هي التي تؤدي إلى تحرر الفرد من سلطة الحس ، وتحرر المجتمع من سيطرة الواقع الظرفي والذي لا يتمشى مع

تطور حركة التاريخ . فالواقع الحقيقي للمجتمع هو الواقع الديالكتيكي وهو الواقع الذي يقتضي تجسيده حمل الواقع الظرفي كي يتمشى مع ديالكتيكية التاريخ التي هي الوعي بالحرية . ذلك أن تاريخ العـــالم على حد تعبير هربرت ماركوز ليس شيئاً آخر سوى تقدم الوعي بالحرية . والدولة هي الحرية، ذلك أن الدولة التي قصدهـــا هيجل هي على حد تعبير ماركوز الدولة التي تحكم بمعايير العقل النقدي وبالقوانين الصادقة المطلقة .

جـ – **الدولة** : فالدولة الهيجلية إذاً ليست ذات النشأة المصطنعة فهي ليست نتاج عقد اجتماعي بل هي كائن طبيعي . والدولة ليست الكيان الذي يحوي مجموعة من الأفراد كل منهم يملك حقاً طبيعياً وحصـــة في الأراضي العامة . بل هي شخص حقيقي يكمن في إرادتها المنطق الكامل وهي مصدر حريات الأفراد التي يدعيها كل منهم . ذلك ان الدولة هي تجسيد الحرية العقليـــة ، والتنظيمات السياسية في الدولة هي تلك التي تتماشى مع القواعد الأخلاقية بمعنى كون الدولة الهيجلية هي حقيقة بحد ذاتها ، حقيقة الفكرة الأخلاقية .

ولم تكن الفوارق في الشكل السياسي بين الدول هـــامة في نظر هيجل ما دامت تحافظ على هوية العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الكامنة من ورائها، على النحو المطلوب في مجتمع الطبقة الوسطى[1] .

د – **الدستور** :

لذلك فإن دستور الدولة الهيجلية هو ذلك الناتج عن تطورها التاريخي .

---

(١) د. فؤاد مرسي : الدولة عند هيجل . مجلة « الفكر المعاصر » . القاهرة العدد ٦٧ سبتمبر ١٩٧٠ ص ٤٤ – ٥١ .

ذلك ان التاريخ (الذي هو تطور منطقي قائم على أساس مفهوم التقدم نحو النظام والمعقولية والحرية) هو الذي يحدد لكل دولة نظامها الدستوري .

هـ - السيادة والسلطة :

لقد كانت سيادة الدولة في نظر هيجل ، أداة ضرورية للمحـــافظة على مجتمع الطبقة الوسطى . ذلك لأن الدولة ذات السيادة تزيل عنصر المنافسة الهدام من الأفراد ، وتجعل المنافسة مصلحة إيجابية للحقيقة الكلية . فالدولة قادرة على السيطرة على المصالح المتعارضة لأفرادها .. والنقطة التي ينطوي عليها رأيه هذا ، هي أنه ، حين يقتضي النظام الاجتماعي أن يتوقف وجود الفرد على التنافس مع الآخرين ، يكون الضمان الوحيد لتحقيق المصلحـــة المشتركة على نطاق محدود على الأقل ، هو وضع حريته في إطار لا تتعداه ، داخل النظام الكلي للدولة. وهكذا فإن سيادة الدولة تفترض مقدماً التنافس الدولي بين وحدات سياسية متعارضة تمكن قوة كل منها أساساً في سلطتها التي لا تنازع على أفرادها [1] .

أما السلطة فتتولاها السلطة التشريعية (وتمثل الكثرة العددية) والسلطة الادارية وتشمل على السلطة القضائية (وتمثل الأقلية) ثم السلطـــة الكلية (وتمثل الفرد) .

وطالما أن الدولة ذات إرادة واحدة، لذلك كان لا بدّ من تمازج السلطات الثلاث . وبمعنى آخر ، تجنب فصل السلطات .

---

(١) ماركوز : العقل والثورة . المرجع الآنف الذكر ص ١٧٧ .

و – الدولة والعلاقات الخارجية :

وبناء لمبدأ سلطان إرادة الدولة فإن الدولة – برأي هيجل – يجب أن تكون مستقلة في علاقاتها الخارجية تعمل بما تمليه عليها إرادتها وحدها والقواعد الأخلاقية الملزمة للأفراد داخل الدولة ليست ملزمة للدول في علاقاتها الخارجية ، لأن علاقة الدولة بالمجتمع الدولي تختلف عن علاقة الفرد بالدولة. والاتفاقات والمعاهدات التي تعقدها هي وقتية تتغير أو تلغى أو تعدل مع الظروف لذلك على الدولة المبادرة إلى إعادة النظر بهذه الاتفاقات والمعاهدات سيما عندما تتعارض مع مصالحها الخاصة .

ز – الحرب :

ويرى هيجل أن الحرب ضرورية لا مفرّ منها وهي لازمة لاستمرار الدولة وحفظ كيانها، وهي ضرورية في حياة الشعب لأن معنى الكل ومعنى وحدته يزولان دونها ، ولأن الحياة الانسانية تهوي وتنحدر لولاها إلى درك طبيعة بلا روح .

والحرب التي يعلن هيجل عن ضرورتها ليست الحرب الاستعمارية . ذلك انها تؤدي إلى قيام امبراطوريات تجمع شعوباً مختلفة وبالتالي تفقد الدولة وحدتها الذاتية وفرديتها الأصيلة . إن هذه الامبراطورية ليست تلك التي يهدف اليها التاريخ .

ح – القومية :

وما يعرضه لنا التاريخ من حضارات ودول تتعاقب ، تصعد كل منها إلى ذروة مجدها ثم تنحدر إلى الحضيض ، وهذا الصعود والانحدار المكون لحركة التاريخ الصاعدة من أمة إلى أمة تقف عند الدولة البروسية .. التاريخ عندها يقف لأنها القمة ، فهي تجسيد للمطلق ولروح الحرية والالوهية .

وبذلك مجد هيجل القومية الألمانية ورسالة الشعب الألماني تجاه العالم .

والواقع ان تأثير ظروف المـــانيا في ذلك الحين كدولة وشعب قد فعل فعله في فكر هيجل وعاطفته. كانت اقدام الأجانب تسحق أجزاء من وطنه المانيا، وكان هذا الوطن مشتتاً موزعاً بين الاقطاعيين، وكان لا بد له من بناء دولة تحطم هذه السيادات الخاصة وظهور المستبد العادل الذي يحقق للشعب والدولة وحدتهما بل وجودهما[1]

---

(١) بعض مراجع ومصادر دراسة فكر هيجل :

أ - المصادر (من مؤلفات هيجل : نقد الأخلاق عند كانت سنة (١٧٩٨) ، نقد دستور فرتمبرج (١٧٩٨) تعليق على الاقتصـــاد السياسي في شتوتجارت (١٧٩٩) فينومينولوجيا العقل الكلي (١٨٠٧) ، علم المنطق - المنطق الأكبر (١٨١٢-١٨١٦) موسوعة العلوم الفلسفية : ج ١ ، المنطق الأصغر ، ج ٢ ، فلسفة الطبيعة ، فلسفة العقل ، فلسفة الحق سنة ١٨٢٠ ، مؤلفات نشرت بعد وفاة هيجل ، محاضرات عن فلسفة الدين (٣ أجزاء) ، محاضرات عن فلسفة التاريخ، محاضرات عن تاريخ الفلسفة (٣ أجزاء) ، محاضرات عن علم الجمال (٤ أجزاء) ، مجموعة الرسائل (جزءان) .

ب - المراجع :

K. Papaionnou : Hegel, Coll. Philosophes de tous les temps; Edit. Séghers. Paris.

- جان هيبوليت : مدخل إلى فلسفة التاريخ عند هيجل ترجمة انطوان حمصي - دمشق ١٩٦٩ .

- موريس كرانستون : المرجع الآنف الذكر مقال فريدريك كوبليستون عن هيغل ص ٩٥ - ١٠٣ .

- لطفي فهيم : هيجل حياته ومذهبه . مجلة الطليعة . القاهرة العدد ٩ . سبتمبر ١٩٧٠ ص ١٢٩ - ١٣٩ .

- الدكتور مراد وهبه : هيجل والديالكتيك - مجلة « الطليعة » المرجع السابق نفسه ص ١٣٩ - ١٤٢ .

- مجاهد عبد المنعم مجاهد : هيجل يتحصن خلف قلاع الحرية - مجلة «الطليعة» =

وكان لهذا التفكير أثر واضح في حركة توحيد المانيا التي قادها بسمارك في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، كما كان لها الأثر الحاسم في تطور فكرة اشتراكية الدولة . لا بل ان افكاره القومية هي التي حملت بعض المتطرفين إلى تبرير نظريتهم بتفوق العنصر الألماني والدعوة إلى التوسع الاقليمي .

٢٠ – منهج السياسة الايجابية :

يسجل تاريخ الفكر السياسي تفسير اوغست كونت [١] للتطور الفكري

= المرجع السابق نفسه ص ١٤٢ – ١٤٧ .

– أديب ديمتري : فلسفة التاريخ عند هيجل . مجلة الطليعة – المرجع السابق نفسه ص ١٤٨ – ١٥٤ .

وفي الدراسات الأربعة الأخيرة ، اشارة إلى عدد كبير من المراجع التي تعرض التفكير الهيجلي .

– وهناك مؤلفات ماركس ، انجلز ، لينين ، مركوز ، التي تناولوا فيها وناقشوا وشرحوا الفلسفة الهيجلية مثل « المادية والنقدية التجريبية » للينين (مجموعة الأعمال الكاملة صدرت في عدة لغات بموسكو) وكتاب مركوز (Raison et Revolution . Ed. de Minuit . Paris 1968) المعرب تحت اسم العقل والثورة ، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية . ترجمة د. فؤاد زكريا . دار الكاتب العربي . القاهرة ١٩٧٠ .

– وقد أصدرت مجلة « الفكر المعاصر » – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة – عدداً خاصاً عن هيجل هو العدد ٦٧ الصادر في سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ .

١ – يمكن مراجعة أفكار كونت المتعلقة بما نوهنا عنه في :

-A. Comte: Sociologie. Textes choisies par Jean Lambier . P. U. F. Paris 1957 .

-A. Comte : politique, Textes choisies par Pierre Arnant. Coll. U. Armin Colin, Paris 1965 .

الانساني عبر التاريخ متمثلاً في سلسلة من ثلاث مراحل . الطور الميتافيزيقي ، الطور العقلاني ، الطور العلمي الايجابي وهذا الطور الأخير هو الذي عاصره كونت وخطط لثورته الفلسفية المنهجية ، موضوع الطبعة الثانية من كتابه « منهج السياسة الايجابية » (Système de politique Positive) حيث دعى للتحرر من جميع المسلمات النظرية والاعتبارات العلمية والانطلاق من الوقائع نفسها وهي ثورة تتطلب من العلمـــاء أن يرفعوا اليوم السياسة لمنزلة علوم الملاحظة[1] .

لقد كان تفسير كونت للتاريخ على أساس مضاد للمادية ، عاملاً على تيسير مهمته . فهو احتفظ بفكرة عصر التنوير القائلة ان التقدم هو قبل كل شيء تقدم عقلي . وهو النمو المستمر للمعرفة الوضعية . غير انه أفرغ فكرة عصر التنوير هذه من مضمونها المادي بقدر ما استطاع ، وبذلك التزم بالوعد الذي قطعه على نفسه ، وهو أن يستعيض بحركة عقلية ضخمة عن القلاقل السياسية العقيمة . وهكذا فإن فكرة التقدم ، حين تكون في خدمة الحاجة الملحة إلى المحافظة على الوضع الراهن ، تقف حجر عثرة في طريق التقدم المادي والمعنوي والذهني . إلا إذا كان ذلك في الاتجاه الذي يسمح بـــه « نسق الظروف » الموجودة . ففكرة التقدم عند كونت تستبعد الثورة والتغيير الكلي « لنسق الظروف » الموجودة . ولا يعود النمو التـــاريخي إلا تطوراً متوافقاً للنظام الاجتماعي في ظل قوانين « طبيعية »ثابتة[2] .

ويرى كونت أن « القوى المؤقتة » التي تحكم المجتمع ستجد دون شك أنها ازدادت أماناً بفضل تأثير « السياسة الوضعية » التي هي وحدها القادرة على أن تبث في الناس الشعور بأنه ليس ثمة أهمية حقيقية لأي تغيير سياسي في الحالة الراهنة لأفكارهم : « كذلك سيعلم سادة الأرض أن الوضعية تميل إلى

---

(١) د. حسن صعب : علم السياسة ، المرجع الآنف الذكر ص ١٠٤ .

(٢) هربرت ماركيوز : العقل والثورة ، المرجع الآنف الذكر ص ٣٣٧ .

تركيز كل قوة في أيدي أولئك الذين يملكون هذه القوة-أياً كانوا » بل أن كونت يزداد صراحة عن ذلك ، فيحمل على النظريات والجهود الغريبة ، الشديدة الخطورة الموجهة ضد نظام الملكية السائد ، إذ أ. . هذه الجهود والنظريات تشيد « يوتوبيا مستحيلة ممتنعة »

صحيح أن من الضروري تحسين أحوال الطبقات الدنيا ، ولكن هذا ينبغي لأن يتم دون أدنى تغيير في الحواجز الطبقية ودون تعكير النظام الاقتصادي الذي لا غناء عنه . وفي هذه النقطة بدورها تقدم الوضعية شهادة تنم بها عن نفسها . فهي تعد « بتأمين الطبقات الحاكمة ضد كل فرد فوضوي » وبيان الطريقة الصحيحة لمعاملة الجماهير . وقد لخص كونت أسباب تمسكه « بقضية النظام » فأكد أن فلسفته ، بحكم طبيعتها ذاتها « لا تهدف إلى التدمير بل إلى التنظيم » وأنها « لن تعلن أبداً أي نفي أو سلب مطلق »[1] .

وإذا كان أوغست كونت لم يفلح في تطبيق منهجه الذي دعا اليه ، فإنه يكفيه تحريره علم السياسة من طفولته الميتافيزيقية العقلانية وتناوله له كعلم للعلاقات السياسية الحقيقية[2] .

٢١ – علم سياسة جديد من عالم جديد :

انصرف الكسيس دو توكفيل (١٨٠٥ – ١٨٥٩) إلى دراسة النظام الديمقراطي في الولايات المتحدة على أساس انه نموذج لعالم ديمقراطي جديد قوامه المساواة مطبقاً منهج كونت معتمداً في ذلك الاستفتاء الشخصي

---

(١) هربرت ماركيوز : العقل والثورة ، المرجع الآنف الذكر ، ص ٣٣٧ .

(٢) د. حسن صعب : علم السياسة ، المرجع الآنف الذكر ، ص ١٠٤ .

للمواطنين الأميركيين على أساس المسائل التي اعتبرها موضوعاً للبحث مراجعاً النصوص والوثائق .

والغريب أن دوتوكفيل لم يتردد في انتقاد المساواة والديمقراطية مصرحاً أنه يتذوق المؤسسات الديمقراطية بعقله ولكنه يتذوق الأرستقراطية بغريزته، لأنه – على حد تعبيره – يزدري الغوغاء إنما هو شغوف بالحرية والمساواة واحترام الحقوق ولكنه لا يحب الديمقراطية ! ...

ومع ذلك فإن دوتوكفيل يقرّ ويسلّم بأن الديمقراطية هي حقيقة عصره السياسية الكبرى وحقيقة المستقبل سواء أراد هو ذلك أو لم يرد وقد اعتبر بريلو توكفيل النموذج العصري للعالم السياسي[١] .

٢٢ – خطة النظام العقلي :

وفي الزمن الذي كان فيه هيجل يكشف ويشرح الديالكتيكية ونظرياته في الحرية وفلسفة التاريخ ، كان روبرت أوين (١٧٧١ – ١٨٥٨)[٢] في

---

(١) الدكتور حسن صعب : علم السياسة المرجع الآنف الذكر ص ١٠٦ – ١٠٩ ويشير إلى أهم المصادر التي اعتمدها في دراسته توكفيل – وهي الدراسة التي اعتمدناها في عرض فكر توكفيل :

- Alexis de Tocqueville: De la Democratie en Amerique . paris . Union Generale d'Edition, 1963

-Marcel Prelot : La science politique , paris . Coll. Que sais - Je. No 909 . P. U. F. Paris 1963 .

(٢) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر .

– موسوعة الهلال الاشتراكية : المرجع الآنف الذكر . مادة أوين ص ١١ – ١٥ كتبها كامل زهيري .

انجلترا ، يكتب « نظرات جديدة للمجتمع » و « نداء إلى الحكومات الأوروبية » و « العالم الأخلاقي الجديد » و « خطة النظام العقلي » و « بناء التشارك بين كافة الطبقات وكل الأمم » و «الثورة الكونية» ، حيث يلاحظ أن أفكاره ونظرياته الاجتماعية وضمنها السياسية ، هي امتداد للفلسفة السياسية الطبيعية في القرن الثامن عشر وسيما فلسفة روسو .

لقد اعتقد أوين أن شخصية الفرد تعكس بيئته الاجتماعية . وتطوير البيئة هي الوسيلة للارتقاء بالوجود الإنساني . ولا عبرة في أن المجتمع يعج بما ينافي العقل وبما ينافي الطبيعة . ذلك أن التغيير يتحقق عندما يتصدى من يقوم بتخطيط المجتمع مجدداً وفقاً لأسلوب يمليه العقل ومنهج يستمد من الطبيعة .

وكان من شأن هذا المنطلق أن يؤدي بأفكار أوين المبنية على نظريات أخلاقية ميتافيزيقية إلى التنبُّه إلى مفهوم الصراع الطبقي وأخذه بعين الاعتبار ، خاصة وأنه توصل إلى استنكار الاستغلال في العمل وظروف العمل الصعبة السائدة في عصره ، من ارتفاع عدد ساعات العمل في اليوم وانخفاض الأجور وفقدان الضمان الاجتماعي والصحي ، أو على الأقل فقدان الرعاية والضمان الصحي .

لا بل أن مشروعه « مجلس مدينة نيولانارك » قد تضمن التنبه إلى قوة اليد العاملة ودور العامل وإيضاح ارتباط قيمة الأشياء والمنتجات بما تستغرقه من كمية عمل ، وقياس ذلك بوحدات وقت العمل والاشارة إلى تبادل السلع أساس قيمتها الحقيقية ، أي ما استغرقه إنتاجها من ساعات عمل . . وقد كان لهذا المشروع تأثير في الفكر الاقتصادي لدرجة أن ريكاردو وماركس قد تأثرا به فيما بعد .

ولكن رغم هذا كله ، فإن أفكار أوين وقفت على الدعوة لتدخل

الدولة كمؤسسة قائمة لتحقيق المجتمع، فهي الادارة التي من شأنها تحقيق التنظيم الجديد المجتمع وخلق الانموذج المنشود للشخصية الفردية . وهـذا ليس في الواقع إلا نتيجة محتومة لنظريته عن الظروف الخارجية التي يعتقد أنها تصنع الشخصية الانسانية .

وعلى الرغم من أن أوين تناول ظروف العمل الصناعي في كتابته ، فقد وجّه جانباً كبيراً من اهتمامه إلى الزراعة ، لا بل أنـــه اعتبر الصناعة عملاً مكملاً للزراعة وملحقاً بها ، وبذلك تأتي في المرتبة الثانية بعد الزراعة .

٢٣ – الريع :

كانت مطالعة دافيد ريكاردو (١٧٧٢ – ١٨٢٣) لكتاب سميث « ثروة الأمم » دافعه إلى دراسة نظريات الاقتصاد السياسي، وربط التفكير السياسي بالتفكير الاقتصادي ليخرج منه إلى نظريته في توزيع الثروة انطلاقـــاً من الملكية الزراعية ، معتبراً الريع الذي يحصل عليه مالك الأرض الخصبة ليس هو مقابل ثمن العمل ، ولكنه ناتج عن امتلاك نوع نادر من المواد الطبيعية ، وهو مال غير مكتسب أطلق عليه ريكاردو تسمية « الريع » .

وتابع ريكاردو نظرية مالثس في « قانون الأجور الحديدي » معتـــبراً الأجور العالية تؤدي إلى زيادة موارد العمل ، بينما الأجور المخفضة تؤدي إلى انخفاض موارد العمل . والريع في نظر ريكاردو هو « عدوان على الربح »، وتميل الأرباح في الأجل الطويل إلى الهبوط حتى تصل إلى درجة الصفر بينما يستولي ملاك الاراضي عـــلى الفائض الاقتصادي . إن مذهب ريكاردو في الريع كان السلاح النظري الذي استخدم في انجلترا من جانب الحملة على قوانين الغلال . وبعبارة أخرى كان المذهب سلاحاً في يد الطبقة الصناعية الجديدة ضد طبقة ملاك الاراضي . ولم يقف الأمر بالمذهب عند هذا الحد ، بل كان

الأساس الذي قامت عليه مقترحات الضريبة الواحدة وتأميم الأراضي . وفضلاً عن هذا ، فبمجرد التسليم بإمكانية الصراع بين المصلحة الفردية والمشتركة والاستغلال الناشيء عن شكل واحد من أشكال الملكية ، أصبح في الامكان وبعبارات مماثلة ، انتقاء أشكال أخرى من الاستغلال ، وهكذا بدأ الاشتراكيون الانجليز بعد ريكاردو ، وبدأ ماركس حيث توقف ريكاردو [1].

٢٤ – رحلة الى إيكاريا :

وتعود المدينة الفاضلة في كتب : « رحلة إلى إيكاريا » و « تحقيق مجتمع إيكاريا» و« التقويم الإيكاري» وهي من تأليف إيتين كابيه (١٧٨٨-١٨٥٦) تخيل فيه«الإيكاريا»كمجتمع يخلو من الملكية الفردية ، ويتساوى المواطنون في الحقوق والواجبات ، وتتولى الجماعة ، ممثلة بجمعية وطنية ، شؤون الانتاج ، فتحدد وفقاً لخطة سنوية ما يحتاج إليه أفرادها . وهي التي تقدم أدوات ومواد الانتاج وتأمين العمل الملائم لكل مواطن ، وتتولى الجماعة استلام وتصريف الانتاج . ولا تتميز قيمة عمل عن عمل . والتقدم الآلي يجعل الآلة تلعب دوراً كبيراً في الانتاج بحيث يخف الجهد الانساني . والجمعية الوطنية ، وهي مؤلفة من ألفي عضو ، هي التي تقوم بشؤون الحكم . فهي التي تعين القضاة المنتخبين شعبياً .

ويؤمن كابيه بتعاون الناس في سبيل تحقيق هذا المجتمع دونما حاجة إلى صراع أو ثورات أو عصيان . ومن أقواله : «إذا كنت أقبض الثورة بيدي، فسأظل قابضاً عليها حتى ولو أدى ذلك إلى موتي في المنفى [2] .

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية – المرجع الآنف الذكر مادة ريكاردو . كتبها د . راشد البراوي ص ٢٣٥ .

(٢) المرجع الآنف الذكر : مادة « كابيه » ، كتبها أحمد محمد غنيم ص ٤١٧ .

٢٥ – الأبدية والكواكب :

وعلى النقيض من كابيه كان أوجست بلانكي (١٨٠٥ – ١٨٨١) ، لا يستنكر الثورة وفي الوقت نفسه يؤمن بإمكانية تماون الطبقات . وقد هاجم بلانكي الاستغلال ، سواء في الملكية أم في الصناعة ، واحتقر الثروة على أساس نظرته إلى وسائل الحصول عليها .

وقد تنبأ بلانكي بانهيار البورجوازية وسيطرة البروليتاريا . وهذا ما يجعل أفكاره قريبة إلى حد كبير من الأفكار الاشتراكية الماركسية ، ولكنه أصر على اعتبارها متميزة عنها وعن أفكار برودون ، وهذه الأخيرة كانت محل انتقاده . ومما يقوله في هذا الصدد : « لقد حدث الخلاف بين الاشتراكية البرودينية والاشتراكية الأخرى ، فسقطت كل منهما صرعى في سنة ١٨٤٨ . إن الانتصارات ليست عملية يمكن أن تتم في يوم . لقد وقفت الاشتراكيتان أمام شاطىء النهر ، واحتدم الجدل بينهما حول ما إذا كان الحقل الواقع على الشاطىء الآخر مزروعاً فحماً أو ذرة . وركبت كل منهما رأسها وأصرّت على رأيها . وكان الأجدى أولاً أن نعبر النهر وهناك سوف نرى[١]

٢٦ – الفرد وملكيته :

وهو عنوان المؤلف الذي كتبه جوهان شميدت المعروف باسم ماكس شتيرنر (١٨٠٦ – ١٨٥٦) والذي دافع فيه عن الفرد وقدرته في انطلاق المجتمع بأسره في أي مجال من مجالات الحياة ، والاستبداد ما هو إلا استغلال يجعل الناس في إعجاب شديد بطاقاتهم الفردية ودورها الخلاق .

وبرأي شتيرنر أن الدولة تتناقض مع « أنا » الفرد وتعوق انطلاق

---

(١) المرجع الآنف الذكر : مادة بلانكي ، كتبها ابراهيم عامر ص ٧٦ .

طاقاتها . والتفسير نفسه الذي يقوم عليه موقف شتيرنر من الدولة ينطبق على موقف المؤيد للملكية الفردية .

ويعتقد شتيرنر أن تنظيم العمل الحرر للفرد من الأعمال المادية المرهقة إلى الأعمـــال الفردية الخلاقة يؤمن المجتمع المرتكز على أساس المشاركة الخاضعة لسيادة الأنا .

ومن هنا يمكن القول أن شتيرنر قد هدف إلى القضاء على جميع أشكال الحكم السياسي .

وقد اعتبر ماركس أفكار شتيرنر مجرد تفسير للمجتمع الرأسمالي وبنائه الاقتصادي على أسس فردية جديدة ![1]

٢٧ – لا عيش بدون تطور :

ومن أوائل الاشتراكيين الروس فيساريون بلينسكي (١٨١١ – ١٨٤٨) وقد دافع عن حقوق الفلاحين مع جماعة من المفكرين أمثـــال الكسندر هيرزن ونيكولاي دوبروليوبوف ونيكولاي تشيرنيفسكي . وقد دعا بلينسكي إلى التجدد والتنمية الاجتماعية وبرأيه أن لا عيش بلا تطور ولا تقدم بلا تطور وقد نشر الاتحاد السوفياتي مؤخراً كتابات بلينسكي الكاملة في عشر مجلدات .

٢٨ – الحياة بالعمل :

ويحمل هذا العنوان أحد أهم مؤلفات ف. فيدال[2] (١٨١٢ – ١٨٧١). والتي دعا فيها إلى توفير السعادة عن طريق « علم المجتمع » وبرأيه أن الفلسفة

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية :مادة ماكس شتيرنر كتبها أحمد محمد غنيم صفحة ٢٠٣ .

(٢) من مؤلفات فيدال التي عرض فيها أفكاره : توزيع الثروة ، العمل المتحرر ، تنظيم الائتمان الشخصي .

والاقتصاد والسياسة تتعاضد لتشكل علم المجتمع المحقق للرفاهية. ذلك أن الاحتياجات المعنوية هي موضع دراسة الفلسفة، وتحقيق النظام يكون عن طريق علم السياسة، أما المطالب المادية فيوفرهـــا علم الاقتصاد. ويعتبر فيدال أن حل مشاكل المجتمع يكون عن طريق تنظيم المجتمع وتوزيع الثروة... ولم يكن فيدال يدعو إلى الثورة لتحقيق التنظيم الاجتماعي الجديد، بل اكتفى بالدعوة إلى توعية طبقات الشعب دون استثناء واستخدام العطف والعقـــل والابتعاد عن العنف.

٢٩ – العاصفة والحياة:

أ – **لاوتزي**: في الصين وخـــلال سنة ٦٠٤ ق. م. ولد لاوتزي الذي يبدو أنه صاحب أول مذهب يتضمن نزعة فوضوية في تاريخ الفكر البشري. وكان ينشر أفكاره ومعلوماته بين طلابه ومريديه الذين قصدوه في ملاذه في جبال لنج بو بعد اعتزاله أمانة المكتبة الملكية في كاو.

وقد حفظت أفكار لاوتزي بفضل تلميذه شوانج تزي الذي دونها وكان لها تأثير عميق في الفكر الصيني وهي بالواقع تكون عقيدة فكرية أطلق عليها اسم التاوية (Taoisme) وهي تعتبر أن «الظروف الخارجية تمنع الانسان من إنماء فضائله وإظهار مزاياه الأخلاقية، وانه لا بدّ من إزالة العقبات القائمة عن طريق إنماء فضائله وإظهار المزايا الشخصية. وكانت التاوية من العقائد الدينية الاجتماعية التي تدعو لإقامة مجتمع بدون حكومة: وهي لذلك يمكن اعتبارها أول مذهب فوضوي النزعة في التاريخ»[1].

(١) علي أدهم: الفوضوية. «مجلة» عالم الفكر. الكويت. وزارة الثقافة. المجلد الأول، العدد الثاني – آب ١٩٧٠. ص ٣٢٧.

ب – **قانون البر الجديد** : وتمر قرون وقرون حتى يصدر سنة ١٦٤٩ كتاب « قانون البر الجديد » لجيرارد ونستافلي رائد « جماعة الحراثين » الذين سبقوا إلى الكثير من الأفكار التي أعلنها كروبتكين في كتابه «التعاون المتبادل » وبعض آراء باكونين وغيرهما من زعماء المذهب الفوضوي وكبار مفكريه[١] .

جـ – **العدالة السياسية** : ولا زال كتاب « العدالة السياسية » الصادر سنة ١٧٩٣ لوليم جودين (١٧٥٦ – ١٨٣٦) مرجعاً هاماً من مراجع التفكير الفلسفي الفوضوي حيث تظهر واضحة التبريرات الفوضوية لدعوتها إلى إلغاء وجود الحكومة وتعديل نظام الملكية والدعوة إلى الحرية . وكان جودين يعتبر النظام الفيدرالي هو الواجب احلاله محل الحكومة السياسية التي هي بنظره « الآلة الوحشية التي كانت العلة الدائمة لمساوىء البشر »[٢] .

د – **عقود الأحرار** : أما برودون (١٨٠٩ – ١٨٦٥) فقد رفض الحكومة والسلطة ودعا لأن تحل محلها مجموعةمن العقود بين الرجال الأحرار. ويرفض برودون وجود الدولة وكل ألوان السياسة وصورها وأحزابها دون استثناء[٣] .

هـ – **باكونين** : العاصفة والحياة ... هما ما يرى ميخائيل الكسندر روفيتش باكونين (١٨١٤ – ١٨٧٦) أنه بحاجة اليهما ... عالم جديد بلا قوانين ... وبذلك يكون العالم الحر ! ..

ويتساءل البير كامو في « الانسان المتمرد » : لكن ، هل العالم بلا قوانين

---

(١) علي أدهم : المرجع الآنف الذكر ص ٢٣٠ .
(٢) علي أدهم : المرجع الآنف الذكر ص ٢٣٠ – ٢٣١ .
(٣) علي أدم : المرجع الآنف الذكر ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

هو عالم حر ؟ .. هذا هو السؤال الذي يواجه أي تمرد . ولو سأل باكونين نفسه هذا السؤال ما تردد في المستقبل يصفه دون أن يبالي بالتناقض الكامن في وصفه ، ويصفه في جمل حاسمة مستبدة. وهو في «دستور الأخوة الدولية» الذي وضعه بنفسه (٨٦٤ – ١٨٦٧) يضع الفرد في مركز ثانوي بالنسبة للجنة المركزية . ونفس الشيء بالنسبة للفترة التالية على الثورة . فهو يتمنى أن يرى في الروسيا – وقد قررت – « سلطة دكتاتورية قوية .. سلطة يشد ازرها الفدائيون وتضيئها نصائحهم وتحميها إرادتهم المتآزرة ، لا يحدها شيء أو أحد . وأسهم باكونين كثيراً ، كماركس ، في تشكيل المذهب الليفيني . وكان حلم باكونين في قيام امبراطورية ثورية سلافية هو نفس الحلم ، بكل دقائق حدوده ، كما حققه ستالين . وقد تبدو هذه التصورات ، كما تتبدى من رجل كان من الحكمة بحيث ذكر أن القوة الدافعة المحركة لروسيا هي الخوف ، ورفض نظرية ماركس في الدكتاتورية الجزئية . وقد تبدو تصورات متناقضة ، لكن هذه المتناقضات تدل على أن أصول مذاهب السلطة هي أصول في أجزاء منها عدمية . ويبرّر بيساريف أقوال باكونين ، وكان الأخير يطلب الحرية المطلقة حقاً ، لكنه أراد أن يحققها بالدمار الكامل ، بتدمير كل شيء : نستطيع أن نبني بدون أساس ، وأن نسند الأساس بعد ذلك بسواعدنا . لكن كل من يرفض الماضي برمته ، يرفضه ولا يستبقي شيئاً منه ، وبذلك ينفخ الحياة في الثورة ، يسلم نفسه إلى المستقبل ويعلن أن لا ثقة له إلا في المستقبل ، وبذلك يسلم إلى الشرطة مهمة تبرير الوضع المؤقت . ويطالب باكونين باقرار الدكتاتورية لا لتعارض شهوته في التدمير ، لكن لتتمشى معها . وما كان لشيء أن يقف ضده ما دامت القيم الأخلاقية عنده قد تبلورت في النفي الخالص »[١] .

---

(١) الانسان المتمرد ، ترجمة عبد المنعم الحفني – الدار المصرية – القاهرة ، ص ١٥٠ – ١٧١ .

ولكن هل هـــذا كله يشرح تفكير الفوضوية لدى باكونين ؟! وما هو أنموذج الثوروي الباكونيني ؟.

لعل الصورة التي رسمها الكتيب المؤلف من بضع صفحات الذي نشر في روسيا سنة ١٨٦٩ ونسب إلى بليشاييف بعنوان « التعليم الثوري » خير ما يعبر عن أنموذج الثوري الفوضوي الباكونيني : «ان الثوري رجل بذل نفسه ، ليست لديه مصالح شخصيـة ولا شؤون ، لا شعور ولا صلات ، فهو رجل لا يمتلك شيئاً ولا يحمل اسماً . وفي صميم ذاتـه نسف ، بالفعل لا بالكلمة ، كل روابط بينه وبين النظام العـام ، انه لا يعرف سوى علم واحد وهو علم التخريب . أما المشاعر العائلية ومشاعر الصداقة والحب والشكران — وهي مشاعر منعمة — فيجب الاطاحة بها لدى الثوري بواسطة تعلقه الأوحـد ، والخالص من كل تأثر ، بالعمل الثوري »[1]

كان باكونين أحد ثلاثة « ممسوسين » (Trois Possédés) على حد وصف كتاب « المتمرد » لألبير كامو ، حيث ورد « عندمـا يكتب هيرزن مدافعاً عن حركته العدمية عن يقين بأنهـــا الخلاص الأكبر للانسانية من الأفكار الجـاهزة . عندما يكتب قائلاً : « أننـا إذ نمحو الماضي نرهص للمستقبل ونستولده» فإنه يستخدم نفس لغة بيلنسكي، ويصف كوتياريفسكي الراديكاليين المدعين فيقول عنهم أنهم أنبيـــاء » بقولون بوجوب نبذ الماضي واعادة بناء الشخصية الانسانية طبقـــاً لمخطط جديد « وبعد هؤلاء الراديكاليين كانت الخطوة التالية هي رفض التاريخ كلية والتصميم على بناء مستقبل لا طبقـــاً للروح التاريخية لكن طبقـــاً لمشيئة « الفرد — الملك » (L'individu-roi) لكن « الفرد — الملك » لا يمكن أن يرتقي إلى السلطة دون مـساعدة .

---

(١) رولان غوشيه : الارهابيون والفدائيون . ترجمة ريمون نشاطي ، دار الآداب — بيروت ١٩٦٨ — ص ١١ .

لا بدّ أن يساعده الآخرون . وهكذا يدخل في تناقض عدمي ، يحاول كل من بيساريف وباكونين ونيشاييف أن يحله ، لكنه لا يفعل سوى أن يزيد من التحطيم والتدمير والسلب لدرجة أن يفلح الارهاب آخر الأمر في قتل التناقض ذاته في حركة بارعة من التضحية والجريمة »[١] .

والواقع انه لا يمكن الاحاطة بفكر باكونين بمعزل عن التناقضات بينه وبين معاصره كارل ماركس . وان ما ورد في التقديم المفصل الذي كتبه فرانسوا مينوز لمنتخبات من أعماله[٢] التأكيد على أنه لا يمكن دراسة فكر باكونين إلا على ضوء فكر ماركس رغم انهما كانا في موقفين متضاربين من بعضهما .

كان باكونين يرى أن الثورة هي عمل شعبي تلقائي ينبعث من وعي الجماهير وهو عمل معظمه خيال والباقي واقع وتنظيم . وان الثورة ليست إلا في العنف ولا مجال في ممارستها لأية مفاوضة أو تسوية أو مهادنة . أما آفاقها فلا يمكن تحديدها .

ومن هنا كان منشأ التناقض بين باكونين وماركس حول العديد من قضايا الثورة ففي الوقت الذي كان فيه ماركس يرى أن الأسلوب الثوري هو أسلوب علمي واقعي كان باكونين يرى ان الأسلوب الثوري هو في تحريض الجماهير على القيام بأعمال إرهابية ليس إلا وبذلك اكتسبت ثورية باكونين صفة « الفوضوية » واصبحت هذه التسمية تقترن بذكره وذكر فكره .

وطالما ان لا أسلوب ثوري فقد كان باكونين يعارض أي تنظيم ثوري رسمي منسق على قواعد والتزامات وتوجيهات محددة . وعلى هذا كان

---

(١) البير كامو الانسان « المتمرد » المرجع الآنف الذكر ، صفحة ١٤٤ .

(٢) Bakounine : La Liberté. choix de texte. Pauvert éditeur. Paris 1965 (coll. Libertés).

باكونين يقتصر على المبـــادرة الفردية وإذا كان لا بدّ من مشاركة فالشكل الوحيد هو وجود جماعة متفاهمة على مواضيع معينة .

وقد أعلن باكونين يأسه من الطبقة البورجوازية وثقته بالفلاحين والشباب والعمل وهو يقول في ذلك : « في المسألة البورجوازية وفي مجال البورجوازية، لست سوى سياسي رديء ، وصـاحب تكتيك سيء . وليس في نيتي أن أكون غير ذلك ، أنني لا أثق إلا في الطبقة العاملة في أوربا الغربية ، كما أثق في الفلاحين والشباب المتعلم في روسيا »[١] .

وقد رفض باكونين فكرة الدولة من أي نوع كانت لا بل أنــه دعى إلى القضاء عليها فبرأيه ان الدولة تتعارض مع مبدأ الحرية[٢] وفي ذلك يقول :

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية – المرجع الآنف الذكر – مادة باكونين كتبها ابراهيم عامر ، ص ٧٠ .

(٢) أفكار باكونين حول الدولة واردة في مجموعة أعماله المنشورة بين ١٨٩٥ – ١٩١٣ لدى P. V. Stock كما يلي :

تعريف الدولة	T. I. 222 - 223.69
نقد نظرية العقد الاجتماعي:	T. I. 139 à 141. 67 I, 146 - 177, 67
مجتمع العقد الاجتماعي :	T. I. 143 à 145. 67 T. I. 263, 71 T. III. 121, 71
نتيجـــة الدولة	T. I, 145, 67
السلطة	T. I, 171, 67. T. IV. 475 - 476. 72. T. VI, 322. 71:
الدولة والطبقات	T. I, 226 - 227, 69. IV, 86, 71 : T. III, 160, 71. T. II, 61 - 62, 70. TV, 475, 72
تدمير الدولة	T. I, 155 - 156. 67 :

ان الدولة تستعبد الناس وتضطهدهم وتستغلهم ، وتقضي عليهم بالحرمان تحت ستار تموينهم وتقويمهم . انني أطالب بتنظيم المجتمع والملكية الجماعية والاجتماعية من أسفل إلى أعلى عن طريق الاتحاد الحر ، وليس من أعلى إلى أسفل بأي نوع من أنواع السلطة »[1] .

والجدير بالذكر ان تناقض الفوضوية مع الماركسية لا يعود إلى اختلاف في مصادرهما بل على العكس إلى وحدة مصدرهما وهو التفكير الهيجلي !.

ولكن التفكير الهيجلي بالواقع قد سلك تيارين : تيار فيورباج وشترنر وباكونين ، وتيار ماركس أنجلز ولينين . وكان التيار الأول امتداد تطوري للتفكير الهيجلي ، وكان التيار الثاني تخطياً للتفكير الهيجلي وخلقاً لمفاهيم واعتبارات جديدة[2] . والتيار الثاني هو التيار الماركسي .

وعلى كلّ فقد أقر باكونين ان الانتاج الجماعي هو الذي يكون فيه الانتاج ملكاً للمجتمعات التعاونية المكوّنة من العمال[3] .

٣٠ – كارل ماركس :

لا بد من الاعتراف أنه من غير الممكن الاحاطة بتفكير ماركس السياسي في الصفحات التالية المعدودة لذلك فإننا لا ندّعي أن ما نورده يتجاوز الملاحظات العابرة .

أ – **الديالكتيكية المادية** : ارتبط ديالكتيك هيجل بالمطلق . فالمطلق في الديالكتيك الهيجلي هو المنطلق وهو المنتهي . ولما كان المطلق هو بحد ذاته

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية – مادة باكونين – المرجع الآنف الذكر ، ص ٧١ .

(٢) موسوعة الهلال الاشتراكية – مادة فوضوية – المرجع الآنف الذكر ، ص ٣٩٦ – ٣٩٩ .

(٣) للاستفاضة في الاطلاع على الفوضوية وافكار باكونين يراجع الفصل الذي كتبته مي زيادة تحت عنوان « الفوضوية » والذي اشتمل عليه كتابها « المساواة » راجع فاروق سعد باقات من حدائق مي : منشورات زهير بعلبكي ١٩٧٢ .

معتقد (Dogma) لذلك كانت ديالكتيكية هيجل منهجـاً ومذهباً في آن واحد .

وجاء كارل ماركس (١٨٨١ – ١٨٨٣) فأخذ من ديالكتيك هيجل المنهج واستبعد المذهب على أساس أنه تصوري . ولكن هـذا لا يعني أنه استبعد المطلق ذلك أن ماركس في الواقع استبعد المطلق كمنطلق ، ولكن في الوقت نفسه اعتبر المطلق منتهى على أساس أنه يمثل الارتقاء النهائي للانسانية .

وفي المقدمة الثانية لكتاب رأس المال المنشورة سنة ١٨٧٣ كتب ماركس: « لا يختلف منهجي الديالكتيكي في الاساس عن منهج هيجل فحسب : بل هو نقيضه تماماً ، ذلك ان هيجل يعتقد ان حركة الفكر التي يجسدها باسم الفكرة هي مبدعة الواقع الذي ليس إلا الصورة الظاهرية للفكرة (la forme phénomenale). أما أنا فاعتقد على العكس ان حركة الفكرة ليست سوى انعكاس حركة الواقـع وقد انتقلت إلى ذهن الانسان [١] .

وقد عرّف ستالين في كتابه: « المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية »[٢]، النزعة المادية عند ماركس موضحاً أن مادية ماركس تقوم على المبدأ القائل بأن العالم بطبيعته مادي وأن مختلف ظواهر الكون إنما هي جوانب مختلفة للمادة في حركتها وان العلاقات والشروط المتبادلة بين الظواهر التي يكشف

---

(١) Marx : Le Capital, Livre I. Edit. Sociales. Paris 1949 P. 29

(٢) Staline : Materialisme dialectique et Materialisme Historisme Edit. Sociales. Paris P. 10.

عنها المنهج الديالكتيكي هي القوانين الضرورية لنمو المادة المتحركة وان العالم ينمو حسب قوانين حركة المادة ، وهو ليس بحاجة لأي روح شامل .

ومن هنا انطلق ماوتسي تونغ في مقالة له بعنوان « في الممارسة العملية » (في العلاقة بين المعرفة والممارسة العملية - العلاقة بين المعرفة والعمل)[1] إلى القول أن المادية كانت قبل ماركس تنظر إلى قضية المعرفة بمنأى عن طبيعة الانسان الاجتماعية وبمعزل عن تطوره التاريخي ، ولذلك لم يكن في مقدورها أن تدرك تبعية المعارضة للممارسة العملية الاجتماعية ، أي تبعية المعرفة للانتاج والصراع الطبقي . أما الماركسيون فيعتبرون أولاً وقبل كل شيء أن نشاط الانسان في الانتاج يشكل أهم نشاطاته العملية الأساسية ويقرر نشاطاته الأخرى . فالانسان ، بالاعتماد بصورة رئيسية على نشاطه في الانتاج المادي ، يتفهّم تدريجياً ظواهر الطبيعة وخصائصها والقوانين التي تتحكم فيها ، والعلاقة بين الانسان وبين الطبيعة ، وكذلك يتفهم تدريجياً وعلى درجات متفاوتة عن طريق نشاطه في الانتاج ما يربط بين الانسان والانسان من علاقات معينة . ولا يمكنه الحصول على أي معرفة من هذه المعارف بمعزل عن النشاط في الانتاج . ويردف ماوتسي تونغ قائلاً : الماركسيون يعتبرون الممارسة العملية التي يباشرها الانسان في المجتمع هي وحدها المقياس الذي يختبر به ما إذا كانت معرفة الانسان بالعالم الخارجي حقيقة أم لا . ويستشهد ماوتسي تونغ بعبارة لينين في ملخص « علم المنطق لهيجل » : « ان الممارسة العملية أعلى من المعرفة (النظرية) لأنها لا تمتاز بصفة وشمول فحسب ، بل تمتاز كذلك بصفة الواقع المباشر » . ويعتبر ماوتسي تونغ أن النظرية المادية الديالكتيكية عن عملية تطور المعرفة من معرفة سطحية إلى معرفة عميقة لم يتوصل إليها أحد على هذا النحو قبل ظهور الماركسية

---

(١) أربع مقالات فلسفية . دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين ١٩٦٨ ص ١-٢-٤ .

ب - **المادية التاريخية** : يستشهد بليخانوف في كتابه « فلسفة التاريخ بفقرة لماركس وردت في مقدمة مؤلفه « نقد الاقتصاد السياسي » لينطلق منها إلى عرض المفهوم الماركسي للتاريخ حيث ورد : لقد أفضت أبحاثي إلى النتيجة التالية : لا يمكن تفسير العلاقات الحقوقية ، وأشكال الدولة لا بذاتها ولا بالتطور العام المزعوم للفكر البشري ، وإنما هي تستمد جذورها من شروط الحياة المادية التي كان يفهمها هيجل تحت اسم « المجتمع المدني » (la societé civile) أسوة بالمفكرين الانكليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر »[1] .

وعلى هذا فإن الوضع الاقتصادي لشعب ما ، هو الذي يحدد وضعه الاجتماعي. والوضع الاجتماعي لهذا الشعب يحدد بدوره وضعه السياسي والديني وهكذا دواليك . أما سبب الوضع الاقتصادي فهو السبب الأساسي لمجموع التطور الاجتماعي وبالتالي لكل حركة تاريخية ، هو الصراع الذي يخوضه الانسان مع الطبيعة في سبيل وجوده[2] .

ويوضح بوليتزر ، بيس ، كافين في « أصول الفلسفة الماركسية » هذا المفهوم بتعريف المادية التاريخية بأنها النظرية العامة لطرق الانتاج وان الاقتصاد السياسي هو العلم الخاص بالقوانين الموضوعية التي تسيطر على علاقات الانتاج بين الناس وان موضوع علم التاريخ هو العلاقات المتبادلة بين الطبقات التي تتمثل فيها هذه العلاقات للانتاج ولا سيما علاقاتها السياسية[3] .

---

(١) بليخانوف - فلسفة التاريخ - المفهوم المادي للتاريخ ، تعريب طبع ص ٤٥

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٤٦

(٣) جورج بوليتزر ، جي بيس ، موريس كافين ، اصول الفلسفة الماركسية ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ج ٢ ص ٢٧ .

ج – **رأس المال والبيان الشيوعي:** يؤلف كتاباه« رأس المال » و « البيان الشيوعي » الإنجازين الفكريين الرئيسيين في إنتاج كارل ماركس الفكري الزاخر بالعديد من الأبحاث والدراسات والمؤلفات في شؤون الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة منها : « مساهمة في نقد فلسفة القانون عند هيجل » سنة ١٨٤٤ ،« حول المسألة اليهودية » سنة ١٨٤٤ ،« الاقتصاد السياسي والفلسفة » سنة ١٨٤٤ و « العائلة المقدسة » سنة ١٨٤٥ و « الايديولوجية الالمانية » سنة ١٨٤٥ – ١٨٤٦ ، وفي المرحلة الثانية اشترك مع انجلز في وضع « البيان الشيوعي » سنة ١٨٤٧ ، « الصراعات الطبقية في فرنسا » ، « ١٨ برومير ولويس بونابرت » سنة ١٨٥٢و« مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» سنة ١٨٥٩ وخطاب افتتاح الأممية الأولى سنة ١٨٦٤ و « الحرب الأهلية في فرنسا » سنة ١٨٧١ وبين ١٨٦١ و١٨٦٥ كتب ماركس« تاريخ المذاهب الاقتصادية » وبين ١٨٦٤ و ١٨٧٦ كتب « رأس المال » .

وانطلاقاً واستناداً من الديالكتية المادية والمادية التاريخية يمكن عرض بعض معالم فكر ماركس السياسي .

– **نشأة السلطة السياسية** : يرى ماركس ان أداة الانتاج قد فقدت غاية وجودها ووظيفتها لسد حاجات الانسان ذلك ان العمل وهو العامل المكون لقيمة الأداة الانتاجية قد نزعت منه نتائج مجهوداته . ويحلل ماركس نشأة السلطة السياسية ووجود طبقة مستبدة حاكمة فيعتبر ان العمل كوسيلة انتاج ظل يؤدي غايته حتى ظهرت النقود واصبحت معياراً للقيمة . كانت السلعة تبادل بنقود ، وكانت هذه النقود تعتمد للمبادلة بسلعةجديدة . ولكن هذه النقود فقدت قيمتها كوسيلة في التبادل واصبح لها قيمة بذاتها ، وبذلك أصبحت النقود لغاية تكوين الثروة الفردية وأصبح رأس المال هو المتسلط لما قد أخذ يتمتع به من قوة اجتماعية وسياسية بفضلها .

– **التوسع الذاتي لرأس المال وفائض القيمة** : وكان لا بدّ من حصول ما يسمى « فائض القيمة » نتيجة لاستخدام رأس المال للعمل والحصول منه على ما يفيض عن حاجته ـ رأس المال الطفيلي ـ وذلك عن طريق إطالة يوم العمل وزيادة طاقة الانتاج في الوحدة الزمنية وتحقيق وفورات داخلية في نظام الانتاج وتصميم نظام التخصص وتقسيم العمل .

– **الصراع الطبقي** : وكانت النتيجة ان رأس المال حول العمل الفردي إلى جماعي مشترك الأمـــر الذي تطلب زيادة حجم رأس المال من جهة ومن جهة ثانية أدى الى زيادة الانتاج. ولتحقيق ذلك كان من المحتم زيادة عدد العمال. ومن الطبيعي أن تؤدي زيادة عدد العمال إلى ازدياد قوة طاقة المقاومة لسلطة رأس المال، وهنا يبرز الصراع الطبقي لغاية تحقيق الاشراف الاجتماعي على العملية الانتاجية .

– **الطبيعة البشرية** : والواقع ان ماركس عندما تناول خصائص النظام الرأسمالي التي ألمحنا إليها كان على ضوء بحثه الطبيعة البشرية . فالانسان بنظر ماركس هو حيوان اقتصادي أكثر ممـا هو حيوان سياسي . والتطور الذي وصلت إليه الانسانية في مواجهتها للتغييرات المستمرة في الحيـاة المتطورة واستجابات حاجاتهـــا كان عن طريق ابتكار الانسان للأدوات ثم للآلات وتطويرها .

والعمل البشري في الأساس هو عملية تجري بين الانسان والطبيعة للسيطرة على مواردها وتنظيمها وان تمكن الانسان من تغير الطبيعة يؤدي في الوقت نفسه إلى تطوير الانسان وتنمية ملكاته الكامنة وجعله قادراً على إخضـــاع هذه الملكات لإشرافه التام . ومن هنا كان الانتاج المادي أساس الحياة الاجتماعية

كلها ، والنظم الاجتماعية هي في الواقع تشبه المخلوقات من حيث التطور من البسيط إلى المعقّد . وكان تقسيم العمل السبب في قيام التخصص الذي أدّى إلى التعاون في سد الحاجات بين الاختصاصات بعضها مع البعض وزيادة القدرة على سد الحاجات المتعددة ، وبالتـــالي ارتباط الطبقات الاجتماعية ببعضها بسبب حاجتها لتبادل منتجاتها .

– **تحقيق الاشراف الجماعي على وسائل الانتـــاج** : وتحقيق الاشراف الاجماعي على العملية الانتاجية وبمعنى آخر نقل الانتاج ومكاسبه من الفرد إلى المجتمع لا يتحقق إلا بالثورة .

وقد خلص ماركس إلى ذلك على ضوء أربع نتائج حدّدهـــا الاسدير ماكنتاير في مقال له عن ماركس [1] وهي كما يلي :

– ان الأشكال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تشكل وحدة المجتمع هي دليل يشير إلى أن هنـــاك طبقة مسيطرة وإلى وجود توترات بين الطبقات وإلى معارك يقتضي على الطبقة الحاكمة خوضها .

– ان سر العلاقات السياسية والاجتماعية هي العلاقة بين البورجوازية والطبقة العاملة .

– انه لا يمكن فهم نظرية سياسية خارج إطارها في الصراع بين الطبقات

– ان نضال الطبقة العاملة ضد البورجوازية هو نضال سياسي . إنما النضال

---

(١) موريس كرانتون ـ اعلام الفكر السياسي ـ المرجع الآنف الذكر ـ ١٠٥ ـ ١٠٨

السياسي لا يستطيع تخطي الحدود التي تقيمها مرحلة معينة في التطور الاقتصادي [١] .

٣١ – فردريك انجلز :

ان الجزئين الثاني والثالث من « رأس المال » ما كانا لينشرا بعد موت ماركس لولا فردريك انجلز (١٨٢٠ – ١٨٩٥) رفيق عمره . ففي سنة

---

(١) بعض مراجع دراسة فكر ماركس السياسي :

Karl Marx : - Manifeste du Parti Communiste suivi de la lutte des classes. Union génerale d'éditions. Paris 1962.

- Salaires. Prix et Profits (Extraits) Edit. Sociales. Paris.
- Le 18 Brumaire de Louis Bonaparte. Edit. Sociales. Paris.
- La guerre civile en France. 1841 (La commune de Paris) Edit. Sociales. Paris.
- Misère de la Philosophie Edit. Sociales. Paris.
- La lutte de Classes en France 1848 - 1850. Edit. Sociales. Paris.
- Le Capital (Engels). Edit. Sociales. Paris.

V. L Lenine : Karl Marx et sa doctrine. Edit. Sociales. Paris.

– بليخانوف : فلسفة التاريخ ، المفهوم المادي للتاريخ – المرجع الآنف الذكر .

– بولتيزر وبيس وكافين : أصول الفلسفة الماركسية – المرجع الآنف الذكر .

– ماوتسي تونغ : أربع مقالات فلسفية ، المقال الأول – الممارسة العملية – المرجع الآنف الذكر .

– كيدروف – المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي – ترجمة محمد عيتاني وسهيل بوت – منشورات بديرة – دمشق .

١٨٨٥ أصدر انجلز الجزء الثاني من رأس المال ، وفي سنة ١٨٩٤ أصدر الجزء الثالث . وكان انجلز في الوقت نفسه يعد كتابيه « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » و « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية التقليدية » الذي أوضح فيه الفوارق بين القوانين الموضوعية في مجال الطبيعة وفي مجال التاريخ والمبادىء الأساسية للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .

– **المادة الديالكتيكية وديالكتيكية الطبيعة :** وإذا كان انجلز لم يتردد في القول ان ما أسهم به مع ماركس كان في مقدور ماركس تحقيقه دونه ، وان مـا أنجزه هو وماركس لم يكن بمقدوره تحقيقه بدون ماركس وانه لولا ماركس لما كانت نظرية المادة الديالكتيكية ، فإن لانجلز الفضـل في بحث النظرية في مجال العلوم الطبيعية والرياضية . « فكتابة » جدليات الطبيعة في الحقيقة هو الجانب الآخر من كتاب رأس المال لكارل ماركس . فإذا كان كارل ماركس يحدد القوانين الجدلية الأساسية في المجتمع فان كتاب انجلز يحدد هذه القوانين الجدلية في الطبيعة ، وبهذا يعتبر تتميماً لكتاب رأس المال وتعميماً لمبادئه الأساسية وتوكيداً للمادية الجدلية في مجال العلوم الطبيعية»[١].

– **البيان الشيوعي :** ومهما يكن التسليم بقول انجلز لجهة نسبة اسهامه مع ماركس ، فلا بد من الاشارة إلى أن البيـان الشيوعي الذي أصدره مع ماركس شبـاط ١٨٤٨ يشتمل على خلاصة منهجهما الفكري النظري والعملي .

ولا بدّ من التنويه بدور انجلز في إعداد كتاب الايديولوجية الألمانية الذي اشترك مع ماركس في تأليفه ونشر سنة ١٨٤٥ .

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية . المرجع الآنف الذكر – مادة انجلز – كتبهـا محمود امين العالم ص ٨ .

وتاريخ الفكر الفلسفي والسياسي لم يغفل الإشارة إلى أهمية مؤلفات انجلز التي ألفها منفرداً : « حالة الطبقة العاملة الانجليزية » و « معارضة دوهرنج » و « فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية التقليدية » [1]

٣٢ – تدخل الدولة :

ترجع أهمية الفكر السياسي لفرديناند لاسال (١٨٢٥ – ١٨٦٤) [2] إلى نظريته العملية في دور الدولة وتدخلها في شؤون المجتمع للقضاء على مساوئه . فهو يرى ان الدولة وجدت في الواقع لتحقيق الحرية ومقاومة الظلم والقضاء على البؤس والجهل والعوز والعنف . ذلك ان الفرد عاجز لوحده عن القيام بهذا الدور ، ولا بد من الاتحاد . والدولة هي صورة هذا الاتحاد . وقد قسم لاسال تاريخ الجنس البشري الى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى وهي المرحلة البدائية ، وفي هذه المرحلة التي كانت الاقطاعية هي السائدة تحقق الاتحاد ولكن بغاية اخضاع العامل والفلاح . وبدأت المرحلة الثانية مع نشوب الثورة

---

(١) بعض مصادر ومراجع دراسة فكر أنجلز السياسي :

Fredrick Engels : Ludwig Feuerbach et la fin de la philsophie classique allemande. Edit. Sociales. Paris.

- Socialisme Utopique et Socialisme Scientifique. Edit. Sociales. Paris.
- Le Rôle de la violence dans l'histoire. Edit. Sociales. Paris.
- Marx et Engels : Œuvres choisis. 2 Tomes. Edition du Progrés. Moscou 1957.

(٢) من مؤلفاته : فلسفة هيراقليطس الغامض ، الوحدة الوثيقة بين تاريخ العصر وفكرة الطبقة العاملة ، العلم والعمال ، العمل ورأس المال .

الفرنسية (١٧٨٩) وفيها انتقل الحكم إلى الطبقة الرأسمالية والطبقات الوسطى وكانت الغاية تحطيم الاتحاد القديم الرامي إلى اخضاع العامل والفلاح لتحقيق الحرية . أما المرحلة الثالثة فكانت سنة ١٨٤٨ وفيها كانت الغاية التوفيق بين المرحلتين . التضامن والحرية وتحقيق ذلك يكون عن طريق انشاء جمعيات انتاجية من العمال متحدة خاضعة لاشراف وتوجيه الدولة .

٣٣ – الديمقراطية الكاملة :

يعتبر كارل كاوتسكي (١٨٥٣ – ١٩٣٨) تلميذ ماركس وصديق انجلز وشارح من شراح الماركسية . ففي كتابه « برنامج العمل » الذي يعتبر من مراجع الفكر الماركسي تناول قضية التعاون الاختياري في تغيير البنيان الاقتصادي للمجتمع وحتمية إطراد الزيادة في الوحدات المسيطرة على الانتاج. وكان كاوتسكي من رواد تخطيط الصناعة على النطاق العالمي والقومي .

وقد حاول كاوتسكي التأليف بين الماركسية الاصيلة والاشتراكيه والديمقراطية ، وهو بذلك قد ذهب في اتجاه يختلف عن اتجاه البيان الشيوعي والمخطط اللينيني (المذهب الثوري العالمي) . وبرأي كاوتسكي أن الماركسية تختلف عن الشيوعية وعلى هذا اعتبر أن تحقيق الثورة الاشتراكية ممكن أن يحصل بالأساليب الديمقراطية . والديمقراطية هي التي تتيح للحركة الاشتراكية من كسب الأكثرية الشعبية وبذلك تتمكن من إحداث الثورة .

إن غاية الثورة هي برأي كاوتسكي تحقيق الديمقراطية الكاملة لا دكتاتورية البروليتاريا كما يرى لينين . وفي كتاب « دكتاتورية البروليتاريا » فصّل كاوتسكي وجهة نظره في الديمقراطية الكاملة معتبراً ثورة اكتوبر ثورة برجوازية انجازها كان في نقل الملكية إلى الفلاحين .

ولكن كاوتسكي أقرّ بأن تخطيط الصناعة قد يمهد الطريق إلى الاشتراكية[1] .

٣٤ – مساهمة في تاريخ المادية :

ويذكر تاريخ الفكر السياسي الاشتراكي وكر جورج بليخانوف ١٨٥٧ – ١٩١٨) رغم موقفه من البلشفية ولينين، ذلك الموقف الذي بدأ سلبياً وأصبح قطيعة ثم انتهى إلى خصومة وذلك في مؤلفه « الانهزامية البلشفية » .

ان الفكر السياسي الاشتراكي لا يستطيع أن يغفل أفكار بليخانوف الفلسفية وتوضيحاته لأهم مواضيع الفلسفة الماركسية: التاريخ والمفهوم المادي للتاريخ . وعلى هذا فإن لينين لم يتردد في القول سنة ١٩٢١ – على حد ما ورد في الترجمة العربية لكتاب بليخانوف – رغم موقف بليخانوف منه : « لا يمكن للانسان أن يصبح شيوعياً حقيقياً واعياً ، ما لم يدرس كل ما

---

(١)
- Lenine : La Commune de Paris. Chap. VI
- L'avilissement du Marxisme par les opportunistes 2. Polémique de Kautskay et les opportunistes p. 78-86. 3 - Polémique de Kautskay avce Pannelsock. p. 86-96.
- Pierre Souyri : Le Marxisme après Marx. Edit. Flammarion. Paris. p. 11 - 33.

– موسوعة الهلال الاشتراكية – المرجع الآنف الذكر – مادة كاوتسكي كتبها الدكتور راشد البراوي ص ٤٠٠ – ٤٢٣ .

– لينين : إفلاس الأممية الثانية – دار التقدم موسكو ١٩٦٨ .

– لينين : حول وحدة الحركة الشيوعية العالمية . دار التقدم موسكو ١٩٦٨ ، الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي ٨٤ – ١٠١ .

– بول لويس : الفكر الاشتراكي في مائة وخمسين عاماً ترجمة وتقديم وتعليق عبد الحميد الدواخلي . الهيئة العامة للكتاب ، الجزء الثاني : ص٧ – ٣٤

كتبه بليخانوف في الفلسفة لأنه خير ما يوجد في مجمل نتاج الفكر الماركسي في جميع البلدان [1] .

ولا شك في أن مؤلفـــات بليخانوف : « مساهمة في تاريخ المادية » ، « المادية النضالية » ، « مسائل أساسية للماركسية »، « تاريخ الاشتراكية »، « مقدمة للتاريخ الاشتراكي الروسي » هي خير أدلة على قول لينين.

ولقد أوضح بليخانوف أن مذهب ماركس الثوري يعكس بأمانة قوانين تطور المجتمع وهو وليـد ذلك التفحص الانتقادي لتراث الماضي النظري وتنميته وتطويره في سياق منهجي علمي . ويقول بليخانوف في كتابه «مقدمة للتاريخ الاشتراكي الروسي » انه خرج من الفكرة الأساسية للمادية التاريخية باعتبـــار هو ان الوعي لا يحدد الانسان ولكن الانسان هو الذي يحدد الوعي .

والعناصر التي تتكون منها المادية التاريخية حددها بليخانوف كما يلي :

– تكوين القوى المنتجة .

– العلاقات الاقتصادية التي يخضع لها .

– النظام السياسي – الاجتماعي المبني على القاعدة الاقتصادية المحددة .

– سيكولوجية الانسان الاجتماعي .

– القاعدة المختلفة [2] .

ومن خلال تحليله لكتاب انطونيو لابريولا [3] الاستاذ في جامعة روما يوضح

---

(١) بليخانوف : فلسفة التاريخ ـ المفهوم المادي للتاريخ تعريب ؟ نشر ؟

(٢) موسوعة الهلال الاشتراكية ـ المرجع الآنف الذكر ، مادة بليخانوف كتبها ابراهيم عامر ص ٨١ .

(٣) بول لويس : المرجع الآنف الذكر ، ص ٢٣٩ - ٢٥٢

بليخانوف بعض القضايا الأساسية في المادية التاريخية العوامـــل التاريخية والمفهوم العلمي للمجتمع والارتباط بينهما، طبيعة الدول ودورها، نقد الفكرة العنصرية ، التفاعل بين مظاهر الحياة الايديولوجية ، قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، دور العلاقات الاقتصادية والمصالح الاقتصادية .

ويرى بليخانوف أن قفزات التاريخ تتم بلا هوادة وان التاريخ حافل بهذه القفزات التي لولاها لما كانت مراحل الانتقـال والتطور التاريخي واعتبر بليخانوف أن التطور الاقتصادي يؤدي إلى الثورة السياسية الـتي تكون نتيجتها التأثير على النظام الاقتصادي وان النظم الاجتماعية هي وليدة الصراع بين الطبقات المستغَلة والطبقة المستغلة .

وانتقد بليخانوف شترنر وبرودون وباكونين والفوضوية عامة في كتابه « الفوضوية والاشتراكية » ، موضحاً أن الفوضويين لا يريدون في الواقع فصل الطبقة العاملة عن مستغليها فحسب ، بل وأنهم يرمون إلى الحيلولة بين البروليتاريا وبين الوصول إلى حقوقها السياسية ! [١] .

٣٥ – أوهام النقد :

ولم تخلص الماركسية من المناهضين، وكان جورج سوريل (١٨٥٧–١٩٢٢) أعنفهم ، حيث خصّ أحد مؤلفاته « تحليل الماركسية » بانتقادها قائلاً بأنها وصلت إلى مرحلة الانهيار والتلاشي بذريعة انهـــا أصبحت تعتمد السرية وتتجنب العلنية . وكان سوريل من أقطاب الفكرة النقابية (السندكالية) التي انتشرت في أوروبا وامريكا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية ـ مادة سوريل كتبها أحمد محمد غنيم ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
بليخانوف : الاشتراكية الخيالية في القرن التاسع عشر ، دار دمشق .

العشرين ، والداعين إلى استقلال وانفصال نقابات العمال والمهنيين عن الأحزاب والسياسيين .

والديمقراطية بدورها نالت نصيبها في انتقادات سوريل ، ففي كتابه «افلاس العالم القديم» قال أن فلسفة القرن التاسع عشر قد قادت العالم إلى إيمان وهمي بالديمقراطية . وكانت الديمقراطية موضع استنكار سوريل .

وفي كتابه « أوهام التقدم » أنكر سوريل قدرة العقل وطاقته كوسيلة للعمل الاجتماعي ونفى مفهوم التقدم كحقيقة موضوعية .

وفي كتاب « تأملات في العنف » اعتبر سوريل النهج الوحيد للتغيير واعتبر الإضراب العام وسيلة مجدية للإطاحة بالأنظمة .

وهكذا ودون أن يحدد سوريل النظام الأفضل برأيه دعى إلى الإطاحة بالأنظمة وسيما البرجوازية [1] .

٣٦ – قاع الكون :

يورد العالم الاجتماعي ليفي برول أن جان جوريس (١٨٥٩ – ١٩١٤) قد شرح في كتاب له لأحد أصدقائه (انه كان قبل أن يعمل في السياسة يحاول «أن يلمس قاع الكون»). ومن هنا كان عمله السياسي مبني على تفكيره الفلسفي حيث تجلى ذلك في مؤلفاته ومنها « حقيقة العالم الملموس » و«خطب برلمانية » و « دراسات اشتراكية » ..

كان هم جان جوريس الكبير هو تحقيق الاشتراكية من خلال الديمقراطية . ولذلك كان يحلم بامكان تحويل الحزب الجمهوري إلى الاشتراكية ، ولم تكن

(١) بول لويس : المرجع الآنف الذكر ، ص ١٩٥ – ٢٠٨

الماركسية قد تطورت على يد لينين . وكان جوريس يقول أن البلانكية (نسبة إلى أوجست بلانكي) قد فقدت قيمتها فلم يعد بالإمكان تغيير النظام من أجل تحقيق مبـــادىء الأقلية . ولكن لا بدّ من كسب الأغلبية الساحقة في حلف التقدم ، ومتى تخرج من الفوضى والبلبلة التي تقع فيها ومن خلال فكرة كسب الأغلبية يمكن إبعاد البروليتاريا عن الصنف،ولذلك يضع جوريس فكرة التنظيم الجامع للبروليتاريا محل الصنف وإمكـــانية تدخل الدولة بدلاً من الأفراد لتنظيم الاقتصاد . وبذلك التنظيم الديمقراطي الشامل والمتطلع يمكن أن ترتبط الاشتراكية بالديمقراطية التي يحققها النظام الجمهوري الذي هو أنسب النظم من أجل ذلك[١] .

٣٧ – الأحمسا :

« الأحمسا » أو اللأعنف الايجابي وبمعنى آخر الحب في أسمى صوره . هو المنطلق لأفكار « موهانداس كرمشند غاندي » المعروف باسم المهاتما غاندي (١٨٦٩ – ١٩٤٨) والذي لم يتردد لويس فيشر بتسميته «الثائر القديس» [٢]

كان غاندي يقول « إن عدم العنف هو أعظم القوى في خدمـــة الجنس البشري . إنه أقوى من أقوى سلاح للتخريب ابتدعته عبقرية الانسان[٣] .

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية – المرجع الآنف الذكر – مادة جوريس كتبها كامل زهيري ص ١٧٩ .

(٢) لويس فيشر : الثائر القديس – الترجمة العربية : صوفي عبدالله – كتاب الهلال عدد ٨ يناير سنة ١٩٥٢ .

(٣) كل الناس إخوة – حياة المهاتما غاندي وآراؤه كما رواها – اعداد كريشنا كريبالاني. مقدمة : سرفيالاني راوهــا كريشنان – ترجمة يونس شاهين – دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٩ – الباب الرابع الاحمسا ، أو طريق التنزه عن اللاعنف فقرة ١ ص ١٥٤ .

وكان غاندي يعتبر ان الشرط الأول لعدم العنف هو العدالة في كل ناحية من نواحي الحياة [1] .

ان عدم العنف هو التحرر من الخوف، ذلك ان العنف ليس سوى الوسيلة للصراع ضد سبب الخوف ! .

ويستخرج غاندي من عدم العنف قانوناً سامياً للحب ، فعدم العنف ليس حب من يحبنا بل هو حب من يكرهنا ! [2] .

وبرأي غاندي ان التاريخ البشري يتدرج في الأسمى . لقد كان الانسان في فجر التاريخ من أكلة لحوم البشر، ثم جاء وقت سئم فيه هذا الطعام وأخذ يعتمد على الصيد . ثم خجل الانسان من حياته كصياد فابتكر الانتــاج في شكله الأول وهو الزراعة، وانتقل بذلك من طور التنقل إلى طور الاستقرار، وبذلك نشأت الحياة المدنية وتأسست المدن والقرى . وبعد أن كان الانسان عضواً في اسرة أصبح عضواً في امة . وهذه كلها علامات على تقدم الانسان نحو الأحسن. ولو ان ذلك لم يحدث لكان الجنس البشري قد اختفى من الوجود. ان الانسان يتسم بالعنف بوصفه حيوان وبعدم العنف بوصفه روحــاً . وفي اللحظة التي يستيقظ منها على وجود الروح لا يمكنه أن يظل على تمنعه [3] .

ويصرّ غاندي على اعتبار ان عدم العنف له المحل الأساسي في السيــاسة والشؤون الدنيوية ، ذلك انه مدين بمبدأ اللاعنف لا يستطيع أن يمنع نفسه من

---

(١) كل الناس اخوة ، المرجع الآنف الذكر ، فقرة ٣ ص ١٥٤ .

(٢) » » » » » » ، فقرة ٤ ص ١٥٥ .

(٣) » » » » » » ، فقرة ٨ ص ١٥٧ .

الثورة على الظلم الاجتماعي أينما وجد[1] وهو الذي يحرم الاستغلال في أية صورة من صوره تحريماً كاملاً [2] .

وعلى أساس الحب قال غاندي : « الحب والملكية المقصورة على صاحبها أمران لا يتفقـــان . فمن الوجهة النظرية ، حيثما وجد الحب انتفى وجود الملكية ، فالجسد هو آخر ما نملك . والرجل يستطيع ممارسة الحب الكامل وتجريد نفسه من كل ملكية إذا كان مستعداً لمعـــانقة الموت ، والتخلي عن جسده في سبيل خدمته للانسانية . ولكن هذا صحيح من الوجهــة النظرية وحدها . أما في الواقع ، فالحب الكامل يكاد يكون ضرباً من المحال حيث ان الجسد بوصفه ملكاً لنا ، سوف يبقى معنا دائماً . ان الانسان سيظل غير كامل على الدوام ، وسيكون دوره دائماً السعي إلى الكمال . وبذلك سوف يظل الكمال في الحب وعدم الملكية مثلاً أعلى يستحيل بلوغه ما دمنا أحياء . ومع ذلك فواجبنا هو السعي الدائب لبلوغ هذا الهدف » [3] .

ودعا غاندي إلى المساواة في توزيع السلع ولكنه استدرك على أساس أن يجد ذلك مستحيلاً فدعا إلى توفير العدالة في التوزيع . وان تأمين ذلك يكون بتمكين كل فرد من الحصول على عمل كاف يمكنه من سد حاجاته من ايراداته . ويرى ان ذلك لا يمكن تحقيقه إلا بوضع وسائل انتاج السلع الضرورية للحياة تحت سيطرة الشعوب[4] . ويقرر غاندي ان الانسان عندما يأخذ مـا يفوق عن حاجته هو سارق ، وانه لولا ذلك لما كانت هناك فاقة . ويستدرك غاندي فيقول : « انني لا اريد أن اجرّد أحداً من ملكيته فلو فعلت لكنت مخالفاً

---

(١) كل الناس اخوة – المرجع الآنف الذكر – فقرة : ١ – ١٥ ص ١٦٠ .
(٢) » » » » » » فقرة ٢٤ ص ١٦٥ .
(٣) المرجع السابق – الباب الثامن – الفقرة وسط الوفرة فقرة ٤ ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .
(٤) المرجع السابق – فقرة ٣ – ٢ ص ٢٢٨ .

لمبدأ الأحمسا ؛ فإذا كان هناك من يملك أكثر مني فلندعه يملك ولكن طبعاً للحدود التي انظم بها حياتي [١] . والواقع ان المضمون الرئيسي للمساواة في توزيع الثروة هو على حد وجهة نظر غاندي إعطاء كل فرد الوسيلة للحصول على حاجاته الطبيعية ليس إلا . وللوصول إلى ذلك عن طريق عدم العنف هو أن يقصر الفرد حاجياته إلى الحد الأدنى وأن يتحرر في كسب قوته من طريق الغش وأن يتخلى عن المضاربة . ويعتبر غاندي ان وصاية الأغنياء على فائض الثروة التي لديهم هو ما يدعو إلى المساواة في توزيع الثروة، ووفقاً لهذا المبدأ لا يجوز لهؤلاء أن يملكوا روبيه واحد أكثر من سواهم . ولكن غاندي يرى ان تحقيق هذا المبدأ لا يمكن أن يكون عن طريق حرمانهم من ممتلكاتهم ذلك ان هذا لا يكون إلا باستعمال العنف ، الأمر الذي يؤدي إلى الاضرار بالمجتمع الذي سيفقد مواهب الرجال الذين يعرفون كيف يجمعون الثروة . والحل في أن يترك الرجل الغني مالكاً لثروته لينفق منها ما كان معقولاً على حاجاته ويظل وصياً على الباقي يستعمله لخير المجتمع ، أما إذا رفض هؤلاء فالحل هو في عدم التعاون معهم والعصيان المدني . وهذه وسيلة فعّالة ومجدية باعتبار انالاغنياء لا يستطيعون تكديسالثروة من غير التعاون مع الفقراء في المجتمع [٢] .

ودعا غاندي إلى تغيير ظروف العمل والاندفاع الجنوني وراء الثروة وتأمين العمل الدائم للانسان ، وبذلك تكون الآلة عوناً كبيراً للانسان كما تكون عوناً للدولة أو لمن يملكها .

وعلى أساس عدم العنف يبني غاندي رأيه في الديمقراطية ،فهو يعتبر العنف وسيلة غير مجدية لتحقيق الديمقراطية لأن استعمال العنف عند ممارسة

---

(١) المرجع الآنف الذكر - فقرة ٥ ص ٢٢٩

(٢) كل الناس اخوة - المرجع الآنف الذكر - فقرة ٨ - ص ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤.

الديمقراطيــة يؤدي إلى زوال الديمقراطية ، والديمقراطي الحقيقي هو الذي لا يدافع عن حريته إلا بالوسائل التي لا تشوبهــا شائبة من العنف [1] . ذلك « ان حرية الفرد لا يمكن أن تزدهر إلا تحت نظام حكم الأحسا التي لا يدنــها دنس » . ومفهوم الديمقراطية عند غاندي هو أن أضعف الناس لهم تحت لوائها نفس الفرصة التي لأقواهم وذلــك أيضاً لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق عدم العنف [2] .

ويعتبر غاندي أن الـلطة السياسية ليست غاية بل وسيلة تمكن الناس من تحسين ظروفهم في كل ناحية من نواحي الحياة،وهي تعني تنظيم الحياة العامة في الوطن عن طريق ممثليه [3] .

كما يعتبر ان النظام البرلماني لا يكون صالحاً إلا اذا اتفقت إرادة البرلمان مع إرادة الأغلبية ،وبعبارة أخرى ان مفاعيله تتوقف على الانسجام بين الشعب ونوابه [4] .

٣٨ ـ الدولة والثورة :

وجاء فلاديمير ايليتش لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) ليضيف الى الماركسية نظريات هامة في الاحتكار والاستعمار والحرب والدولة والقومية والتحالف بين العمال والفلاحــين ودكتاتورية البروليتاريا والربط بين الثورة الاشتراكية

---

(١) كل الناس اخوة ـ المرجع الآنف الذكر ـ الباب التاسع ـ الديمقراطيــة والناس ، فقرة ٤١ ص ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ـ فقرة ٤ ـ ٣ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٣) المرجع السابق ـ فقرة ٨ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ـ فقرة ١٣ ص ٢٤٧ .

وحركات التحرر الوطني وليقلب مفاهيم الثورة التي كانت شائعة في عصره من عمل ارهـــابي فوضوى إلى عمل علمي فلسفي منظم يرتكز على التوعيـة والتخطيط .

والواقع ان الإحاطة بجوانب فكر لينين السياسي غـــير ممكن في هذه المعالجة لذلك نكتفي ببعض الملاحظات السريعة عن أبعاد الفكر اللينيني .

أ – الشعب صانع التاريخ : كانت حركة النارودنيين (الشعبيين) هي السائدة في روسيا حتى الربع الثالث من القرن التاسع عشر .وكان النارودنيين يمارسون الإرهاب كوسيلة للثورة على القيصرية وتغيير المجتمـــع ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا ينكرون دور العمال ويعتبرون الفـــلاحين وحدهم القوة الثورية . وكانوا يعتبرون أن إشاعة الرعب في صفوف القيصرية والأتوقراطية في روسيا عن طريق الأعمال الإرهابية والقتل الفردي من شأنه أن يجعـــل هؤلاء يغيرون سياستهم .

وقد رأى لينين في حركة النارودنيين عقبة في طريق الثورة وكان أول ما فعله في هذا السبيل مناقشة أفكار هؤلاء علمياً فوضع كتابه المشهور « من هم أصدقاء الشعب» سنة ١٨٩٤ ، حيث حلل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في روسيا وعرض نظرية النارودنيين القـــائمة على رفض الاعتراف بقوانين موضوعية تحكم حركة المجتمع ، واعتبارهم الإرادة الفردية هي المحورة لمجرى التاريخ.وأثبت لينينأن الشعب هو صانع التاريخ. ولا يغفل لينين دور قادة الشعب، إنما يربط بين دور هؤلاء ومدى التفهم لقوانينالمجتمع الموضوعية ورؤياهم الحقيقية في التقدم واستجاباتهم لمصالح الشعب . وفي هذا الكتاب أكد لينين أن النظرية الثورية ، – وبرأيه النظرية الماركسية – هي التي تقود إلى الثورة ، وذلك عن طريق الدراسة والنشر والتنظيم . ويركز لينين على

الخبرة العملية الناتجة عن الممارسة لما تضفيه على المكتسبات النظرية من مجالات جديدة ، وأخيراً دعا لينين إلى تكوين حزب ماركسي للعمال[1] .

ب – **المرونة الثورية** : ولم يكن الناردونيين وحدهم العقبة في طريق الثورة . بنظر لينين كان هنـــاك أيضاً جماعة « الماركسيين القانونيين » الذين حرفوا بطريقة ذكية المفهوم الماركسي فادعوا التقدم في الرأسمالية في روسيا انطلاقاً من فرضية ماركس في أن الرأسمالية أكثر النظم الاجتماعية تقدمـــاً واهملوا اهمالاً تاماً الصراع الطبقي والثورة الاجتماعية . وقد انتقد لينين هؤلاء انتقاداً علميـــاً وحلل أفكارهم ووسائلهم وكشف تحويراتهم في التفكير الماركسي .

ولكن جاء وقت اضطر فيه لينين إلى التحـالف المؤقت مع الماركسيين القانونيين في سبيل مصلحة الثورة . ومن هنا نشأت نظرية إمكانية التحالف المؤقت أو الطويل مع القوى الاجتماعية والسياسية الأخرى بشرط المحـافظة على الكيان الفكري النظري والعملي المتميز والممارسة الثورية المستقلة . ونجد ذلك يتجلى في دراسته الموقعة باسم « تولين » المنشورة سنة ١٨٩٥ مع مجموعة دراسات ساهم بها مجموعة من الكتاب الناردونيين[2] .

ج – **وحدة هدف الديمقراطيين والاشتراكيين** : وفي سنـة ١٨٩٧ كتب لينين عن « واجبات الاشتراكيين الديمقراطيين » معتبراً ان مهمـــة الحزب اشتراكية أم ديمقراطية هي واحدة . ذلك ان الغاية هي تنظيم الكفاح الطبقي

---

(١) أديب ديمتري : لينين – رؤية القائد والمناضل والانسان . مجلة الكاتب ، القاهرة . ١١ مايو ١٩٧٠ ص ٧ – ٩ .

(٢) أديب ديمتري – المرجع الآنف الذكر – ص ٩ – ١٢ .

للبروليتارية في وجهين : وجه ديمقراطي يتجلى في الكفاح ضد الأوتوقراطية والاقطاعية لتحقيق جمهورية ديمقراطية ، ووجه اشتراكي هو الكفاح ضد الرأسمالية لتحقيق المجتمع الاشتراكي وهما وجهان لا ينفصلان .

د – ما العمل !.. بقيت الأداة.. الحزب القائد . وفي كتاب « ما العمل » عرض لينين أوضاع الحركة الاشتراكية الديمقراطية وعالج المشاكل الايديولوجية والتنظيمية للحركة الاشتراكية الديمقراطية في روسيا ، وأهمية نظرية الثورة والوعي والتربية السياسية للطبقة العاملة ، ودور الحزب القيادي ، شارحاً ومعمقاً أشكال صراع الاشتراكية الديمقراطية التي بيّنها أنجلز وهي الشكل النظري والشكل السياسي والشكل الاقتصادي[١] .

– خطوة الى الأمام وخطوتان الى الخلف : وغالباً ما تعاني الأحزاب انشقاقات داخلية تصل أحياناً إلى المس بكيانها .

وقد حصل في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي انقساماً (البولشفيك والمنشفيك) . وفي كتاب « خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف » حلل لينين مغزى هذا الانقسام ، والخلافات القائمة حول التنظيم . كما تناول لينين مبادىء التنظيم الماركسي اللينيني وأسسه الفكرية والنظرية القائمة على فهم طبيعة الحزب البروليتاري دوره الطليعي في قيادة الطبقة العاملة[٢] .

---

(١) Lenine : Que faire. Edit. Sociales. Paris.
أديب ديمتري – المرجع الآنف الذكر – ص ٤ – ٥ .

(٢) لينين – المختارات – المجلد ١ (خطوة الى الأمام خطوتان الى الخلف) .
أديب ديمتري – المرجع الآنف الذكر – ص ١٥ - ١٦ .

و – **الثورة ذات المراحل** : ولا شك أن « استراتيجية الثورة ذات المراحل » هي حصيلة دراسة لينين الشاملة المتعمقة للانقسام الحزبي ، تلك الدراسة التي خرج لينين منها إلى نظرية تطور الثورة البورجوازية الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية وذلك انطلاقاً من نظرية ماركس في الثورة الدائمة والظروف التاريخية الجديدة .

ز – **الدولة** : وفي « الدولة والثورة » ١٩١٧ دافع لينين عن تعاليم الماركسية بشأن الدولة وأوضح مهام البروليتاريا والفلاحين في سبيل قيام الدولة الاشتراكية وهي: ١– تحطيم جهاز الدولة القديم. ٢–إقامة ديكتاتورية البروليتاريا وتركيز السلطة كلها في يد السوفيات (المجالس) باعتبارها الأجهزة الممثلة للعمال والفلاحين. ٣– انشاء جهاز دولة قومي جديد واستخدامه استخداماً فعالاً من أجل إعادة بناء المجتمع على أسس اشتراكية .

وكان ماركس اعتماداً على دراسته لكومونة باريس سنة ١٨٧١ قد استنتج أن الشكل السياسي للدولة الاشتراكية يجب أن يكون جمهورية على غرار كومونة باريس ، وان أهم واجبات الدولة الاشتراكية هو إعادة البناء الثوري للمجتمع وتحرير جماهير الكادحين من الاستغلال [١] .

وطوّر لينين مبادىء ماركس حول الدولة وشكلها وأغناهـا بمحتوى جديد [٢] . فقد اكتشف في ظروف روسيا التاريخية شكلاً جديداً للدولة الاشتراكية وهو جمهورية السوفيات ، وقد توصل لينين إلى هذا الاكتشاف اعتماداً على خبرة الحركة الجماهيرية الثورية في ١٩٠٥ و ١٩١٧ . وكتب لينين في موضوعات نيسان ١٩١٧ يقول : لا جمهورية برلمانية – فالرجوع إليها بعد

---

(١) كارل ماركس : الحرب الأهلية في فرنسا . الطبعة العربية . موسكو ص ٧٣–٨٤.

(٢) V. Lenine : La Commune de Paris. Edit. en Langues Etrangère. Moscou P. 5 — 27.

قيام سوفيتات نواب العمال يكون خطوة إلى الوراء - بل جمهورية سوفيات العمال والأجراء الزراعيين والفلاحين في البلاد بأسرها من القاعدة إلى القمة[1].

« وجمهورية السوفيات هي تنظيم للدولة تكون فيه الأجهزة الأساسية للسلطة في المركز وفي المناطق هي السوفيتات، ويتكون تركيبها من الكادحين عن طريق انتخاب ممثليهم ذوي الصلاحيات أي النواب. وهكذا فسوفيتات نواب الكادحين تكون الأساس السياسي للدولة معتمدة في نشاطها على المنظمات الاجتماعية العديدة وجمعيات الكادحين[2].

---

(١) لينين : مهمات البروليتاريا في الثورة الحالية . مجموعة موضوعات نيسان - الطبعة العربية موسكو ١٩٦٩ ص ٦ .

(٢) كراسنشوف : عرض موجز لنظريات الدولة والقانون . دار التقدم - موسكو ص ١١٤

- بعض مصادر ومراجع دراسة فكر لينين السياسي :

V. I. Lenine : - La Maladie Infantile du Communisme (Le Communisme de gauche). Editions sociales. Paris.

- L'Etat et la Revolution. Editions sociales. Paris.
- Imperialisme, stade supreme du capitalisme.
- Karl Marx et sa doctrine. Editions sociales. Paris
- Que faire. Edit. sociales. Paris.
- Socialisme utopique et socialisme scientifique Edit. du Progrés. Moscou.
- La commune de Paris. Edit. en langue Etrangére Moscou.

- لينين : إفلاس الأممية الثانية - دار التقدم - موسكو - مختارات - ١٩٦٨ . =

٣٩ - تراكم رأس المال :

تنصب أهمية فكر روزا لوكسمبورغ (١٨٧٠ - ١٩١٩) السياسي [1] على تبنيها الكيفية التي تفادت بها الرأسمالية انهيارها المحتوم . والواقع ان قطبا تحليلها : تكوين رأس المال في نظام مغلق وتوسع رأس المال وانتشاره في الأقاليم التي تعيش في الظروف السابقة لقيام الصناعة كانا موضع استقطاب محاولات تفسير جهاز النمو الاقتصادي سواء كانت اشتراكية أم ليبرالية .

ولكن الأهمية المباشرة لنظرية روزا التي وصفتها عام ١٩١٣ في كتاب « تراكم رأس المال » كانت تتمثل في مجال آخر عندما أظهرت ان تكوين

= - لينين : حول وحدة الحركة الشيوعية النامية (مجموعة مقالات وخطب ورسائل) دار التقدم - موسكو ١٩٦٨ .

- « : ضد الجمود العقائدي والانعزالية في الحركة العمالية (مجموعة مقالات وخطب) دار التقدم - موسكو ١٩٦٩ .

- « : مسائل السياسة القومية والأممية البروليتارية (مجموعة) .

- وهناك - المجموعة الكاملة والمنتخبات لأعمال لينين - منشورة في عدة لغات منها اللغة العربية .

- Staline : Lenine. Edit. sociales. Paris.

خالد الى الأبد - مذكرات عن لينين لمعاصريه - دار التقدم موسكو ١٩٦٩ .

(١) للمراجعة عن أفكار لوكسمبورغ يقرأ :

روزا لوكسمبورغ : كتابات مختارة ، دار الطليعة . بيروت

P. Frölich : Rosa Luxembourg. Edit. fr. Paris 1965.

G. Lukaes : Hist. et losscience de classe (Rosa Luxembourg marxiste.) Paris 1960.

P. Souyri : Le Marxisme après Marx. Edit. Flammarion, Paris 1970.

رأس المال مستحيل في نظـــام مغلق وان الرأسمالية لا تستطيع الاحتفاظ بسيرها وتفادي انهيارهــا بطريقة تقتصر على تفسير ظاهرة الامبريالية وهي ظاهرة مؤقتة وإنما وضعت بهذه العملية حداً تاريخياً . إذ نظراً لأن القطاع غير الرأسمالي من الاقتصـاد العالمي كان آخذاً في الانكماش بصورة مطـّردة ، لهذا يقترب الوقت الذي يضيق فيـــه التجميع الرأسمالي . ومعنى هذا ان التوسع الرأسمالي كان يتوخى الأسس التي يقوم عليها وبهـــذا أصبح انهيار النظام حقيقة تاريخية مؤكدة [1] .

وقد أكدت روزا لوكسمبورغ ان الاشتراكية لا تستطيع أن تنشأ بدون حرية . وهي تعتبر الانتخابات العامـــة وحرية الصحافة والاجتماع وتصارع الأفكار من مظاهر الحرية [2] .

٤٠ – الحرية :

« إن موضوع هذه المقالة هو الحرية الاجتماعية والمدنية ، وطبيعة وحدود السلطة التي يمكن للمجتمع أن يفرضها على الفرد قانوناً وهذه المسألة لم توضح من قبل ولم تناقش بشمول إلا قليلاً إلا أن لها تأثيراً عميقاً على موضوع الساعة. ومن المحتمل أن تصبح مسألة المستقبل الحيوية » .

بهذه الكلمات قدم جون ستيوارت ميل « ١٨٧٢ – ١٩٠٧) مقالته أو بالأحرى كتابه « الحرية » .

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية . المرجع الآنف الذكر . مادة لوكسمبورج كتبها الدكتور راشد البراوي ص ١ و ٤ .

– روزا لوكسمبورج : اصلاح أم ثورة . دار دمشق .

– بول لويس : المرجع الآنف الذكر ، ص ٧٣ – ٩٦

(٢) Rosa Luxembourg : La revolution Russe. Œuvres II. P. 85. Edit. Maspero. Paris.

إن ميل يتعبر أن بحث مشكلة الحرية ليس جديداً إلا أن مسألة الحرية أخذت أبعاداً جديداً بعد قيام الثورات الفرنسية والانكليزية والاميركية ثم الثورة الصناعية ثم ظهور معالم الحركات الاشتراكية وما كان لها من تأثير والظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عمت عصره .

لقد اعتبر ميل ان تعديل الدساتير ونقل السلطـــة إلى أيدي الشعب لا يشكل ضمانات كافية لحريات الأفراد ذلك ان الدساتير الجديدة لم تتضمن الاحتياطات لصيانة الحريات .

إن الفرد بنظر ميل هو الحكم الفصل في أعماله ، والسعادة ليست تلك التي توفر لأكبر عدد من الناس ، ذلك ان تقدير السعادة هو تقدير نسبي .

إن الحكام لا يمثلون الشعب بأكمله بل يمثلون الأغلبية . والسؤال هو كيف يمكن للأقلية غير الممثلة أن تحافظ على حقوقها تجاه الحكومة والمجتمع .

ومن هنا كان انطلاق ميل لبحث الوسائل التي تحد من سلطة الحكومة والمجتمع كي لا تمس حريات الفرد . وحريات الفرد هي بنظر ميـــل : حرية الضمير وهي تتفرع إلى حريات العقيدة والتفكير ، وإبداء الرأي ، والتعبير عن المشاعر ، ثم حرية الذوق وحرية العمل وهما تشملان حرية تكييف شخصية الفرد لتلائم شخصيته كما تعني أيضاً حرية العمل . ثم حرية الاجتماع والتجمع .

وبرأي ميل أن الفوارق بين أفراد المجتمع هي مصدر السعادة الحقيقي وإن ازالة المجتمع لهذه الفوارق يحول دون تحقيق السعادة الحقيقية للانسان[1] .

والواقع ان نظرية ميل في الحرية كانت إلى حد مـــا تغاير الزمن الذي كتب فيه مقالته الشهيرة ويمكن اعتبارها آخر دفاع وأفضله عن النظرية التي تعود إلى هوبز ولوك وحتى إلى جون هامبدين .. بمعنى ان المرء ليس حراً

---

(١) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ٢٥٣ - ٢٥٨ .

ما دام ثمة أشخاص آخرون يستطيعون تقييده ومنعه عن عمل يرغب الاتيان به[١]

— بقي التوفيق بين حرية الأفراد كما عناها وعرفها ميل وبين التزاماتهم نحو الحكومة والمجتمع . وفي مقال « الحكومة التمثيلية » يحيل الأمر على الحكومة التي عليها مساعدة المواطنين على إنماء شخصياتهم وذلك باعتبارها الأداة التي تعمل على زيادة الملكات الفردية للشعب . وعلى هذا يقترح ميل تعديلات، في النظام الانتخابي وصلاحيات البرلمان ومجلس الوزراء ووظائف وعمل ممثلي الشعب والوزراء . فيقترح التمثيل النسبي، مع الأخذ بعين الاعتبار الكفاءات وإعطائها وزناً كبيراً ، أما وظيفة البرلمان فهي مراقبة الحكومة والإشراف على أعمالها لا الحكم المباشر . ورأى ميل أن يكون البرلمان بمثابة لجنة تتلقى ظلامات الشعب (Commitée of grievances) ومجمعاً للآراء (Congress of opiniones)

ويعتقد ميل أن البرلمان لا يصلح لسن القوانين لكثرة أعضائه ولعدم تخصصهم جميعاً في المسائل القانونية ويقترح انشاء لجنة التشريع (Commission of legisbation) يكون وظيفتها عمل القوانين، تتكون من خبراء ويعود إقرار القوانين التي تضعها هذه اللجنة للبرلمان[٢] .

٤١ — الثورة الدائمة :

كانت نظرية الثورة الدائمة موضع دراسة وبحث ليون تروتسكي (١٨٧٩— ١٩٤٠) طيلة ست وعشرين سنة . فقد وضع خطوطها العامة سنة ١٩٠٥ ،

---

(١) موريس كرانستون : المرجع الآنف الذكر دراسة نويل انان عن ميل ص ١١٨ .

(٢) غالي وعيسى : المرجع الآنف الذكر ص ٢٥٨ — ٢٦٥ .

واخذ يطوّرها ويتوسع فيها لغاية سنة ١٩٣١ ، مختبراً تطبيقاتها على أحداث ثورة أكتوبر في روسيا وتطوراتهــــا ، وأحداث ثورات الصين وأسبانيا والمستعمرات، والحركات الثورية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا وسيما في انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة .

يرى تروتسكي في مؤلفه « الثورة الدائمة » أن الحـل الاشتراكي هو الحل النهائي والحتمي للمشكلة الثورية في البلاد المتخلفة . وفي اعتقاده أنه ليس من المفروض ولا حتى من المتوقع أن تمر الدولة المتخلفة بمرحلة الثورة البورجوازية، ذلك أن الثورة البورجوازية غير ممكنة في البلاد المتخلفة من ناحيــة ، ومن ثانية لا تحل مشكلة الثورة الأساسية في البلاد المتخلفة وهي مشكلة الملكية الزراعية والفلاح .

إن نظرية الثورة الدائمة هي وحدها، بنظر تروتسكي، الصالحة للتطبيق بالنسبة لثورات المستعمرات وأشباهها . وازدواجية التطور الرأسمالي والاقطاعي تخلق قانوناً جديداً يختلف عن قانون مرحلة التطور ، والسيطرة الاستعمارية تعمد في البلدان المستعمرة إلى ربط رأس المال المحلي في البلاد المتخلفة بحركة الاحتكارات العالمية . وبحكم نشأة رأس المال المحلي المتأخرة في البلاد المتخلفة فهو لا يتمتع بالاستقلال الكلي ، وبالتالي ليس له قدرة رأس المال في أوروبا الغربية ، هذا فضلاً عن الأصل الاقطاعي أو البيروقراطي لرأس المال المحلي في البلاد المتخلفة . والطبقة العاملة الواعية لم تنشأ نتيجة لرأس المال المحلي المتأخر بل لرأس المال الأجنبي المستثمر المتقدم . وبالتالي ، فإن الطبقة العمالية هي أكبر عدداً وقدرة من الرأسماليين المحليين ومن الطبقة المتوسطة نفسها ، وبالتالي فهي القادرة على تحقيق مهمة الثورة ، أي تحرير الأرض والفلاحين من الاقطـــاع والرأسمالية والاستعمار . ومن هنـــا خرج تروتسكي إلى حتمية استمرار الثورة في البلاد المتخلفة وديمومتها حتى تفرض الحل الاشتراكي .

وإذا كانت نظرية الثورة الدائمة قد كونت الجذور الأولى للخلاف بين تروتسكي من جهة ولينين وستالين من جهة ثانية ، فإن آراء تروتسكي في تطبيقات ستالين الثورية بعد وفاة لينين كانت سبب القطيعة ثم العداوة العنيفة بين تروتسكي وستالين . أما نقاط الخلاف بين الاثنين فيمكن تحديد بعضها كما يلي :

– كان ستالين يرى أن بناء الاشتراكية ممكن على أساس اتباع سياسة العزلة والاكتفاء الذاتي ، بينما كان تروتسكي يخالف ذلك معتبراً أن الثورة والبناء الاشتراكي لا يتحققان كاملين إلا بتحقيق الثورة العالمية .

– معارضة تروتسكي لتنفيذ ستالين سياسة التجمع الزراعي بين سنوات ١٩٢٩ – ١٩٣٩ بحزم وبسرعة . كما عارض تنفيذ سياسة التصنيع الثقيل بمعدلات أكبر مما يستطيع تحمله الاقتصاد السوفياتي

– اعتبر تروتسكي أن سياسة ستالين الداخلية ذات طابع بيروقراطي ، وأنها تلجأ إلى أساليب الارهاب والكبت الإدارية والبوليسية وتعمل على تصفية المعارضين بدلاً من اعتماد الديمقراطية وفتح المجال للمناقشة بحرية وسيما داخل الحزب الشيوعي السوفياتي .

وقبل الانتقال من أفكار تروتسكي لا بد من الاشارة إلى شروحه لوجهة النظر الماركسية في المثل الأخلاقية وسيما في مجال الممارسة السياسية . وقد تناول تروتسكي ذلك الموضوع في مقال بعنوان « أخلاقهم وأخلاقنا » نشر بمجلة « الأممية الجديدة » في اميركا سنة ١٩٣٨ ، وفي مقال ثان نشر سنة ١٩٣٩ واعتبر تتمة للمقال الأول بعنوان « الأخلاقيون والمنافقون ضد الماركسية » .

والذي يعنينا من هذه الشروحات مناقشة « الغاية والوسيلة » والتوافق الديالكتيكي بالنسبة لهما . يقول تروتسكي أن الوسيلة يمكن أن تبرر بغايتها فقط ، ولكن الغاية بدورها بحاجة إلى التبرير . والغاية من وجهة النظر

الماركسية التي تعبر عن المصالح التاريخيـــة للبروليتاريا مبررة إذا ما كانت تؤدي إلى سلطة الانسان على الطبيعة وإلغاء سلطة الانسان على أخيه الانسان وهنا يتساءل تروتسكي ما إذا كان كل شيء مباح من أجل الوصول إلى هـذه الغاية . ثم يبادر بالجواب ان المباح هو ما يؤدي فعـــلاً إلى تحرير الجنس البشري . وما دامت هذه الغاية ممكنة التحقيق بواسطة الثورة فإن أخلاقية البروليتاريا المحررة ذات طبيعـــة ثورية بالضرورة ، وهي تستنتج قاعدة السلوك من قوانين تطور المجتمع أي من الصراع الطبقي بشكل رئيسي ، وهو قانون جميع القوانين ! ثم يشرح تروتسكي موضحاً أن المـادية الديالكتيكية لا تعرف ازدواج الوسيلة والغاية . فالغـاية تنبع بشكل طبيعي من الحركة التاريخية ، والوسيلة تابعة عضوياً للغاية ، والغاية المباشرة تصبح وسيلة لغاية أبعد . ويطرح تروتسكي سؤالاً بالنسبة للارهـاب الفردي ما إذا كان مباحاً أم لا ، ويجيب أن السؤال لا يقوم بالنسبة للدوافع الذاتية إنما بالنسبة للدوافع الموضوعية . ويخاطب تروتسكي الارهابي بأنه من أعمـــال الاستعاضة عن الجماهير [1]

---

(١) بعض مصادر ومراجع فكر تروتسكي السياسي :

- Trotsky : La Revolution Permanente. coll. Idees No. 51 Gallimard - Paris.

- Trotsky : Terrorisme communisme. Union génerale d'édition. Paris.

- تروتسكي : الثورة المغدورة - ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي - دار الطليعة - بيروت .

- لينين ، تروتسكي ، ماندل ، غيفارا : مرحلة الانتقال الى الاشتراكية - ترجمة فواز طرابلسي - دار الطليعة - بيروت .

- لوكاش ، ستالين ، تروتسكي ، ألخ ... في التنظيم الثوري - ترجمة جورج طرابيشي - دار الطليعة - بيروت . =

لفكر ساطع الحصري (١٨٨٠ – ١٩٦٨) الاجتماعي مكانة في تاريخ الفكر السياسي ، سواء لما أوضحه من قضايا القومية ولما أثاره وناقشه من مسائل متعلقة بها . فهو قد أوضح أهمية وحدة اللغة كأساس من الأسس لتكوين الأمة مستأنساً ببعض إيضاحات المفكرين الألمانيين ضمن حدود القومية الانسانية ، مناقشاً ما تثيره مسألة اعتبار وحدة اللغة من مسائل على ضوء أوضاع دول أميركا التي تتكلم شعوبها عدة لغات (انجليزية، اسبانية، برتغالية) ودول أوروبا: سويسرا التي يتكلم شعبها ثلاث لغات (الايطالية، الألمانية، الفرنسية) وبلجيكا (الفرنسية، الفلمنكية) واختلاف اللهجات المحلية. ويوضح ساطع الحصري أهمية دور التاريخ في تكوين الوعي والشعور واعتماد التاريخ كأساس من الأسس القومية ، كما يناقش الفكرة القائلة باجتياز الانسان مرحلة التنظيم القومي إلى التكتل الأممي وما تفرع عنها من اعتبار انتهاء عصر القوميات وقيام العصر الأممي. ويجيب ساطع الحصري على الدفوع والمسائل التي تثيرها بالنسبة لقضية القومية من الدفع المتعلق بالمشيئة الاستقلالية على ضوء مشكلة الالزاس والحرب الأهلية في الولايات المتحدة ، كما يتناول القومية والحياة الاقتصادية لجهة الفكرة القائلة بأن الرأسمالية كانت سبب ووليدة الحركات القومية . ثم يعالج مسألة الدين وعدم اعتبار اختلاف الأديان أو المذاهب عاملاً مفقداً الأمة كيانها ، مستشهداً بأحداث التاريخ حرب (ايطاليا والنمسا وبروسيا

= – تروتسكي ، ديوي ، نوفاك : أخلاقهم وأخلاقنا – دار مشق .

- Bernard Oelgart : Idéologues et idéologies de la nouvelle gauche. Edit. Union generale d'édition. Paris 1970.

– موسوعة الهلال الاشتراكية : المرجع الآنف الذكر – مادة تروتسكي، ص ٩٨-١٠٤ كتبها ابراهيم عامر .

وبافاريا) . ويعارض ساطع الفكرة العائـدة لمانشيني والقائلة باعتبار وحدة العرق أو الأصل أساساً مكوناً للأمة ، وكذلك اعتبار الأرض المشتركة .

وأهمية أفكار ساطع القومية في الفكر السياسي تقوم على أخذه بالمحتوى الانساني للقومية ، منطلَقاً وغـايةً ، وتأكيده على أهمية الرسالة الحضارية للقومية ماضياً ومستقبلاً .

وتدين العقيدة المنادية بالقومية والوحدة العربيـة بالكثير لآراء ساطع الحصري بهـذا الصدد سيما من الناحية النظرية . فلقد رأى أنه في سبيل نشر الفكرة القومية يجب اعتماد جميع ضروب المعرفة والايمان من تعريف وإقناع وتذكير وترغيب ، مع الأخـذ بعين الاعتبار في الوسائل المعتمدة ، اختلاف الأفراد والجماعات من حيث السن ومستوى المعرفة والثقافة وألوان التيارات الفكرية المؤثرة والتي تؤثر فيهم [1]

---

(١) بعض مصادر ومراجع دراسة فكر ساطع الحصري :

مؤلفاته : - آراء وأحاديث في الوطنية والقومية

- محاضرات في نشوء الفكرة القومية
- آراء وأحاديث في القومية العربية
- العروبة بين دعاتها ومعارضيها
- دفاع عن القومية
- حول القومية العربية دار العلم للملايين - بيروت

- ما هي القومية - معهد الدراسات العربية العالي - القاهرة .
- الياس مرقص : نقد الفكر القومي - دار الطليعة - بيروت
- د. محمد عبد الرحمن برج: ساطع الحصري - دار الكتاب العربي - القاهرة١٩٦٩

٤٣ – المساواة والتكافؤ :

ولا بد من الاشارة إلى شعار « المساواة والتكافؤ » ، الذي رفعهجوزيف بروز تيتو (١٨٨٢ - ...) وأدى إلى صدامه مع ستالين وإلى تنبهه المبكر لأهمية حركات التحرر في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، وفكرة الادارة الذاتية والعمل على تكييف الدولة داخل التجربة الاشتراكية ودعوته إلى فكرة التعايش السلمي . ولا بد من التنويه بالدور النظري لكارديل بهذا الصدد [١] .

٤٤ – الفابيون والفيلسوف الساخر :

في سنة ١٨٨٤ ، تأسست في بريطانيا جماعة من« المثقفين المهذبين» ما كان يقيد لها الأثر المرموق في تاريخ الفكر السياسي لولا انضمام برناردشو وسدني ويب وكيرهاردي إليهم . وقد استعارت هذه الجماعة تكتيك« فابيوس»[٢]. وامتازت هذه الجماعة بافتقارها الكلي إلى التنظيم والوحدة الفكرية ، وقد أوضح ذلك برناردشو عندما قال : « كانت أمزجتنا مختلفة تماماً ، فنحن أصحاب نزعة فردية ، ولم يكن الواحد منا من القوة بحيث يفرض إرادته على الآخرين . ولم يكن من الضعف بحيث يترك الآخرين يتجاهلونه » .

كان الاتجاه الفابي هو أكثر الاتجاهات الاشتراكية مرونة ، وهي مرونة تحولت إلى ليونة تتنازعها المهادنات والشكوك . وعلى أي حال فإن الفكر

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية ، المرجع الآنف الذكر . مادة تيتو. كتبها كامل زهيري ص ١١١ - ١١٤ .

(٢) فابيوس : القائد الروماني الذي أرسل لمجابهة القائد القرطاجي هنيبعل واعتمد تجنب مواجهة جيوش العدو ، والقيام بتخطف قواته من جوانبه جزءاً بعد جزء حتى تنهار . وهكذا حملت الجماعة تسمية « الفابية » واعتمدت تجنب مجابهة الأحزاب القوية .

– بول لويس : المرجع الآنف الذكر ، ص ١٥٥ – ١٧٤

السياسي يدين لهذه الجماعة بالأبحاث التي توزع الأعضاء مواضيعها بينهم كشرح برناردشو لنظريات الاقتصاد الاشتراكي والكلاسيكي وتحليل سيدني وبياتريس للتاريخ الاجتماعي والنقابي والاشتراكي في بريطانيا ، وتناول أوليفييه للجانب الأخلاقي في النظام الرأسمالي ونقد كلارك لأسس النظام الرأسمالي .

ومن هذه البحوث ظهرت نظريات ، أو إن صحّ التعبير تعليقات على الماركسية والصراع الطبقي والسان‌سيمونية وميل والاصلاح الزراعي.وبرزت أفكار حول الضرائب التصاعدية كحل تشريعي وحول التأميم والبرلمان.ولعل من أطرف التعليقات تلك التي أوردها جورج برناردشو (١٨٥٦ – ١٩٥٠) في الحكومة والدولة ، ومنها قوله : « ليس لهذه الحكومة القائمة في بلادنا أن تلقب نفسها بالدولة ، أكثر من أن يكون لهذا الدخان الذي نجده في لندن أن يلقب نفسه بالسماء » .

ولا بد من وقفة عند أفكار برنارد شو السياسية ، لما تنطوي عليه من دقة في الملاحظة وبراعة في التعبير .

ينظر برنارد شو إلى المساواة فيعتبر أن المشكلة ليست في إتاحة الفرصة للجميع ، ولا هي مساواة رقمية في الدخل بين الأفراد على أساس الموهبة بل هي مشكلة الحد الأعلى للأجور وللدخل الجائز في مجتمع يبني الاشتراكية. ومن طريف أقواله بهذا الصدد ما أورده في الفصل السابع من « الدليل السياسي للجميع » إذ قال : « لا يسع أي شخص مثلاً أن يقر الأوضاع التي تتيح لمستر جولويس أن يكسب في خمس عشرة جولة، مدة كل منها ثلاث دقائق، أكثر مما يكسبه أينشتين في خمسة عشر عاماً ، وأن يصدق أن ما بذله جو من جهد يفوق ما بذله أينشتين بمائة وثمانين ألف مرة لمجرد أنه بطل العالم

في الملائكة ، ويستحيل على أي شخص تحديد دخل الاثنين بحسب مزايا كل منهما »[1] .

« إن طبقة أصحاب الألوف قد أنهكها كسلها وتطفلها ، وحرمها ثراؤها — بنفس الدرجة — من التزاوج الصحي مع العمال . هـذا مع الملاحظة أنه لا وجود لمثل هذا الحرمان من التزاوج ، أي الحرمان من فرصة اختيـار الأزواج الصالحين ، بين طبقة أصحاب الألوف . ويتمتع أبناء طبقة أصحاب الخمسين ألف جنيه في السنة (أي طبقـة المليونيريين) بنفس التعليم ونفس التربية ونفس النشأة . كما أن المستقبل مفتوح أمامهم على قدم المساواة ، وهم يختلطون ويتزاوجون فيما بينهم على قدم المسـاواة . فهم منضمون إلى نفس النوادي ويأكلون نفس الطعام ويرتدون نفس الأزياء ويقطنون نفس الأحيـاء ونفس الشوارع في نفس الضواحي العصرية للمـدن والعواصم . حقاً قد يملك بعضهم خمسة بيوت ولا يملك آخرون سوى بيتين لكل منهم . ولكن الواحد منهم لا يمكنه أن يسكن إلا في بيت واحد في المرة الواحـدة . إذاً ليست هناك غير مزية تافهـة جداً في أن يكون المرء أغنى من جاره عشر مرات »[2] .

وفي مقدمة مسرحية « ميجور بربارا » يعالج برنارد شو من جملة ما يعالجه مشكلة الفقر فيورد بهذا الصدد : « والآن لننظر في عبارة « فليبق فقيراً » وماذا تعني . إن معناها أن يبقى الرجل ضعيفاً ، وأن يبقى جاهلاً وأن يبقى نواة للأمراض وبؤرة للأوبئة . معناها أن يبقى معرضاً قائماً لا تغلق أبوابه ، للقذارة والدمامة . معناها أن يبقى أطفاله مرضى بالكساح من سوء

(١ و٢) د. عمر مكاوي : مختارات من برنارد شو — كتاب الهلال — العدد ١٧٠ أيار ١٩٦٥ — دار الهلال — القاهرة . وراجع أيضاً سلامة موسى : برنارد شو ، سلامة موسى للنشر والتوزيع — القاهرة .

التغذية .. معناهـا أن يبقى (الذي لا يستحق) لكي يصبح أقل استحقاقاً وأن يبقى المستحق ليكدس لنفسه لا كنوزاً في الجنة بل فظائع وأهوالاً في جهنم على ظهر هذه الأرض . فإذا كان الأمر كذلك ، فهل من الحكمة والعقل حقاً أن يبقى إنسان واحد فقيراً »[١] .

٤٥ – هزيمة السوبرمان :

السوبرمان أو الرجل المتفوق ، الفذ التفكير والعمل ! هو حاجة سياسية في الاعتبار النازي الذي يرى أنه وإذا كان هـذا النوع من الرجال نادر الوجود بسبب فوضى التناسل ، فإنـه سوف ينتظم في المستقبل عندما ينشأ من العرق الآري –وهو العرق البشري الوحيد السامي – ذلك الجيل المتوفرة فيه الصفات البشرية العليا . والديمقراطية وهي السلطة القائمة على رضى الشعب غير صالحة لوجود السوبرمان ذلك أن الجماهير قد لا ترضى بحكومة تصنف وتنظم التناسل ! ولا بد من وجود دولة يندمج فيهـا الفرد اندماجاً كلياً وتكون هي المثل الأعلى والعقل المدبر .

هذه هي أهم عناصر الدعوة النازية التي ظهرت معالمها الأولى في كتاب أدولف هتلر (١٨٨٩ – ١٩٤٥) « كفاحي »[٢] ثم اتضحت نهائياً حقيقتها في السياسة والحرب بين سنتي ١٩٣٣ - ١٩٤٥ . والواقع أن النـازية ليست فلسفة ولا نظرية سياسية ولكنها حركة سياسية واجتماعية . وقد علل ألبير كامو الأديب الفرنسي أسباب هزيمة النازية كايديولوجية ، فقال أنها ايديولوجية

---

(١) د . عمر مكاوي : مختارات من برنارد شو – كتاب الهلال – العدد ١٧٠ أيار ١٩٦٥ – دار الهلال – القاهرة . وراجع أيضاً سلامـة موسى : برنارد شو . سلامة موسى للنشر والتوزيع القاهرة .

(٢) نشرت ترجمته إلى العربية في بيروت – دار صادر – دار بيروت .

ريفية ، لأنها تقوم على فكرة ساذجة في الأصل وهي فكرة الجنس الآري وقد حاولت النازية فرض هذه الفكرة الفردية الضيقة - التي تشبه الافكار القروية - على أمبراطورية عالمية . وهذا هو التناقض والخلل الداخلي الذي أدى الى انكسارها فكرياً قبل أن تنكسر عسكرياً[1]

٤٦ - معالجة المتناقضات في صفوف الشعب والثورة الثقافية :

إن مساهمة ماوتسي تونغ (١٨٩٣ -٠٠٠) في الفكر السياسي الاشتراكي تقوم بمعظمها على النظريات المستخرجة من الممارسة والتطبيق العملي الزمني والمكاني . إنما هذا لا يمنع من القول أن ماوتسي تونغ قد خص الفكر السياسي بدراسة نظرية منها مؤلفاته «الممارسة العملية» ١٩٣٧ ، « في التناقض » ١٩٣٧ ، « معالجة المتناقضات في صفوف الشعب » ١٩٥٨

وقد دعا ماوتسي تونغ الى الدراسة والتعلم واعمال الفكر وهو يقول في ذلك . « تواجهنا في سبيل تحويل الصين الزراعية المتأخرة الى قطر صناعي متقدم ، مهام شاقة ، وما زالت خبرتنا بعيدة عن المستوى المطلوب . لهذا علينا أن نجيد التعلم »[2] . « والمعرفة هي مسألة علم ، لا يجوز معها أدنى شيء من الكذب والخيلاء ، بل المطلوب هو العكس بكل تأكيد ، هو الصدق والتواضع »[3] . وينبه ماوتسي تونغ الى ما يجره الاعتداد بالنفس فهو عدو الدراسة « ومتى يكون باستطاعة الانسان أن يتعلم شيئاً ويجيده إلا

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية - المرجع الآنف الذكر - مادة نازية . كتبها كامل زهيري . ص ٥٠٧ .

(٢) من الكلمة الافتتاحية في المؤتمر الوطني الثامن للحزب الشيوعي الصيني في ١٥ أيلول ١٩٥٦ .

(٣) ماوتسي تونغ : الممارسة العملية - المؤلفات المختارة . المجلد الأول

إذا تخلص أولاً من اعتداده بنفسه . والموقف الذي يجب أن نتخــذه هو « التعلم بلا ملـــل » بالنسبة إلى أنفسنا « والتعليم بلا كلل » بالنسبة للآخرين »[١] .

« ويحدد ماوتسي تونغ كيفية البحث عن الحقيقة من الوقائع . فيحدد ما يعنيه بالوقائع ، وهو كل الأشياء الموجودة موضوعياً ومـا يعني من الحقيقة ، وهو الروابط الداخلية بين هذه الأشياء ، أي القوانين التي تتحكم فيها ، أما البحث فهو الدراسة والاستقصاء[٢] .

ويحدد ماوتسي تونغ أساليب التفكير وأساليب العمـل ، فيعتبر الوجود الاجتماعي للانسـان هو الذي يحدد تفكيره . أمـا « من أين تنبع الأفكار السديدة ؟ فمن الممارسة الاجتماعية[٣]» وهي من ثلاثة أنواع : النضال من أجل الانتاج، والصراع الطبقي، والتجربة العملية.والناس في ممارستهم الاجتماعية ، يزاولون النضال بمختلف أنواعه وأشكاله ، فيستمدون التجارب الغنيـة من نجاحهم وفشلهم فيه على السواء . وتكون المعرفة معرفة حسيّة في البداية ، ثم تحدث قفزة إلى المعرفة العقلية أي الأفكار ، وذلك بعد تراكم مـا يكفي من المعرفـــة الحسية . وهذه المرحلة هي الأولى من العملية الكلية لتحصيل المعرفة . وتأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة الانتقال من الوعي إلى إعادة ثانية من الفكر إلى الوجود حيث توضع المعرفـة التي تم الحصول عليها من المرحلة

---

(١) ماوتسي تونغ : دور الحزب الشيوعي الصيني في الحرب الوطنية . المؤلفات المختارة المجلد الثاني .

(٢) ماوتسي تونغ : المؤلفات المختارة ـ المجلد الثالث .

(٣) ماوتسي تونغ : من أين تنبع الأفكار السديدة ، أيار ١٩٦٣ ، مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسي تونغ ، دار النشر باللغات الأجنبية ـ بكين ١٩٦٧ .

الأولى موضع الممارسة الاجتماعية . ثم تحدث قفزة أخرى في معرفة الانسان بعد أن تمر عبر التجربة في الممارسة العملية وهي وحدها التي يمكنها إثبات صحة أو خطأ القفزة الأولى في تحصيل المعرفة [١] .

ويعتبر ماوتسي تونغ المثالية والميتافيزيقيا الشيء الوحيد في العالم الذي لا يكلف الانسان أي جهد ، لأنها « تتيح له أن يتشدّق كما يشاء دون أن يستند إلى الواقع الموضوعي ودون أن يعرض أقواله لاختبارات الواقع . أما المادية والديالكتيك فهي تكلف الانسان جهداً ، إذ أنها تحتم عليه أن يستند إلى الواقع الموضوعي وأن يختبر أمامه ، فإذا لم يبذل جهداً انزلق إلى طريق المثالية والميتافيزيقيا » [٢] .

وبرأي ماوتسي تونغ أن « العمل السياسي هو شريان الحياة لجميع الأعمال الاقتصادية . وهذا ينطبق بصورة خاصة أثناء تغيير نظام الاقتصاد الاجتماعي تغييراً جذرياً » [٣] .

ويلحظ ماوتسي تونغ أن « العمل الفكري والسياسي قد ضعف في الآونة الأخيرة بين المثقفين والطلاب الشبان فظهرت بينهم بعض الانحرافات . فالسياسة ، ومستقبل الوطن ، ومثل الانسانية العليا ، أصبحت في نظر بعض الناس كأنها أشياء لا تستحق الاهتمام . فإزاء هذه الحالة يجب علينا الآن تقوية العمل الفكري والسياسي . ويجب على المثقفين والطلاب الشبان على حد سواء أن يتعلموا بجدّ واجتهاد ... إن الانسان إذا لم يتسلح بوجهات

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٧ - ١١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٤ .

نظر سياسية صحيحة أصبح كأنه جسد بلا روح .. فيجب على جميع الدوائر والمنظمات أن تضطلع بمسؤولية العمل الفكري والسياسي »[1] .

وفي الديمقراطية ، يقول ماوتسي تونغ أنه « ينبغي أن يسمح لأي شخص كان أن يعبر عن آرائه مــا دام هذا الشخص ليس من العناصر المعادية ولا يقصد الطعن والتشنيع ، ولا يهم إذا عبر عن رأي خاطىء وواجب القادة في جميــع المستويات أن يستمعوا إلى الآخرين ، ويجب أن يراعى مبدآن في ذلك : ١ – قل كل مــا تعرفه ، وقله بدون تحفظ . ٢ – لا ذنب للقائل فليكن قوله تحذيراً « للسامع »[2] .

ويحدد ماوتسي تونغ أن المقصود من الديمقراطية داخل الحزب ، سواء في الجيش أو الهيئات المدنية هو تقوية النظام ورفع القدرة الكفاحية لا إضعافها. ويقرر أنه من الضروري القيــام داخل الحزب بالعمل التثقيفي عن الحياة الديمقراطية ، حتى يفهم أعضاء الحزب ما هي الحياة الديمقراطية ، ومــا هي العلاقة بين الديمقراطية والمركزية ، وكيف يطبق نظام المركزية الديمقراطية ، ويدعو ماوتسي تونغ إلى تجنب الانزلاق في طريق الديمقراطية المتطرفة ، أو في طريق الحرية المطلقة التصرف ، التي تخل بالنظام .

ويوضح ماوتسي تونغ أن التناقضات المختلفة من حيث النوع لا يمكن أن تحل إلا بطرق مختلفة نوعيــاً ، ويضرب على ذلك أمثلة ، فالتناقض بين البروليتاريا والبورجوازية يحل بطريق الثورة والاشتراكية . والتناقض بين جماهير الشعب الفقيرة والنظــام الاقطاعي يحل بطريق الثورة الديمقراطية .

---

(١) ماوتسي تونغ : حول المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب ١٩٥٧

(٢) مقتطفات من أقوال الرئيس ماوتسي تونغ - مهام عام ١٩٤٥ ، كانون الاول ١٩٤٤ ص ١٧١ - ١٥٢ .

والتناقض بين المستعمرات والامبريالية يحل بطريق الحرب الوطنية الثورية . والتناقض بين طبقة العمال والفلاحين في المجتمع الاشتراكي يحل بطريقة جمل الزراعة جماعية وآلية . والتناقض داخل الحزب الشيوعي يحل بطريقة النقد والنقد الذاتي . والتناقض بين المجتمع والطبيعة يحـل بطريقة تطوير القوى المنتجة[1] .

إن لفلسفة ماوتسي تونغ عن المتناقضات نقط مميزة ثلاث : الأولى ، تتركز على فكرة مدارهـا أن التناقض صفة عالمية الطابع لجميع الأشياء والظواهر ، في الطبيعة المادية وفي المجتمع البشري وفي فكر الانسان. الثانية ، لا ترى التناقض قائمـاً بين الأشياء والظواهر والأفكار فحسب ، بل تراه موجوداً بداخلهـا كذلك . الثالثة ، ترى في كل الأضداد ضرورة لا محيص عن وجودهـا » . وبينما نجد للنقطة الأولى جذوراً ماركسية لينينية ، فإن النقطتين الثانية والثالثـة من ابتكار ماوتسي تونغ ومستمدتان من التراث الفلسفي الصيني[2] .

ويرى ماوتسي تونغ أن السبيل الوحيد لحـل جميع المسائل ذات الصفة الفكرية وجميع المسائل المختلف عليهـا داخل صفوف الشعب هو استخدام الأساليب الديمقراطية ـ أسالب المناقشة والنقدوالتثقيف والاقناع ـ لا أساليب الضغط والاكراه .

---

(١) ماوتسي تونغ : في التناقض ـ المؤلفات المختارة ـ المجلد الاول .

ـ حول المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب .

(٢) فؤاد محمد شبل : فلسفة المتناقضات عند ماوتسي تونغ ـ مجلة الفكر المعاصر القاهرة ، العدد الثاني ١٩٦٦ .

أما بالنسبة للحرب ، وهي بنظر ماوتسي تونغ امتداد للسياسة [١] ، فهو يعلن أنه من دعاة القضاء على الحرب ، وأنه لا يريد الحرب ، إلا أنه من غير الممكن القضاء على الحرب إلا بواسطة الحرب [٢]

٤٧ – الدولة في النظرية والتطبيق :

لقد انصب اهتمام هارولد لاسكي (١٨٩٣ – ١٩٥٠) على دراسة قضايا الدولة والسيادة والديمقراطية والاشتراكية الديمقراطية . وقد وضع عدة مؤلفات في هذا السبيل ، أهمها : السلطة في الدولة الحديثة ١٩١٩ ، الفكر السياسي في انجلترا من لوك إلى بنتام ، قاموس السياسة ، الحرية [٣] ١٩٢٥ . مقدمة في السياسة ١٩٣١ . القومية ، مستقبل الحضارة ١٩٣٣ . الديمقراطية في أزمة ١٩٢٣ . ثورات الغد ١٩٣٧ . الحكومة البرلمانية ١٩٣٨ . النظام الرئاسي في اميركا ١٩٤٠ . تأملات في ثورات العصر ١٩٤٣ . الايمان والعقل والمدنية ١٩٤٤ . الحرية في الدولة الحديثة ١٩٤٩ .

وقد أضاف لاسكي إضافات هامة إلى الفكر السياسي منها تفسيره للديمقراطية الرأسمالية ، الذي خرج منه إلى قاعدة مصدر هذه الديمقراطية ، وهو الازدهار الرأسمالي معتبراً ان تنازلات الرأسمالية عن بعض الحقوق للشعب مردها توسيعها وازدهارها ، وانها حين تتعرض للأزمة تبادر إلى سحب هذه الحقوق وتناقض الديمقراطية كما هو شأن الفاشية والنازية . كما

---

(١) ماوتسي تونغ : حول الحرب الطويلة الأمد ، المؤلفات المختارة ـ المجلد الثاني .

(٢) ماوتسي توفغ : قضايا الحرب والاستراتيجية ـ المؤلفات المختارة ـ المجلد الثاني .

(٣) الترجمة العربية : خيري حماد ـ دار الطليعة ـ بيروت .

لفتت الأنظار، استنتاجات لاسكي بالنسبة للنظام الرئاسي في الولايات المتحدة، حيث لحظ ان الحكومة الليبيرالية التي تحكم بأقل تدخل ممكن لا تلائم التوسع الأميركي . ونبّه لاسكي أن ظهور رجـــل قوي في البيت الأبيض يؤدي إلى ظهور مقاومة شديدة من الكونجرس ومن الولايات التي تحرص على إضعـــاف السلطة المركزية للحكومة الفدرالية .

وحدد لاسكي في كتـابه « الدولة » النظريات المثالية حول الدولة ، من أفلاطون إلى روسو إلى بوزانكين ، وبالنسبة لنظرية هيجل في الدولة – وهي تعتبر الدولة المثل الأعلى الذي على المواطن الاندماج فيها اندماجاً كلياً باعتبار انها تمثل المصلحة العليا والعامة المطلقة – فقد رأى لاسكي أن عيب نظرية هيجل في الدولة ، هو أنهـــا قد تؤدي إلى سيطرة الأقلية ، أو بالأحرى الأرستقراطية ، على الدولة . وما كانت الأقلية أو الارستقراطية لتمثل المثل الأعلى المطلق ... تحقيق الصالح العـــام . كما يعتبر لاسكي أن هيجل ينكر وجوب انطباق المعيـــار الأخلاقي على تصرفات الدولة ، ذلك ان هيجل قد كتب « ان الدولة هي العقـــل المطلق المتيقن الذي لا يعترف بسلطة عدا سلطته ، ولا يقر أي قواعد مجردة للخير والبشر أو المخجل والدنيء أو الماكر والمخادع » . كما أن هيجل لا يهتم بالعمال وأصحـــاب العمل لأن مثلهم الأعلى محدود ينحصر في نطاق أعمالهم . ومقياس طموحهم هو ما يكسبونه من مال واحترام في دائرتهم الضيقة . أما الفلاح فهو بنظر هيجل قادر على الاخلاص والولاء ، ولكنه لا يستطيع الاخلاص لفكره ، وهو ماكر ولكن ينقصه الذكاء . وعلى ذلك يرى هيجـــل أن الأمة – الدولة – تتكون من العمال والفلاحين والنبلاء . فالعمال قد يكونون أذكياء ولكنهم غارقون في أمورهم الخاصة . والفلاح يدين بالولاء للمجموع ، ولكنه نظراً لغبائه يعيش في ثقة صامتة عمياء ؛ وهذا الولاء يجعله عنصراً سليماً في الدولة . وأما النبلاء فهم

يستطيعون وحدهم أن يرتفعوا عن المصالح الأنانية لطبقتهم وأن يصلوا إلى سطح المجتمع حيث يمتزج الصالح العام بالصالح الخاص[١] .

ويعرّف لاسكي الدولة بأنها مجتمع متكامل تعلو سلطته الارغامية على كل الجماعات الأخرى . واعتمد لاسكي التفسير الماركسي لأهداف الدولة واعتبر أن الدوله تأخذ الأهداف الاقتصادية التي تسعى إليها وتستخدم سلطتها للحفاظ عليها .

إن لاسكي يعتبر من أوائل المفكرين الاوروبيين الذين تنبهوا إلى أهمية لادارة المحلية واللامركزية والديمقراطية الصناعية وإدارة العمال للمصانع وكلها حلول ديمقراطية [٢] .

٤٨ – الديمقراطية الاشتراكية :

وكان لجواهر لال نهرو (١٨٨٩ – ١٩٦٤) نظريات وافكار وآراء في الديمقراطية والثورة والقومية والأممية والدولة وفي الحرب والسلم[٣]. فالديمقراطية عند نهرو تتجاوز معناها بكونها حكم الجماهير وسيادة الشعب ، متمثلة من جملة ما تتمثل فيه، في حرية الانتخاب والرأي وغيرها من الحريات الديمقراطية. الديمقراطية عند نهرو مبدأ وسلوك والتزام أخلاقي ، « إنني أقول ان الديمقراطية ليست سياسية فحسب ولا اقتصادية فقط . إنها شيء عقلي ككل شيء في النهاية . إنها تقتضي بالضرورة فرصاً متكافئة لكل الناس سياسياً

---

(١) هارولد لاسكي : الدولة في النظرية والتطبيق . ترجمة أحمد غنيم وكامل زهيري – دار النديم – القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) موسوعة الهلال الاشتراكية . المرجع الآنف الذكر – مادة لاسكي . كتبها كامل زهيري ص ٤٥٠ .

(٣) للاطلاع على نتاج نهرو الفكري والسياسي ، راجع مؤلفاته :

– قصة حياتي ، لمحات من تاريخ العالم ، صفحات مطوية من حياتي . المكتب التجاري – بيروت

و – حوار مع نهرو : كرانجيا . دار الطليعة بيروت

واقتصادياً . إنها تعني حرية الفرد في أن ينمو وفي أن يعمل كل قدراته وإمكانياته . إنها تعني عدم الضيق بآراء الآخرين وإن كانت معارضة لرأيك. إنها تعني البحث الدائب عن الحقيقة »[1] .

وكان نهرو مع إيمانه بالحقيقة الاجتماعية يرفض الاندماج الكلي للكيان الفردي في الكيان الاجتماعي ، إذ يقول أن السعادة هي سعادة الأفراد والبؤس هو بؤس الأفراد .

ويتجاوز نهرو أساس المفهوم الفردي للديمقراطية ، ذلك الأساس الذي بنته كتابات مونتسكيو وفولتير وروسو وغيرهم ، فيعتبره لم يعد صالحاً في القرن العشرين ؛ وهو لم يعد صالحاً بعد الثورة الصناعية . وعلى هذا فإن المساواة النظرية أمام القانون أو أمام صناديق الاقتراع لا تؤدي إلى مساواة حقيقية ، وأن عدم المساواة الاقتصادية واختلال توزيع الثروات ، الذي تؤدي اليه الرأسمالية ، تؤدي كلها إلى استحالة المساواة . وعلى هذا رأى نهرو وضع قيود على الملكية الخاصة ، وتحقيق الملكية العامة لوسائل الإنتاج الأساسية حتى يقوم الحكم الديمقراطي العامل لصالح المجموع .

وكان نهرو يعتبر أن بناء المجتمع وتصفية المتناقضات فيه ، يكون بالديمقراطية البرلمانية المتفقة مع طبيعة الشعب ، وهي برأيه السبيل لتحقيق التطور المطلوب نحو الديمقراطية والاشتراكية . وقد عبر عن ذلك في خطاب ألقاه أثناء زيارة له للاتحاد السوفياتي إذ قال : « إننا نؤمن بالديمقراطية وبالمساواة ، وبإزالة الامتيازات الخاصة . ولقد وضعنا لأنفسنا هدفاً أن نبني انموذجاً لمجتمع اشتراكي بالوسائل السلمية »[2] .

---

(٢٠١) د. يحي الجمل : نهرو ، فلسفته السياسية . مجلة الفكر المعاصر — القاهرة ، يوليو ١٩٥٠ .

٤٩ – الحافز المادي في الانتاج :

وقد وضع أ. ليبرمان (١٨٩٧ –) نظرية جديدة في الانتاج الاشتراكي، هي نظرية توفير اللامركزية لإتاحة التصرف المستقل والمربح لقياس الانتاج ، وذلك عن طريق توسيع اختصاصات مديري المؤسسات وأجهزة الانتاج واعتماد معدل الربح كمعيار أساسي للكفاية الانتاجية على أساس علاقة معدل الربح برأس المال الانتاجي للمؤسسة الاقتصادية . ويقول ليبرمان أن التخطيط المركزي في ظل الاشتراكية لا يعني صدور الأوامر من السلطات العليا بشأن كل صغيرة وكبيرة في الانتاج ، بل على أساس تحديد الاجمالي الكلي للانتاج على أساس تقدير القيمة المالية ، وبعد تحليل عدة عوامل مختلفة مثل معدل زيادة السكان والقوة الشرائية ومقدار ما يخصص الفرد من دخله لشراء كل سلعة منتجة ومصادر المواد الأولية المتوافرة للصناعة[1] .

٥٠ – معذبو الأرض :

« إذا تركتم جعجعات سوريل الفاشية ، وجدتم أن فانون هو أول من يعيد مولدة التاريخ إلى النور بعد انجلز . ولا يذهبن بكم الظن إلى أن دماً مسرفاً في الغليان أو إلى أن اشقاء الطفولة هو الذي يحب العنف حباً خاصاً . إن فانون يشرح الموقف لا أكثر من ذلك . ولكن هذا لا يكفي لأن يصور ، مرحلة ، ذلك أن الديالكتيك الذي يخفيه عنكم النفاق الليبرالي هو الذي أنتجنا كما أنتجه » .

تلك هي فقرات من الكلمة التي قدم بها جان بول سارتر كتاب « معذبو

---

(١) موسوعة الهلال الاشتراكية : مادة ليبرمان . كتبها ابراهيم عامر ص ٤٥٣ .

الأرض» لفرانز فانون[1] (توفي ١٩٦١) المارتينيكي الذي شارك في ثورة الجزائر مشاركة فعلية .

توجه فانون في كتابه إلى العالم الثالث عارضاً صورة إنسان البلدان المتخلفة اقتصادياً محاولاً تفسير ضرورة وإمكانية الثورة وحتميتها في عالم ليس أمامه ما يخسره غير قيوده .

إن المسألة الأولى التي طرحها فانون هي الكيفية التي يمكن أن تقوم بها الثورة في عالم ينتفي فيه وجود الطبقة العاملة الصناعية . لقد اعتبر فانون أن الفلاحين هم الطبقة القائدة للثورة في المستعمرات والبلدان الافريقية ، مخالفاً بذلك ماركس من جهة وهو الذي اعتبر الطبقة العاملة هي التي تقوم بالثورة ، ومناقضاً لينين الذي أدخل الفلاحين إلى الثورة ولكن متحالفين مع العمال وتحت قيادتهم . ولا يذهب فانون مع قاعدة ديمومة الثورة وتحول قطاعات من الفلاحين إلى عمال في مرحلة البناء الاقتصادي والتصنيع ، اللاحقة بمرحلة الاستقلال الوطني الذي تنتهي به عادة الثورة على الاستعمار .

ومما يثيره فانون موقف الأحزاب البورجوازية في البلاد المتخلفة من الثورة ، فيرى أن سعيها الوحيد هو لاستلام الحكم ، وأن لا دور لها تضامني إيجابي لمصلحة الثورة .

---

(١) Frantz Fanon: les Damnés de la terre. Ed. F. Maspéro Paris 1962.

– الترجمة العربية : د. سامي الدروبي و د. جمال الاتاسي . دار الطليعة ـ بيروت .

٥١ – فلسفة الثورة والميثاق :

يدين الفكر السياسي المعاصر ، العالمي عامة والعربي خاصة ، لإنجازات جمال عبد الناصر[١] (١٩١٨ – ١٩٧٠) في المجالين النظري والعملي .

لقد صاغ جمال عبد الناصر أهداف الثورة السياسية والاجتماعية في كتابه « فلسفة الثورة » كما حدد في « الميثاق الوطني » اختيار التطور الاشتراكي والديمقراطية .

في « فلسفة الثورة » أوضح جمال عبد الناصر ، أن جذور الثورة ضاربة في أعماق تاريخ الشعب : « إن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا . وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء ، وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات . إن كفاح أي شعب ، جيلاً بعد جيل ، بناء يرتفع حجراً فوق حجر . وكما أن كل حجر في البناء يتخذ من الحجر الذي تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب ، كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه وهو في نفس الوقت مقدمة لحدث ما زال في ضمير الغيب »[٢] .

وأكد جمال عبد الناصر اقتران الثورة الاجتماعية بالثورة السياسية ، إذ

---

(١) راجع : في طريق الثورة – في طريق الوحدة والبناء ، تأليف جورج فوشيه.
رائد القومية العربية – تأليف توم ليتل.
ناصر العرب « البحث عن الكرامة » – تأليف ولتن وين .
منشورات المكتب التجاري – بيروت .

وأيضاً : لطفي الخولي : دراسات في الواقع المصري المعاصر .
أنور عبد الملك : مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون .
أحمد بهاء الدين : ثلاث سنوات يونيو ٦٧ – ٧٠ .
دار الطليعة – بيروت

(٢) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، دار المعارف بمصر ص ٩ – ١٠ .

يقول في فلسفة الثورة : « وأنا الآن أستطيع أن أقول أننا نعيش في ثورتين وليس في ثورة واحدة . ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان : ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه ، من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه . وثورة اجتماعية تتصارع فيهـا طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد . لقد سبقنا على طريق التقدم البشري شعوب مرت بالثورتين ، ولكنهـا لم تعشها معـاً ، وأي فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين . أما نحن فإن التجربة الهائلة التي امتحن بها شعبنا هي أن نعيش الثورتين معاً في وقت واحد »[1] .

وآمن عبد الناصر بالمجتمع الواحـد القوي المتجانس . إذ يورد في فلسفة الثورة « سوف يتبلور هذا المجتمع، سوف يتماسك وسوف يكوّن وحدة قوية متجانسة ، إنما ينبغي أن نشد أعصابنا ونتحمل فترة الانتقال »[2] .

وفي ميثاق العمل القومي ١٩٦٢ ، كرس جمال عبد الناصر اختيار الثورة في الجمهورية العربيـة المتحدة بصورة حاسمة ونهائية طريق التطور الاشتراكي بالديمقراطية ، استناداً إلى قوى الشعب العاملة المؤلفـة من الفلاحين والعمال والمثقفين والرأسمالية الوطنية .

ويقوم الميثاق على خطوط أساسية يمكن إيجازها بما يلي :

١ – مبدأ المواطن الحر هو أساس المجتمع .

٢ – اعتبار القيم الروحيـة المنبثقة من الأديان كفيلة بأن ترشد الانسان وأن تضيء حياته بالايمان وأن تثير في نفسه طاقات وافرة من أجـل الخير والحق والمحبة . وان جميع الرسالات هي من الناحية الانسانية ثورات هادفة لتحقيق الكرامة .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٨ .

٣ – استبعاد العنف .

٤ – استبعاد خضوع طبقة لطبقة أخرى من طبقات المجتمع .

٥ – إزالة الاستغلال وتوزيع الثروات توزيعاً عادلاً ، وضمان تكافؤ الفرص للجميع والقضاء على المشاغل والقلق بالنسبة للمستقبل المادي .

٦ – شرعية الملكية الخاصة والوراثة على أن لا يترتب عليها أو ينتج عنها أي استغلال أو سيطرة شخصية .

٧ – تشجيع وتنمية الملكية الزراعية والرأسمالية الوطنية الخاصة ضمن حدود معينة ، وعلى ألا يؤدي التشجيع والتنمية إلى الاستغلال .

٨ – اعتبار العمل حق وواجب وشرف للمواطن .

ويعرّف « الميثاق » الديمقراطية والاشتراكية فيقول : « إن الديمقراطية هي الحرية السياسية ، والاشتراكية هي الحرية الاجتماعية ، ولا يمكن الفصل بين الاثنين ، إنهما جناحا الحرية الحقيقية ، وبدونهما أو بدون أي منهما لا تستطيع الحرية أن تحلق إلى آفاق الغد المرتقب » .

وحدد جمال عبد الناصر في الميثاق ضمانات تحقيق الديمقراطية بالنسبة للمواطن وهي تحريره من الاستغلال وإعطائه الفرصة المتكافئة في نصيب عادل من الثروة الوطنية والقضاء على قلقه بالنسبة للمستقبل .

ويعتبر عبد الناصر « الحل الاشتراكي هو المخرج الوحيد الى التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وهو طريق الديمقراطية بكل أشكالها السياسية والاجتماعية » . أما تحقيق الاشتراكية فيكون عن طريق « خلق قطاع عام وقادر ، يقود التقدم في جميع المجالات ، ويتحمل المسؤولية الرئيسية في خطة التنمية ، ووجود قطاع خاص يشارك في التنمية في إطار الخطة الشاملة لها

من غير استغـــلال وعلى أن تكون رقابة الشعب شاملة للقطاعين مسيطرة عليهما معاً » .

ويرى عبد الناصر أن لتحقيق الاشتراكية لا بد من المرور بمرحلة التحول. والدولة هي أداة الثورة ، ففي خطاب له في افتتـــاح دورة مجلس الأمة (نوفمبر) ١٩٦٤ ، يقول : « إننا لم نصبح دولة اشتراكية ولا نستطيع أن نقول اليوم اننا دولة اشتراكية . نحن في مرحلة انتقـــال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، لأن الاشتراكية ليس معناها أن نؤمم بعض المصانع فقط » . وفي حديث الى الهيئة البرلمانية للاتحـاد الاشتراكي خلال شهر أيار ١٩٦٥ ، قال : « مجتمعنا اليوم يمر بمرحلة دقيقة في تاريخه ، هي مرحـــلة التحول من الرأسمالية والاقطاع الى الاشتراكية . في هذه المرحلة تغيير العلاقات الاجتماعية يقابله مشاكل كثيرة ، لأن رواسب أو بقايا العلاقات الاجتماعية التي تكونت في زمن النظام الرجعي الاقطاعي والرأسمالي لا زالت باقية . ولا يمكن أن نتحول الى الاشتراكية تحول أوتوماتيكي في سنة أو سنتين أو عشرة » .

ويؤكد عبد الناصر أهمية وجود جهاز سياسي ، إذ يقول في الميثـاق : « الحاجة ماسة الى خلق جهاز جديد داخل إطار الاتحاد الاشتراكي العربي يجبذ العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودها ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ، ويتحسس احتياجاتها،ويساعد على إيجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات».

ونبّه عبد الناصر الى البيروقراطية التي تظهر في مرحلة الانتقال،في حديث له الى مجلس الأمة في نوفمبر ١٩٦٤ ، إذ يقول : « البيروقراطية في مرحـلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ستعمل بكل الوسائل على أن تحصل على أكبر قدر من السلطة حتى تستطيع أن تقوم بدور حاسم في الانتاج وفي العلاقات الاجتماعية وتحتكر هذا الدور ، وبفضل هـــذا الاحتكار تأخذ مكان الرأسمالية » .

وقد أوضح عبد الناصر في خطاب له في تموز سنة ١٩٦١، أن الاشتراكية التي يتجه إليها ، اشتراكية انسانية تؤمن بالفرد ودوره في الحياة . فهو يقول تعليقاً على القرار الجمهوري رقم ١١٤ تاريخ ١٩ تموز ١٩٦١ الذي نظم تشكيل مجالس إدارة الشركات والمؤسسات في ج. ع. م. ونص على مشاركة العمال في الادارة : « هذا المبدأ له معنى كبير جداً .. فصاحب رأس المال الذي يقيم مصنعاً لا يستطيع أن يدير المصنع بدون العمال . وانفراد صاحب رأس المال بالادارة يعتبر ظلماً اجتماعياً ... إذن رأس المال والعمال لا بد أن يشتركا في الادارة . إن الاشتراكية التي نتجه إليها اشتراكية تؤمن بالفرد ودور الفرد في الحياة . ولا يمكننا أن ننظر للعامل على أنه جزء من الآلة وإنما لا بد من إشراكه في الادارة ثم اشراكه في الربح » .

وفي مجالات السياسة الدولية ، دعا جمال عبد الناصر ، إلى سياسة عدم الانحياز ، وقد أعلن مبررات وغاية سياسة عدم الانحياز في الخطاب الذي ألقاه في مؤتمر أقطاب الدول غير المنحازة ببلغراد في أول سبتمبر ١٩٦١ ، ومما قاله : « إن علينا أن نكون قوة الضمير في عالمنا الذي نعيش فيه . وإذا كانت البشرية كلها الآن تحيي قوة العلم الذي استطاع أن يحلق في الفضاء العالمي ، ويجاوز نطاق الجاذبية الأرضية ويرتاد الأفق الجديد ، فإننا هنا مطالبون بأن نجعل قوة الضمير تحقق ما تحققه قوة العلم في عصرنا . إننا هنا مطالبون بأن نجعل قوة الضمير تنطلق من أغلال الأنانية وتجاوز نطاق جذبها ، وترتاد أفقاً جديداً تحتاجه البشرية أكثر مما تحتاج آفاق الفضاء العالمي ، وأعني به أفق السلام القائم على العدل » . وفي الخطاب الذي ألقاه أمام قصر الضيافة يوم ٩ مارس ١٩٥٨ ، يحدد عبد الناصر معنى سياسة عدم الانحياز فيقول : « ان سياسة عدم الانحياز هي الاعتماد على الشعب . ان سياسة عدم الانحياز هي تلبية رغبة الشعب . ان سياسة عدم الانحياز هي أخذ الأوامر من الشعب » .

٥٢ – الانسان ذو البعد الواحد :

السؤال الذي يواجه الفكر السياسي لدى هربرت ماركوز ، هو : كيف أن الثورة لم تتحقق بل أضحت شبه مستحيلة في البلدان الصناعية المتقدمة (أميركا مثلاً) ،على الرغم من انه قد تكونت فيها منذ أكثر من قرن البروليتاريا الصناعية وهي طاقة الثورة؟. فهو ينظر إلى المجتمع المعاصر المتقدم الذي هيمنت فيه على الفرد الطاقة الهائلة للتكنولوجيا والصناعة ، وهي طاقة عقلية ، هيمنة تجاوزت السيطرة اللاعقلانية التي مارسها المجتمع القديم بأشكالها المختلفة على الأفراد ، ولم يعد من مجال للقول بأن بوسع الانسان أن يعمل على كبحها أو تعديلها كما كان بوسعه أمام سيطرة المجتمع القديم ! فالمجتمع الجديد قادر ظاهرياً بالتقدم التقني ، على تحقيق التطور الاجتماعي تلقائياً بما يتمتع به من قدرة على تنمية الانتاج وتحقيق الرفاهية لأفراده . ومن هذه الظاهرة اعتبر ماركوز أن المجتمع الجديد هو مجتمع أحادي البعد بتجريده معنى كل محاولة لمناهضته ، بتلبيته حاجات الناس ورفع مستوى حياتهم. ولكن هل الحاجات التي يلبيها هذا المجتمع هي حاجات حقيقية أم كاذبة ؟ حاجات إنسانية حقاً وتلقائية أم حاجات مصطنعة اصطناعاً ومفروضة فرضاً ؟ إن الجواب بالنسبة الى ماركوز لا يقبل التباساً : إنها حاجات وهمية من صنع الدعاية والاعلان ووسائل الاتصال الجماهيري . وإذا كان المجتمع يحرص على تلبية هذه الحاجات المصطنعة ، فليس ذلك لأنها شرط استمراره ونمو إنتاجيته فحسب ، بل أيضاً لأنها خير وسيلة لخلق الانسان ذي البعد الواحد القابل بالمجتمع ذي البعد الواحد والمتكيف معه . وما الإنسان ذو البعد الواحد إلا ذاك الذي استغنى عن الحرية بوهم الحرية . وإذا كان هذا الانسان يتوهم بأنه حر لمجرد أنه يستطيع أن يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي يكفلها

له المجتمع لتلبية حاجاته ، فما أشبهه من هذه الزاوية بالعبد الذي يتوهم بأنه حر لمجرد أنه منحت له حرية اختيار سادته[1] .

ومن هنا يدعو ماركوز إلى ضرورة التغيير السياسي في المجتمع التكنولوجي الصناعي المتقدم ، ومن هنا ينفصل ماركوز عن النظرية الماركسية ، فهو يعلن أن الطبقة العاملة لم تعد قادرة ولا هي عامل التغيير الاجتماعي . ويعتبر أن الديالكتيكية ، مع التسليم بصحتها ، قد فقدت قدرتها الايجابية والعملية . ويقف ماركوز دون أن يبين ما هي القوى الاجتماعيـــة القادرة على التغيير السياسي ، معلناً أن طريق التغيير مسدودة في الوقت الراهن

ولا بد من الملاحظة أن المجتمع التكنولوجي الصناعي المتقدم ، الذي يعنيه ماركوز ليس المجتمع الرأسمالي وحده بل والمجتمع الاشتراكي !

وقد اقترن ذكر تفكير مـاركوز بذكر حركات التمرد الطلابية الأخيرة في أوروبا . واعتبر ماركوز الأب الروحي لها ، ولا شك أن ذلك مرده الى ما ينطوي عليـه تفكيره من تبرم واستياء واحتجاج ، هذا التفكير الذي لاقى هوى في نفوس بعض جماعات هذه الحركات ، إنمـــا في الواقع ، اعتبر الكثيرون أنه لا يمكن رد بواعث هذه الحركات جميعهـــا إلى تفكير ماركوز وحده[2] .

---

(١) جورج طرابيشي : مقدمة ترجمة كتاب « الانسان ذو البعد الواحـــد » لهربرت ماركوز – دار الآداب ، بيروت ١٩٦٩ .

(٢) بعض مصادر ومراجع فكر ماركوز السياسي :

– هربرت ماركوز : الانسان ذو البعد الواحد – المرجع الآنف الذكر .

– هربرت ماركوز : العقل والثورة . ترجمة د . فؤاد زكريا – الهيئة المصرية العامة =

٥٣ – ثورة في الثورة :

لعل هـــذا العنوان الذي يحمله أحد مؤلفات ريجي دوبريه ، هو أفضل عنوان لعرض الأفكار السياسيـة لفيدل كاسترو وأرنستو جيفارا وريجي دوبريه .

أ – تحت عنوان «كوبا الاشتراكية» كتب فيدل كاسترو (١٩٢٧ – ...) سنة ١٩٦٥ : «إننا نؤمن بعقيدة ثورية جدلية لا بعقيدة تحمل صفات الجمود. وعلى هذه العقيدة أن تكون دليلنا في العمل الثوري لا أن تثقل علينا كعقيدة جامدة . إن محاولة سجن الماركسية داخل نوع من الديانة هو بحد ذاته عمل مضاد للماركسية [١] .

= للتأليف والنشر ١٩٧٠ .

- Le Marxisme Sovietique - Gallimard - Paris.
- La Fin de L'Utopie. Ed. du Seuil. Paris 1968.
- Vers la Liberation. Ed. de Minuit. Paris 1969.
- Critique de la Tolérance pure. Didier. Paris 1969.
- L. Goldman, J. Laplanche, M. Lefevre et autres : Marcusecet. Inconnu. Paris 1969.
- J. M. Palmier : Sur Marcuse, Union génerale d'Editions. Paris 1968.
- Bernard Oelgart : Idéologues et Idéologies de la nouvelle gauche. Union génerale d'Editions. Paris 1970. p. 159-189.
- أليسدير ماكنتير : ماركوز ، ترجمة عدنان كيالي ؛ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(١) مقدمة روبير ميرل لمذكرات جيفارا عن الثورة الكوبية ... تعريب وتعليق الهيثم الأيوبي ومحمد جمال دنوره . دار الكاتب العربي . القاهرة ١٩٦٧ ص ١٢ .

هذه الفكرة تلخص إلى حد ما تفكير كاسترو السياسي ، فهو لا ينكر ماركسيته إنما يعتبر أن اختلاف الأوضاع يفسح المجال لوجود عدة تفسيرات مختلفة نوعاً ما، وانه يمكن تسمية أصحاب التفسير الصحيح بالثوريين[١]. ويرى روبير ميرل أن كاسترو يقف في منتصف الطريق بين الموقف الصيني المبني على الحوافز المعنوية ، والموقف السوفييتي المبني على الحوافز المادية للجماهير ، ربما تسمح ظروف التطور بالاستغناء عنهـــا . والحوافز المعنوية للصفوة التي يتم اختيار كادرات الثورة وقادتها منها [٢] .

ب – وتناول جيفارا (١٩٣١ – ١٩٦٧) بحث قضايا الحزب والثورة ، الحرب والطبقة ، الكفـــاح المسلح والشرعية ، علاقة الماركسية بالمجتمع الاشتراكي . يعتبر أن الثورة المسلحة هي التي تصنع الحزب . ويذهب غيفارا إلى اعتبار حزب الثورة هو حزب الفلاحين ، وما الطبقة العاملة في المدن إلا رديف لهؤلاء ، والقرى بنظر جيفارا هي نقطة انطلاق الثورة، وهي وحدها القادرة في بلدان العـالم الثالث . وهو يقول في كتاب « حرب الغوار » : « إن المغاور هو قبل كل شيء ثائر فلاحي »[٣] . والثورة الكوبية قد رفدت الحركة الثورية في أميركا بثلاث اسهامات ، الثالثة منها تقول أنه ينبغي في الأنحاء المختلفة من أميركا اتخاذ الريف ميداناً أساسياً للنضال المسلح[٤]. ولكن هذا لا يعني أن جيفارا كان يهمل دور المدينة إذ يقول : « لقد أبخس النضال في منطقة المدينة قدره كثيراً ، إلا أنه في غاية الأهمية . إن عملاً جيداً واسع

---

(١) المرجع الآنف الذكر ص ١٢ .

(٢) المرجع لآنف الذكر ص ١٩ .

(٣) أرنستو جيفارا : حرب الغوار – دار دمشق – الطبعة الأولى ، ص ٢١ .

(٤) المرجع السابق ص ١٢ .

النطاق يشل الحياة التجارية والصناعية في هذا القطاع شللاً شبه تام ، ويضع السكان كافة في وضع من عدم الاطمئنان والقنوط والقلق ، بحيث يتمنون حوادث عنيفة للخروج من هذا الانتظار ، فإذا ما جرى التفكير بالمستقبل منذ ابتداء الحرب وتم تكوين اخصائيين لهذا النمط من القتال ، فسوف يتم ضمان عمل أكثر سرعة ، وبالتالي اقتصاد ثمين للأمة في الأرواح والزمن»[1] . وبالنسبة للشرعية والكفاح المسلح ، يركز جيفارا على اعتبار ان الانتفاضة المسلحة لا الأحزاب هي التي تحسم الأمور . أما بالنسبة لموقفه من الاشتراكية والماركسية فهو يطابق رأي كاسترو الذي ألمحنا إليه .

ج — أما ريجي دوبريه، فقد اعتبر ان النضال الثوري لا يمكن أن يكون آلياً لصيغ ثابتة مجردة هي حصيلة نضال ثوري آخر . وقد حاول دوبريه في كتابه « ثورة في الثورة » أن يدعو إلى الفصل بين النظرية والتطبيق دون أن يرفض عمل السياسة لحساب العمل العسكري أو اقترانهما في تنظيم « الجيش الشعبي » الذي يشكل نواته المغاوير . وهو كجيفارا وكاسترو يعتبر الحزب وليد الثورة ، ويشرح ذلك : إن ليس في ذلك معادلة ميتافيزيقية بين الثوار والحزب ، وإنما علاقة ديالكتيكية بين مهمة محددة –المهمة التاريخية للثوار– وبين شكل تنظيمي محدد – الحزب — ، علاقة ناجمة عن ظروف تاريخية ومتعلقة بها . ويركز دوبريه على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار مضمون كل وضع على وجه التحديد ، وهو كجيفارا يعتبر القرى مصدر انطلاق الثورة[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٢) بعض مراجع ومصادر الأفكار السياسية لكاسترو - جيفارا - دوبريه :

كاسترو :

- F. Castro : La Revolution Cubaine I, II Maspéro Paris 1968. =

٥٤ – الانسان العلمي واتوبيا المستقبل :

إتوبيا المستقبل هي الحكومة العالمية التي دعا إليها برتراند راسل[١] انطلاقاً من السؤال :

= – مذكرات جيفارا عن الثورة الكوبية ـ المرجع الآنف الذكر .
– جيفارا : الاشتراكية والانسان في كوبا ـ دار الأنوار ـ بيروت ١٩٦٧ .
– جيفارا : دراسة عن الوضع الثوري في العالم . ترجمة ناجي علوش .
دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٧ .

– جيفارا : يوميات جيفارا في بوليفيا ـ ترجمة منير شفيق وفواز طرابلسي.
دار الطليعة ـ بيروت .

– جيفارا : حرب الغوار ـ دار دمشق ـ الطبعة الأولى .
– مجلة دراسات عربية ـ دار الطليعة ـ بيروت (السنة ٤ ـ العدد ٢) ١٩٦٧
عدد خاص عن جيفارا

– جورج عزيز : جيفارا . كتاب الهلال ـ العدد ٢٠٤ ـ دار الهلال ـ
القاهرة آذار ١٩٦٨ .
– جيفارا : البطل والمفكر السياسي والقدوة الثورية . مجلة الطليعة ، القاهرة .
عدد ١١ ، نوفمبر ١٩٦٧ . ص ١٤٤ – ١٥٤ .

دوبريه : R. Debray : Révolution dans la Révolution et autres essais. Paris 1969. Maspéro,

ولأفكار الثلاثة

- A. G. Petit : Castro, Debray .. Contre le Marxisme Leninisme. Paris 1968.

- Bernard Oelgart : Idéologues et Idéologies de la nouvelle gauche. P. 71—102.

(١) أفكار راسل مبسوطة بصورة عامة في كتاب (Ma conception du monde) Gallimard - coll. Idées No 17. Paris 1962
وهو ترجمة لكتاب باللغة الانكليزية :
Bertrand Russel speaks his mind.
وأيضاً : – السلطان : ترجمة خيري حماد .
– السلطة والفرد : ترجمة شاهر الحمود . دار الطليعة – بيروت

« هل يستطيع الانسان العلمي أن يعيش ؟»ويستدرك راسل : « نحن لا نعني بالمسألة ما إذا كان سيعيش لعشر سنين قادمة ، أو حتى لمائـــة سنة . فقد يستطيع إذا واتاه الحظ أن يحيا خلال فترات الخطر الماحق بأن يهاجر ، أو، أن يسانده الحظ مرة أخرى بالتغلب عليها . بيد أن الحظ السعيد لا يمكن أن يدوم طويلاً ، وستتمكن المخاطر التي تركناها تعيش بيننا من القضاء على الانسان إن عاجلاً أو آجلاً »[1] .

ويعتبر برتراند راسل أن الانسان العلمي — ويعني به الانسان المعاصر — لن يعيش طويلاً إذا ظلت الأوضاع الدولية الحالية قائمة . فطالمـــا القوات المسلحة موضوعة تحت تصرف دول مفرقة ، أو مجموعات من الدول ، ليس لها سلطان لا رادّ له على الدنيا . وطالما أنـــه من المؤكد ، نشوب حرب بين هذه الدول أو التكتلات عاجلاً أو آجلاً ، وطالما أن التكنيك العلمي موجود فإن الحرب ستكون مدمرة للبشرية كلها[2] . ومن هنا دعا راسل إلى وضع أسلحة الدمار الهائل وكل أسلحة الفنـــاء الجماعي في يد سلطة واحدة حتى تصبح نتيجة لهذا الامتياز قوية بدرجة لا تنافس وأن هذه القوة هي التي من شأنها الحفاظ على استمرار الحياة في عالم تسوده التكنولوجيا والصناعة الهائلة. و « ثمة طريقة مقبولة للحفاظ على السلام العالمي ، وهي الاتفاق طواعية على إخضاع الجيوش لسلطة دولية . قد يبدو هذا أملاً بعيداً وأتوبيــا مأمولة ، ولكن هناك كثيراً من السياسيين المحنكين يعتقد أنه واقعي[3] .

ويعلن برتراند راسل أنه من الممكن إنشاء ما يسميه « حكومة عالمية »

---

(١) برتراند راسل : هل للانسان مستقبل ؟ الدار القومية - القاهرة - ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٣). المرجع السابق ٠ ص ٥١ .

يكون لها سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية وجيش لا ينافس . ولا يقوم الجيش الذي لا ينافس إلا بعد تخفيض الدول لحجم جيوشها بحيث تصبح مجرّد قوة كافية للأعمال البوليسية ، وحظر حيازة الأسلحة النووية أو أي نوع آخر من الأسلحة أو القوى المدمرة ، ويعطى للحكومة الحق في أن تصنع في أي بلد من البلدان ، الأسلحة التي تراهـا مهمة ولازمة . ويعتمد دستور الهيئة التشريعية الفيدرالية بحيث تكون الدول مستقلة ذاتيـاً في كل شيء إلا في شؤون الحرب والسلام . وبالنسبة للتصويت فإن مشكلة الدول الكبرى والدول الصغرى تحل بإيجاد اتحادات فيدرالية ثانوية بين الدول الصغرى . أما سلطة البرلمان العالمي فهي تتناول الاتفاقيات المعقودة بين الدول بحيث أن العمل بها معلق على إقرارهـا منه . وتتناول النظم التعليمية بحيث يمنع تلك التي تشكل خطراً على السلام . أما السلطة التنفيذية فهي مسؤولة أمام السلطة التشريعية وتشرف على القوات المسلحة . وهناك قانون عالمي تطبقـه محكمة دولية عليا لهـا النفوذ نفسه الذي لمحكمة إقليمية . كما أن هناك قانون جنائي دولي . وينهي راسل مشروعه بالقول : « وأخيراً أعتقد أننـا لو أردنا لمثل هذه الحكومة النجاح في محو المشاعر والدوافع التي تؤدي للحرب ، فعلينا أن ندفعها للعمل على المساواة الاقتصادية في مستويات المعيشة في الأجزاء المختلفة من الدنيا ، لأنه طالما أن هنالك دولاً غنية ودولاً فقيرة ، سنجد مداً في جانب وقدرة على الضغط الاقتصادي في جانب آخر . وعليه يجب أن يكون هنالك عمل مطرد للوصول إلى المساواة الاقتصادية كجزء من العمـل على بسط السلام الدائم [١]

---

(١) المرجع الأنف الذكر ص ٥٣ – ٥٩ .

خاتمة

الظلم ، هو المناسب للسياسة .

ابن خلدون : المقدمة .

وبعد ...

لم يرتق نوح منفردا السفينة التي عصمته من الطوفان .

ولم يلبث يونس طويلا في جوف الحوت .. وعندما طلع الى الساحل ، لم ينتظر نمو يقطينة جديدة تقيه حرّ الشمس ، بل عاد الى نينوى .

وما ان أفاق أهل الكهف ، بعد هجعتهم زمنًا مديدًا ، حتى هرعوا الى المدينة .

وتيمون الاثيني ، لم يكن ، في قرارة نفسه ، يرغب في اعتزال قومه . ومن هنا كان تلكؤ شكسبير عن تبرير عزلته في مسرحيته عنه .

وما عاد ابن طفيل بحي بن يقظان وأسال الى جزيرة واق الواق خوفاً من الجماعة أو قلقاً عليهما من العيش معها .

وليست مشكلة ألسست Alceste بالواقع هي الصراع بينه وبين أفراد مجتمعه ، رغم اصرار موليير على ابراز ذلك في مسرحيته بل كانت مشكلة ألسست هي الصراع بين حبه وكبريائه .

وكان جلفر عبر جولته بين بلاد العمالقة وبلاد الاقزام ينشد الدولة المثلى كما تمناها سويفت .

وموغلي لم يكن ينبذ المجتمع البشري في كتابي الأدغال لرديارد كبلنغ بقدر ما كان يدعو الى الالفة والمحبة بين البشر متخذا انموذجاً لذلك حيوانات الأدغال .

اما رحلة الامير الصغير فقد كانت تبشيرا بالحنان والمحبة والجمال من سانت اوكسبري لأهل الارض .

وما فارق المصطفى ، نبي جبران ، مدينة اورفليس

ولا يفوت القول ان المدن الفاضلة مشاريع لرؤيا فراديس السياسة (١) .

لقد سعى الانسان منذ الأزل ، في كل زمان ومكان ، في الاسطورة وفي الواقع ، ولا زال يسعى ، الى العيش مع الجماعة والتعايش معها في مسيرة نحو الأفضل والأكمل .

لقد كان تطور الانسان من التفرج الى التحسس لما حوله من كائنات ثم الى فهمها وتبادل المنافع معها هو سياسة .. ثم ان تحول الانسان — بفضل ابتكاره للأدوات واختراعه للآلات — من فردية العلاقة والمنفعة الى جماعية العلاقة والمنفعة كان بدوره سياسة . وفي كل طور من اطوار التطوروفي كل مرحلة من مراحل التحول كان لا بد للانسان من التنظيم والنظام عفوا أو ارادة ، وكان ذلك سياسة ايضاً . والتنظيم والنظام كان مظهرهما الاول التسلط . وما كان للتنظيم والنظام ليحققا وجودهما ودورهما لو لم ينحسر التسلط عن السلطة لتخدم وتطور بدلا من انتستغل وتجمد . وهيهات ان يكون للسلطة ديمومة بدون سياسة . وكان ذلك

---

(١) تستاهل المدينة الفاضلة من حيث أثرها في بناء الفكر السياسي دراسة متفرقة موسعة وقد حاولنا في بداية التعقيب الالماح قدر الامكان الى دورها ثم تناولنا بعض المدن الفاضلة في مواضعها تاريخيا . وهنا لا بد من التنويه بكتاب Jean Servier المسمى Histoire de l'Utopie المنشور في باريس سنة ١٩٦٧ في مجموعة Idées رقم 127 (Gallimard)

كله بفضل الفكر • اذ كان الفكر هو المحرّك والموجّه على الدوام • وهكذا كان التداخل المستمر بين السياسة والفكر •

ولكن هذا التداخل لم يؤد الى التفاعل بين السياسة والفكر الاّ عندما تبدى في وجوه ثلاث : الوجه الاول ، وهو وجه الممارسة العملية للعمل السياسي • وتتفاوت درجات الفكر في الممارسة العملية للعمل السياسي بتفاوت المستوى الفكري والاخلاقي بين الممارسين للعمل السياسي • والوجه الثاني وهو وجه الممارسة الذهنية للعمل السياسي أي التأليف بأية صيغة كتابة أم القاء ام بالتعبير الفني وهنا تتباين مضامين الافكار بتباين مذاهب وآراء المؤلفين • أما الوجه الثالث فهو الوجه الذي يجمع بين الممارسة العملية والممارسة الذهنية ، وهنا يتوازى الفكر مع السياسة ولكن يبقى تفاوت المستوى الفكري والاخلاقي والعقلي بين الممارسين قائما والتباين في مضامين الافكار ماثلا،ولن يزول هذا التباين في مضامين الافكار طالما ان ضحالة الثقافة متواجدة احيانا وطالما ان للمصالح والاهواء الشخصية مكاناً في بعض النفوس (١) وطالما ان للحالات المرضية العقلية الظاهرة والخفية وجود يتجلى في السلوك (٢) • وبالواقع فإن العدالة لم تسد الانسانية بعد والشعوب والافراد لم ينالوا بعد حقوقهم وحرياتهم

---

(١) التاريخ حافل بالشواهد على تسبب المطامع والاهواء الشخصية في افساد الحكم .

(٢) لا ريب ان السياسي المعاصر يجب ان يكون متمتعا بصحة عقلية كاملة . ولقد اثبت التاريخ ان العديد من الانحرافات في السلطة والحكم مردها حالات مرضية عقلية لدى المسؤولين . ولقد نبه الدكتور روبرت س. دي روب في كتابه الذي ترجم الى اللغة العربية بحت عنوان « العقول المريضة والمقاليد الجديدة »-(ترجمة الدكتور محمد محمود عبد القادر ، سنة ١٩٧٤) الى اهمية الصحة العقلية لدى ساسة العصر عندما ذكر في الفصل الاخير من كتابه : « .. هذه الاسلحة الميكانيكية السريعة ذات الصفة المدمرة تتطلب وجود رجال يقدرون المسؤولية والاتزان . نحن الآن في وضع يصفه الدوس هكسلي في كتابه « عام جديد شجاع » • ينبغي فيه ان تسير هذه المجلات بهدوء ، بواسطة رجال متزنين هادئين عاقلين . »

كاملة ، او كما يقتضي ! رغم الاعلان العالمي لحقوق الانسان ورغم مباشرة الانسان غزو الفضاء الكوني ...

ولم يطمح تعقيبنا هذا على كتاب « الامير » الى أبعد من معالجة الوجه الثاني للتداخل والتفاعل بين السياسة والفكر، وهو وجه الممارسة الذهنية للعمل السياسي ؛ أي التأليف . كما أن هذا التعقيب لم يعد كونه محاولة في وضع خطوط أولية وعامة لمعالم تراث الفكر السياسي عبر تاريخ الحضارة الانسانية وذلك من خلال عرض موجز لملامح أفكار أعلام هذا التراث قبل وبعد ماكيافللي مؤلف كتاب "الامير" وذلك على اساس نتاجهم من كتب ومحاضرات ومقالات وخطب وأبحاث. ومن خلال ذلك يمكن الاحاطة بالأزمنة والأمكنة التي نشأت فيها هذه الافكار وتأثرت وأثرت بها . وعلى حد تعبير الاستاذ مارسيل بريلو Marcel Brelot في كتابه تاريخ الآراء السياسية Histoire des Idées Politiques فإن نظم الماضي وحياته السياسية والى حد ما نظم العصر الحالي وحياته السياسية معروفة لنا في الواقع من خلال المؤلفات السياسية بالمعنى الواسع الذي تعارفنا عليه لهذا الاصطلاح (١) . ومما لا ريب فيه انه ما كان لما اصطلح على تسميته بعلم السياسة ليتكون وليتطور لولا تلك الافكار السياسية . ذلك ان هذه الافكار قد تناولت المواضيع التي يقوم عليها علم السياسة حاليا والتي حددها اكاديميا اجتماع خبراء الاونيسكو المنعقد في باريس سنة ١٩٤٨ وهي :"النظرية السياسية"وتشمل النظرية السياسية وتاريخ المذاهب ثم "النظم السياسية"وتتناول الدستور ، الحكومة ، الادارة ، وظائف الحكومة الاقتصادية والاجتماعية ، النظم السياسية المقارنة وبعد ذلك تأتي "الجماعات السياسية"وهي المنظمات والجمعيات والاحزاب واخيرا "العلاقات

(١) مارسيل بريلو : علم السياسة . ترجمة احمد حسيب عباس . دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥ ص ٧٨ .

الدولية"وقوامها السياسة الدولية والتنظيم الدولي والقانون الدولي .
وفضلا عن هذا فان قيمة الافكار السياسية لا تنحصر في كونها مرجعا او مادة دراسة حضارية بل تتعدى ذلك الى تكوين طاقات خلاقة دامغة لنمو وتطور السياسة العملية . ولا مبرر هنا لاستبعاد الافكار السياسية المضفى عليها ثوب الخيال او المصاغة في قالب رمزي ذلك انه بالذهاب مع الاستاذ الفرد فوييه Alfred Fouillé في كتابه « الفكرة الحديثة في القانون » Nouvelle Idée de Droit في اعتبار كل ما ليس هو بواقع يجوز ان يكون مثلا اعلى (١) . والمثل الاعلى هنا ليس ما يهرع اليه فرارا انانيا من مجابهة الواقع بل ذلك الانموذج الذي تكونه الآراء الساعية في بناء عالم جديد معطاء للانسانية والحياة . ومن هنا كانت تلك الاساطير التي كونتها الاخيلة والرموز التي ابتكرها ذلك النوع من التفكير السياسي مظاهر ارادة وقيمتها لا تكمن في كونها ليست حقيقة بل تكمن في الحقيقة التي تنشئها او تنشدها هذه الاساطير . ذلك ان الاساطير هي المولّد للخيال والخيال هو الطاقة الدافعة للارادة .

وكان يقتضي ان لا يقف هذا التعقيب ضمن حدود تاريخية وجغرافية الفكر السياسي . ذلك ان التاريخ كما يرى أ. سودر A. Sudre في مؤلفه تاريخ السيادة او جدول النظم والمذاهب المقارنة في العهود القديمة (٢) لا يبدأ من الناحية الفكرية ولا ينتهي في أي مكان . وليس هناك افكار اصبحت في الواقع بائدة . كما انه ليست هناك مذاهب جديدة من كافة جوانبها . وما بين الافكار من توافق او تعارض هو الذي يؤدي الى وجود صور متطورة او معدلة لها . وهو الذي ينتج افكارا مبتكرة تحل محلها . لا بل ان اصالة او تطابق او تداعي الافكار لا يجريان

---

(١) 5 éme ed. Dalloz. Paris, 1961, p. 625

(٢) Ed. Hachtte. Paris, 1878. p. 235 - 236

بالضرورة وفقا لتسلسل زمني او ترتيب مكاني فكثيرا ما تتشابه افكار زمنين متفاوتين او مكانين متباعدين اكثر مما تترابط افكار زمنين متتابعين او مكانين متقاربين .

وهذا التعقيب لا يدعي تقييم الافكار السياسية ولا يحاول ان يلتزم بوجهة نظر او الدفاع عن مذهب او الانتقاد لرأي أو مذهب . ذلك ان ادعاء التقييم يستدعي جهودا تفوق اضعاف ما بذل من جهود في اعداد هذا التعقيب . فالتقييم يتطلب شمولا في الدراسة والتبسط في التحليل والتوسع في المقارنة بحيث يتطلب التقييم وضع المجلدات التي تتناول أحيانا مذهباً واحداً من مذاهب الفكر السياسي . اما النقد فيتطلب الاحاطة الوافية . وهذا كله ما يتجاوز نطاق هذا التعقيب ويتعدى غايته المحددة المحدودة .

لقد حاولنا بهذا التعقيب ان نضع بمتناول قاريء كتاب الامير لماكيافللي طالبا كان أم باحثاً ام مستطلعاً عرضا موجزا للأفكار السياسية الموزعة بين عشرات بل بين مئات المؤلفات بمختلف اللغات (١) . موفرا عليه قدر الامكان أمر التحري عنها بحيث يتيح المجال أمامه ولو أولياً للاحاطة بمعالم تراث الفكر السياسي قبل كتاب الامير وبعده . كما ان هذا التعقيب قد رمى من خلال اسلوب العرض المنهجي ــ على اساس التسلسل التاريخي الذي اعتمده ــ الى تزويد الباحث والمستطلع والطالب بما يشبه الدليل في مشتملات ومصادر ومراجع تراث الفكر السياسي .

ولعل هذا التعقيب يكون قد ساهم في الدعوة لجعل التفكير السياسي العلمي والاخلاق قوام ممارسة العمل السياسي واساس عمل رجل الدولة العصري .

ولعل هذا التعقيب يحقق بعض ما طمح اليه .

فاروق سعد

---

(١) اعتمدنا في ايرادها التسلسل الزمني على اساس تاريخ ولادة كل من المؤلفين . انما استأخرنا برتراند راسل لانطواء تفكيره السياسي على ايتوبيا المستقبل .

الفهرس



هذا الكتاب

خمسة قرون تمضي وما يزال "الأمير" كتاب العصر إنه كتاب السياسة لكل العصور.. إذ لم يحظ كتاب في السياسة بشهرته.. ولم يذع اسم مؤلف كما ذاع اسم "مكيافللي"..

ومن المسلم به أن ما من وسيلة لمعرفة أفكار مفكر أجدى من الرجوع الى نصوص كتاباته؛ ولكن مجرد التعرف على حقيقة أفكار مكيافللي، رغم شهرتها في تاريخ علم السياسة، ليس كافياً للقارئ العربي في ثمانينات القرن العشرين.

لذلك، كان لابد، بالإضافة الى نص كتاب "الأمير" من التعرف الى مكانه ودور أفكار مكيافللي في تراث الفكر السياسي، وهو ما اضطلع به التعقيب المسهب الذي كتبه المحامي الأستاذ فاروق سعد، عارضاً فيه الفكر السياسي في العالم عبر أبرز آثار اعلامه.

الناشر

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت